لطائف البيان

في تفسير القرآن

تفسير جزئي العنكبوت والأحزاب

(٢١ - ٢٢)



تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي العنكبوت والأحزاب

٢١ - ٢٢

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي العنكبوت والأحزاب

(٢١ - ٢٢)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي العنكبوت والأحزاب (21 – 22).

تأليف: أ.د.حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (334).

الطَّبعة: الأولى، 1446هـ – 2025م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي العنكبوت والأحزاب

(٢١ - ٢٢)

تأليف

أ. د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصيًا من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق

بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: "**لطائفُ البيان في تفسير القرآن**".

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب الخامس من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (العنكبوت والأحزاب) (21-22).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

1 رمضان المبارك 1446.

تفسير جزء العنكبوت

(21)

تفسير سورة العنكبوت

تفسير المقطع الأول من سورة العنكبوت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ
إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي
ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ
ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾.

شخصية السورة:

سورة العنكبوت؛ سورةٌ مكية كلها في قول الجمهور[1]، **وقيل:** إنها آخر ما نزل بمكة[2]، **ومنهم من يرى** أن الإحدى عشر آية الأولى نزلت في المدينة لذكر النفاق والمنافقين فيها[3]، **والمقصد العام لهذه السورة** هو الأمر بالصبر والثبات عند الابتلاء، لأن الابتلاء سنة الله تعالى في الخلق، وخاصة الصالحين، فإنهم أكثر الناس ابتلاءً وامتحاناً في دينهم، ومن صبر منهم فعاقبته حميدة.

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾، ابتدأت السورة بالأحرف المقطّعة، **وسبق أن بيّنا** أنها أحرف من حروف الهجاء، وأن الله ذكرها في بداية بعض السور لبيان إعجاز القرآن المكوّن منها، فأغلب السور التي افتُتحت بالحروف الهجائية ذُكر بعدها القرآن، إلا ثلاث سور لم يُذكر القرآن فيها مباشرة، وإنما ذكر في ثناياها، **وهي:** سورة العنكبوت، وسورة مريم، وسورة الروم، والاستفهام تقريع وإنكار لذلك الظن واستبعاده[4]، **والمعنى** أظن الناس أن يقولوا آمنا فيُتركوا من دون ابتلاء، فجرى فيه تقديم وتأخير، فكل إنسان ينطق بالإيمان بالله فإنه مُعرّض للابتلاء بسبب إيمانه، ويتفاوت الابتلاء بتفاوت

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 263)، والتحرير والتنوير: (20/ 199).

(2) ينظر: تفسير الألوسي: (10/ 337).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 305).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 202).

الإيمان، **كما في الحديث: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه"**[1]، **والفتنة هي** الاختبار، فقد يُختبر بدينه أو بماله أو بنفسه أو بأهله وأولاده وسائر أمور حياته؛ ليُنظر هل يصبر ويثبُت أم يكفر ويترك، ثم بيّن أن الفتنة سنّة ماضية في كل مؤمن، فقد وقع الاختبار لمن آمن من قبل هذه الأمة من الأمم السابقة، **وفي الحديث**: أن خباب بن الأرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسّد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد وهو محمرٌّ وجهُه فقال: **"لقد كان مَن قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرِق رأسه فيُشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله"**[2]، **وفي الآية والحديث** تصبير وتسلية لمن ابتلي من هذه الأمة، ثم ذكر الغاية من الاختبار والابتلاء وهو معرفة الصادق في دعوى الإيمان ممن هو كاذب فيه؛ لأن العلم نوعان: علم الله الأزلي بالأشياء قبل وقوعها، والعلم المترتب على حدوثها في الواقع، والثاني هو المرتبط به التكليف والثواب والعقاب للخلق، فإن الله لا يؤاخذ الناس بعلمه الأزلي، وإنما بالعلم المتحقق في الواقع الذي يطلع عليه الناس، وبهذا يزول

---

(1) مسند الدارمي: (2/ 921)، برقم: (2813)، والمستدرك على الصحيحين للحاكم: (1/ 91)، برقم: (121)، وإسناده صحيح.

(2) صحيح البخاري: (5/ 45)، برقم: (3852).

التعارض الذي يظنه البعض في آيات العلم المتعلقة بالذات الإلهية، فمعناه: أن علم الله الأزلي يظهره في الواقع فيعلمه الخلق.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾، الخطاب موجّه للكفار الذين كانوا يُؤذون المؤمنين في مكة بسبب إيمانهم، وفي الاستفهام توبيخ وتقريع للكافرين الذين يعملون القبائح ويؤذون المؤمنين وظنوا أنهم سيهربون من عقوبته وعذابه، فذلك لن يتحقق لهم، وظنهم هذا قبيح؛ لأنهم ظنوا بالله العجز وعدم القدرة عليهم، والله لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وفي الآية إشارة إلى تحذير المسلمين من مشابهة الكفار في اقتراف السيئات.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾، في الآية تبشير للمؤمن الصابر الثابت على دينه المخلص لله في عمله، فصدقُ رجائه في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقابله صدق التحقق والوقوع، وأجل الله هو الوقت الذي عيّنه الله في علمه للبعث والحساب يوم القيامة(1)، وهو آتٍ لا محالة، وذيّل الآية بذكر اسمي السميع العليم؛ إشارة إلى أن الله قد سمع قولهم، وعلم ما يدور في نفوسهم.

وقوله: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾، الجهاد بذل الوُسع في تحقيق شيءٍ ما، وهو لفظ عام يشمل جميع أنواع الجهاد، وأولها مجاهدة النفس بالإيمان والتقوى وفعل الطاعات وترك المعاصي والمُحرمات، وجهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد المنافقين وغيرهم من أصحاب

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 307).

الشبهات بالحجة والبيان، وأجرُ ذلك الجهاد وثمرته وثوابه يعود لفاعله، ولا يرجع إلى الله من ذلك شيء، فالله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، وكل من يعبد الله من عوالم الملائكة والإنس والجن، فالله غنيٌ عنهم أجمعين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾، فمن جاهد نفسه فحقّق الإيمان وعمل الصالحات مع الإيمان، فهما متلازمان لا ينفع أحدهما بدون الآخر، فهو موعود من الله بمحو سيئاته وإزالة آثارها، ومنحه أحسن الأجور وأتمها لأعماله التي كان يعملها في الدنيا، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب على الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا من كرم الله وفضله عليهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾، ثم أمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على الإيمان بالله، فالوالدان سبب وجود الإنسان، ولهما عليه حق كبير، نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص، وقد كان شاباً باراً بأمه، وكانت أمه حمنة بنت أبي سفيان تحبه، وكانت تحسن إليه، ولكنه لما أسلم غضبت منه وهجرته وأقسمت عليه يميناً إن لم يكفر بمحمد ودينه فإنها لا تأكل الطعام ولا الشراب حتى تموت ويعيّره الناس بأنه قتل أمه، فمكثت ثلاثة أيام بلياليها لا تأكل شيئاً، وكان لسعد أخٌ آخر اسمه عمارة وكان يفتح فمها بالعصا ويصُب فيها الماء حتى

لا تموت، وكانوا يحاولون مع سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لعله أن يرجع وهو ثابتٌ على إيمانه، فأنزل الله هذه الآية عذراً له وتخفيفاً عنه[1]، فهذا نوع من الامتحان، امتُحن هذا الرجل بأمه، لأن الإنسان قد يُمتحن بأقرب الناس إليه، فأرشده الله إلى أن يبر بوالديه المشركين ويحسن إليهما، لكن لا يكفر بالله، وإن بذلا جهدهما لمنعك من الإيمان وعودتك إلى الشرك؛ فلا تستجب لهما، فجمع له بين أمرين كان يظنها البعض أنها متناقضة، وهما طاعة الوالدين المشركين والإيمان بالله وعدم الشرك به، وهذا حكمٌ عام يشمل كل إنسان من المؤمنين إلى اليوم، بأن يُحسن إلى والديه وأن يعاملهما معاملةً حسنة، وإن بذلا جهداً كبيراً في دعوته إلى الشرك الذي لا يوجد دليل ولا حجة على جوازه، فلا تطعهما، وقيّد الشرك بغير علم؛ لبيان أن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه[2]، وقد كان المشركون يُشركون بالله تقليداً لآبائهم، وذكر الوالدين لمكانتهما، فمن باب أولى لا يجوز طاعة غيرهما كالأخ والابن والعم والصديق ونحوهم، فلا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق سبحانه، ومرجع الجميع يوم القيامة إلى الله سبحانه، فيخبر كل إنسان بعمله ويجازيه عليه، فإن كان من أهل الكفر والشرك حشره الله مع الكافرين وأدخله النار معهم، وإن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح حشره الله مع الصالحين الراسخين في الصلاح، وأدخله الجنة معهم.

(1) ينظر الحديث في صحيح مسلم: (4/ 1877)، برقم: (1748).

(2) ينظر: تفسير أبي السعود: (7/ 31).

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾، ثم ذكر نوعاً آخر من الفتنة، فبعض الناس يدخل في الإسلام وينطق الشهادتين بدون قناعة ولا يقين به، وإنما لمصلحة، فإن لم يُؤذه أحد استمر عليه، وإن حصل له أدنى أذية في ماله أو أهله بسبب إيمانه، لم يصبر على الأذى، بل يترك الإيمان ويرتد إلى الكفر والشرك، وذلك بسبب فساد تصوره وقلة علمه حين جعل ابتلاء الناس له في الدنيا مساوياً لعذاب الله للكافرين في الآخرة، وشتان بينهما، فمهما لحق بالمخلوق من عذاب في الدنيا فلا يُساوي شيئًا يسيراً من عذاب الله في الآخرة، ولكنهم حين ينتصر المؤمنون يتواصلون بهم ويدّعون أنهم كانوا مع المؤمنين، لعلهم أن يحصلوا على نصيبهم من مصالح الدنيا، وهذا يدل على أنهم منافقون، وأن هذه الآيات مدنية[1]، وربما حصل مثل هذا لبعض ضعفاء الإيمان في مكة، حين يعذبهم المشركون فيرتدون عن الإيمان ويرغبون بالبقاء على صلة بالمؤمنين للاستفادة الدنيوية منهم[2]، **وعقّب الله على قولهم هذا بسؤال استنكاري، ومعناه:** أتكذبون على الله وهو يعلم ما في قلوب الخلق من الإيمان والكفر، وهذا دليل على قُبح تصورهم وفساد عقولهم، ثم بيّن أنهم بفعلهم هذا يتحقق العلم بنفاقهم في الواقع، ويتحقق العلم في الواقع بثبات

(1) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 14).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 224).

وصبر المؤمنين، فيتميز المؤمن المخلص بإخلاصه والمنافق بنفاقه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾، **وقال الكفار للمؤمنين:** كونوا على مثل ما نحن عليه من الكفر والتكذيب والشرك وعبادة الأصنام، وسنتحمل العقوبة عنكم يوم القيامة، قالوا ذلك جهلاً وغروراً ومحاولةً منهم في رد المسلمين عن دينهم، فعقّب الله عليهم بأنهم كاذبون في وعدهم هذا؛ لأن الخلق يوم القيامة يتبرؤون من أقرب الناس إليهم، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾[عبس:34-35]، **ثم بيّن** أن من كان سبباً في ضلال غيره فلا بد أن يتحمل وزره ووزر من أضله، والأثقال كناية عن أوزار الذنوب والمعاصي؛ لأنها تُثقِل كاهل صاحبها حسياً ومعنوياً، وذلك حين يكون الشخص مثقلاً بحمله ويضاف له حمل أناس آخرين فوق حمله زيادة في العناء والشقاء له[1]، وسيسألهم الله يوم يبعثون بين يديه عن كل افتراءاتهم، ولم يذكر معمول الافتراء ليشمل كل كذب حصل منهم سواءً في حق الله أو في حق الرسول أو في حق القرآن أو في حق المؤمنين.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير (20/ 221).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- سنة الابتلاء سنة ماضية في الخلق، وخاصة في الصالحين، يُبتلى الرجل على قدر دينه.

2- غنى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن الخلق، فإنه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضر معصية العاصين.

3- بيان وجوب البِر والصلة بالوالدين ولو كانا مشركين، وعدم الطاعة لهما في الكفر والمعصية.

4- أن الإيمان الصادق بالله يقتضي الثبات على الأذى والتحمل للابتلاء.

تفسير المقطع الثاني من سورة العنكبوت

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ
وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ
لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا
فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ
أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ
ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ
تُقۡلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ
وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا
وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ
وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾، **أخبـر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** رسـولَه محمـداً ﷺ بقـصص الأنبياء والرسل الذين سبقوه وكذبتهم أممهم، تسلية له، وبدأ بذكر نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أول رسل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى الأرض، فقد مكث الناس بعد خلق آدم عشرة قرون على التوحيد، ثم دخلهم الشرك فأرسل الله إليهم نوحاً، فعاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهل تشمل ما قبل البِعثة وما بعد الطوفان أم لا؟، قولان للمفسرين(1)، وهو وقت طويل يكفي لإنذارهم، ومع ذلك كذّبوه، بعد هذه المدة الطويلة ما نفع فيهم البلاغ والإنذار، فما آمن معه منهم إلا قليل، فلا تأسف يا محمد على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، واختصر قصة نوح هنا وفصلّها في سور أخرى، فلما يئس نوح منهم دعا **عليهم بقوله:** ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾[القمر:10]، فنصره الله بالطوفان، وهو كل شيءٍ كبير يستغرق جميع الأشياء(2)، **والمقصود به هنا** الماء الذي طاف الأرض كلها، والواو للحال، أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم بالكفر بالله حين نزلت بهم العقوبة، وأنجى الله نوحاً ومن معه في السفينة التي أمره الله بصنعها، والضمير يجوز أن يعود إلى السفينة ذاتها، أو إلى واقعة النجاة، أو إلى جنس السفن(3)، وجنس السفن باقٍ إلى اليوم، فمن لم يشاهد بقايا سفينة

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 268).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 164).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 223).

نوح يشاهد السفن التي تذكّره بسفينة نوح ونجاته عليها، فكانت في ذلك عبرة وعظة لجميع سكان الأرض.

ثم قال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾، واذكر إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين قال لقومه أفردوا الله بالعبادة، واتقوا غضبه وسخطه واتركوا الشرك بالله، ولا وجه للمقارنة بين الشرك والتوحيد، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم[1]، فلو كنتم تعلمون الفرق بين التوحيد والشرك، وبين التقوى والمعصية لما تجرّأتم على الوقوع فيهما.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾، ثم بيّن لهم حقيقة هذه المعبودات، وأنها أوثان مصنوعة من الأحجار أو الأشجار أو التراب، والوثن: هو الصنم المصنوع على شكل مخلوق، وباتخاذكم لها آلهة اختلقتم الكذب، فأنتم تصنعونها بأنفسكم ثم تضيفون إليها ما لا تستحقه من صفات، والواقع أنها لا تملك شيئًا مما وصفتموها به، إن هذه الأصنام والأوثان التي اتخذتموها آلهة غير الله لا تملك أرزاقكم، ولا تملك لنفسها نفعًا، بل أنتم من تقومون عليها وتحرسونها، فأي شيءٍ تريدونه من صنمٍ أو وثنٍ لا ينفع نفسه، ولا يسمع ولا يُبصر، فكيف تطلبون منه الرزق؟!! فقد كانوا يصنعون الأصنام لغرض البركة في أرزاقهم، ويدعونها أن تيسّر أرزاقهم، **فأمرهم** الله بطلب الرزق منه وحده، والألف واللام للاستغراق،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني (4/ 227).

فهو مالكه وهو الذي يمنحه ويُعطيه للخلق إذا أخذوا بأسباب الحصول عليه، **وأمرهم** بالعبادة، وهي غاية الخضوع مع غاية التذلل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **وأمرهم** بالشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو العمل بطاعته مقابل النعم التي أنعم الله بها عليهم، وذيّل الآية بوعظهم بأن الجميع سيرجعون إلى الله يوم القيامة، فيُجازيهم على الإيمان والعمل الصالح بالجنة، ويُعاقبهم على الكفر بالنار.

وقولـــــــه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾، الخطاب ما زال سياقه من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه، والمقصود بالرسول هنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإن مهمة جميع الرسل هي البلاغ المبين لما أُرسلوا به إلى أقوامهم، وليس عليهم إدخال الإيمان إلى قلوبهم، **وقيل**(1): إن هذه الآية جاءت كجملة اعتراضية خُوطب بها أهل مكة، وفصلت بين طرفي قصة إبراهيم مع قومه، **والمعنى** وإن تُكذبوا يا أهل مكة رسولكم، فقد كذبت أمم من قبلكم رسلها، وما على الرسول محمد ﷺ إلا مهمة البلاغ المبين لكم، وهو أرجح؛ لأن إيراد قصة إبراهيم كان لإرادة التنفيس عن رسول الله ﷺ.

وقولـــــــه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾، **السؤال** بكيف مستعمل في التنبيه ولفت النظر، والخطاب للذين كفروا أن يتأملوا في عظمة الله وقدرته كيف أنشأ الخلق المكلفين بالعبادة من العدم، ثم يبعثهم يوم القيامة للحساب، وثم للتراخي الرتبي، لأن أمر إعادة

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 448).

الخلق أهم وأرفع رتبة من بدئه؛ لأنه غير مشاهد، ولأنهم ينكرونه[1]، وكل من الخلق والإعادة يسير على الله سبحانه.

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾، أمر الله رسوله أن يقول لقومه أن يتحركوا في الأرض ويسافروا فيها وينظروا فيها أثناء السير عليها ببصرٍ ثاقب وقلب متأمِّل؛ ليروا كيف بدأ الله الخلق، وأوجده من العدم، فقانون إنشاء الخلق واحد في كل المخلوقات، فقد كان الكفار يُقرون بأن الله هو الخالق، ولكنهم كانوا ينكرون البعث والنشور، فأخبرهم أن من أنشأهم من العدم فهو قادر على إعادتهم بعد موتهم، والله لا يُعجِزه شيء، بل هو على كل شيء قدير، وإذا بعث الخلق إليه حاسبهم على أعمالهم في الدنيا، فيرحم من يشاء بجنته وهم المؤمنون، ويعذّب من يشاء بناره وهم الكافرون، والخلق جميعًا عائدون وراجعون إليه للوقوف بين يديه ولا يتخلف منهم أحد، وفي النظم تقديم وتأخير، فالرحمة والعذاب تكون بعد البعث والنشور.

وقولـه: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)﴾، لا أحد يمنع الله من عقوبة الخلق، ولا الخلق يستطيعون الفرار والهروب من قبضته ولا النجاة من بطشه وعقوبته، أينما كانوا في الأرض أو في السماء، فليس لهم غير الله من يرحمهم ويرفع عنهم العذاب!

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 228).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾، هذا تعقيب قرآني على ما قيل بين الرسول وقومه، سواءً قلنا إن السياق في إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقومه، أو في محمد ﷺ وقومه، بأن الكفار الجاحدين بآيات الله الشرعية والكونية والمكذبين بالبعث والنشور، قد أصابهم اليأس والقنوط من رحمة الله في الآخرة، وذلك حين يرون المؤمنين يدخلون الجنة، وهم لا يجدون لهم مكانة ولا شفاعة ولا رحمة، ولا يجدون في صحائف أعمالهم أعمالاً صالحة تكون سبباً لرحمة الله لهم، بل يكون مصيرهم إلى العذاب الأليم في النار.

ثم قال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، عاد الخطاب إلى ذكر جواب قوم إبراهيم لإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بعد تلك الآيات التي جيء بها كجمل اعتراضية للعظة والعبرة، سواء كان المخاطب بها قريشاً أو قوم إبراهيم، وكان الجواب منهم بقطع الحوار والنقاش لمعرفة الحق مع إبراهيم والانتقال إلى التهديد والوعيد بالقتل والبطش لإسكات الحق، وهذه عادة أهل البغي والظلم من المكذبين قديماً وحديثاً، لا يقبلون الحوار ولا النقاش، فقد حاور إبراهيم قومه بالأدلة العقلية وناقشهم بالحجج والبراهين القطعية، ولو كان معهم حجة لما وقعوا في البغي والعدوان، بل عدوانهم وباطلهم قائم على إنكار الحجج والاعتداد بالقوة للبطش بالمخالف لهم، لذلك أنهوا الحوار مع إبراهيم، وقرروا قتله بالحرق، فبنوا له بنياناً وألقوه في النار بالمنجنيق، وكان بإمكانهم أن يقتلوه بأي وسيلة وينتهي أمره، ولكنهم اختاروا هذه الكيفية ليسمع بقتله القاصي

والداني، ولكي يشارك الجميع في هذه الجريمة النكراء، ولا يتحملها البعض منهم فقط، فأنجاه الله من النار ولم تحرقه، وخرج منها سالمًا يمشي، وكان في نجاته بهذه الصورة براهين وحجج على صدق رسالته، تدفع من رآها إلى الإيمان به، ولكن هؤلاء قومٌ قد طُبع على قلوبهم فأصبحوا لا يفرقون بين الحق والباطل، فلم يستفيدوا من هذه الآيات وتلك البراهين.

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾، ظاهر السياق أن هذا القول قاله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد الخروج من النار[1]؛ لأنه أقوى في الحجة عليهم، ويجوز أن يكون قاله لهم قبل أن يُحرقوه، ويكون في النظم تقديم وتأخير، **والمعنى** أن هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تنفع ولا تضر، وأن سبب عبادتكم للأوثان أنها تجمعكم وتجعلكم متحابين في الدنيا عليها[2]، وأن هذا الحب الذي بينكم وبين الأصنام أو بينكم مع بعض كعُبادٍ لها؛ لن يستمر في الآخرة؛ لأنه قيّده بالحياة الدنيا، وهذا شأن كل من يجتمعون ويتحابون في الدنيا على شيء غير الله، فإن هذه المودة تنتهي بالموت، ويوم القيامة يتبرأ المعبودون ممن عبدهم، ويتبرأ العابدون من المعبودين، أو يتبرأ القادة من الأتباع، ويتبرأ الأتباع من القادة، ويسب بعضُهم بعضًا، ويريد كل واحد أن يبتعد عنه صاحبه فلا يبقى

(1) ينظر: تفسير الرازي: (25/ 46).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 672).

معه[1]، وهذه طبيعة أهل النار، **كما قال الله عنهم**: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:38]، ومصيركم جميعًا النار، فهي مرجعكم ومكان استقراركم، ولا مفر لكم ولا منقذ منها.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾، فآمن لإبراهيم من قومه كلهم لوط، وهو ابن أخي إبراهيم، والسياق أنه آمن به بعد أن رأى معجزة نجاته من النار، وأعلن أنه هاجر لديار قومه؛ لأن الله أمره بمفارقة ديار أهل الكفر، وهذه أول هجرة لأجل الدين، ولذلك جعلها هجرة إلى ربه[2]، وهاجر مع إبراهيم زوجته سارة وابن أخيه لوط من أرض العراق إلى أرض الشام[3]، هجرة شرعية دينية، لأن الإنسان قد يُهاجر من أجل طلب الرزق ونحوه، وجاء تذييل الآية بذكر اسمي العزيز الحكيم لأنه هو الذي سيمنعه من عدوه، ويدله على التصرف السليم الذي لا خلل فيه.

وقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾، **أي**: بعد هجرته من العراق إلى الشام، رزقه الله ابنًا اسمه إسحاق، وهو من زوجته الأولى سارة التي هاجرت معه، وبشّره الله بأن هذا الغلام سيكبر ويتزوج وينجب في حياة إبراهيم ابنًا اسمه يعقوب، فتقر به أعينهما، فيعقوب حفيد لإبراهيم من ولده إسحاق،

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 229).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 238).

(3) ينظر: تفسير الثعلبي: (7/ 276).

وهو الملقب بإسرائيل الذي تُنسب إليه بنو إسرائيل، وصيّر النبوة في ذرية إبراهيم فهو أبو الأنبياء الثاني بعد آدم، فكل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بعده من ذريته حتى ختموا بمحمد ﷺ، والكتاب اسم جنس للكتب السماوية التي تنزل على الأنبياء والرسل، مثل التوراة والإنجيل والزبور والصحف والقرآن ونحوها، فلم ينزل كتاب بعده إلا على الأنبياء والرسل من ذريته، ومنح الله إبراهيم أجره في الدنيا، والأجر لفظ عام يشمل الرزق والذكر الحسن والزوجة والذرية الصالحة، ونحوها من النعم الدنيوية، وهو في الآخرة داخلٌ في عداد الراسخين في الصلاح، بل هو ومحمد ﷺ أكثرهم صلاحًا، وأعلاهم درجة في الجنة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الرزق بيد الله وحده، فلنطلب الرزق من الله مع الأخذ بأسبابه.

2- أن من الأدلة العقلية أن من أنشأ الخلق من العدم فهو قادر على بعثهم.

3- أن الجنة محرّمة على الكافرين.

4- عناية الله تعالى بأنبيائه ورسله وعباده الصالحين ونجاته لهم من مكر أعدائهم.

5- فضل الهجرة من بلاد الكفر لإقامة دين الله وشرعه.

6- منزلة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند ربه، فقد جعل له لسان صدق في الآخرين، وجعله من ورثة جنة النعيم.

تفسير المقطع الثالث من سورة العنكبوت

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى
نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟
ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ
مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ
مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ

وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قــــول الله تعـــــالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، واذكر قصة لوط مع قومه، **وهم قومٌ** من الكنعانيين كانوا يسكنون في قرية كانت تُسمى سَدوم، **وموقعها الآن** بين الأردن وفلسطين، **وكانت تُسمى قديمًا** ببحيرة لوط، **وتُسمى الآن** بالبحر الميت الذي لا يعيش فيه حيوان لشدة ملوحته، وكانوا قومًا كافرين، وزادوا إلى كفرهم فعل الجرائم والقبائح، ومنها فاحشة إتيان الذكران من العالمين، وهي التي سُميت واشتُهرت بعد ذلك بفاحشة قوم لوط، **وسُميت بالفاحشة؛** لشدة فُحشها وقُبحها، فإن الأنفس السويّة لا تقبل بها، بل إن الحيوانات لا تفعل ذلك، وأن قوم لوط هم أول من أحدثها في البشرية، فهم أول قومٍ انتكست فطرهم فوقعوا في فعل هذه الفاحشة القبيحة، ثم بيّن لهم وصف هذه الفاحشة التي يفعلونها، فإنهم ينكحون الرجال بفعل الفاحشة في أدبارهم لقضاء شهوتهم بذلك، ويتركون نكاح النساء، وقد أباح الله لهم نكاح النساء وحرّم عليهم نكاح الرجال، ويقطعون طُرق الناس التي يسافرون عليها فيُخيفونهم ويأخذون

أموالهم ويغتصبون مردناهم، ويمارسون المنكر في مكان اجتماعهم مجاهرين به دون حياء من بعضهم، مما يدل على فساد أخلاقهم، والمنكر هو كل ما يُستنكر من الأفعال والأقوال والاعتقادات، ولكن سياق الحديث عن منكر متعلق بفاحشتهم، وقد تعددت أقوال المفسرين فيه(1)، وكلها منكرات، مثل: كشف العورات، والحديث عن الفاحشة بأصوات مرتفعة، والرمي بالحصى لاختيار من يفعلون بهم الفاحشة، وانتشار الضُراط في مجالسهم ونحوها، ولذلك يقبُح بالإنسان أن يتعمد الضراط بين الناس، لأنه من عادات قوم لوط القبيحة، ولعل انتشار هذا الفعل بينهم كان نتيجة لفعلهم الفاحشة ببعضهم، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان خلقاً مُتقناً، فحين أفسدوا خلق الله بارتكاب الفاحشة في الدبر صار الهواء يخرج منهم بكثرة، وربما كانوا يفعلوا ذلك عمداً لقلة حيائهم وتمكّن العادات والأخلاق القبيحة منهم!.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾، فأجابوه باستعجال نزول العذاب بهم استهزاءً به وتشكيكاً في صدقه، وهذا يدل على وقاحتهم وفساد عقولهم، فكيف يقولون هذا لرجل صالح جاء يدعوهم إلى الإيمان وترك قبائح الأفعال التي تستقبح فعلها الحيوانات، وهم يفعلونها، فلو كان عندهم عقول صحيحة لقبلوا النصيحة! فلما وصل معهم لوط إلى طريق مسدود، طلب من ربه أن ينصره على القوم المفسدين، فينزل بهم عذابه الذي

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 405).

كانوا به يستهزؤون، ووصفهم بالمفسدين؛ لفساد عقيدتهم وفساد سلوكهم.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، فاستجاب الله دعاءه، فنزلت الملائكة لإهلاكهم، فمروا في طريقهم على نبي الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لتبشيره بالولد من زوجته الأولى سارة، وأخبروه بأنهم نزلوا لإهلاك قوم لوط الذين كانوا يسكنون قرية سدوم، وأشاروا إلى جهتها لقربها من البلد الذي يسكن فيه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وعلّلوا سبب إهلاكهم بأنهم قد بلغوا في الظلم منتهاه، وهو الكفر بالله، وفعل القبائح.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾، فلما سمع إبراهيم الخبر أشفق على ابن أخيه لوط أن يهلك معهم، فنبههم أنه يسكن فيها وليس من الظالمين، وعبّر بـ(في)؛ لأنه لم يكن من أهل القرية، بل وافد عليها، فأجابته الملائكة بأنهم يعلمون بأحوال من في القرية ممن يستحق الهلاك أو يستحق النجاة، والملائكة أعلم بالأمر من إبراهيم؛ لأنهم جاءوا بوحي لتنفيذ مهمة محددة، وجاء في آية أخرى أن إبراهيم جادل الملائكة في هلاك قوم لوط، **كما في قوله:** ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾[هود:74]، وذلك من شدة حلمه بالخلق، **فقد وصفه الله به في قوله:** ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[التوبة:114]، **ومن حلمه** أنه لم يطلب من الله أن يعذّب قومه رغم ما فعلوه به من حرقٍ وطرد، ولم يشابهه في ذلك إلا محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الذي كان حليماً على قومه الذين ضربوه فأدموه، فكان يمسح الدم عن وجهه،

ويقول: **"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"**[1]، وأخبرت الملائكة إبراهيم بأنها ستنجّي لوطًا مع أهله من الهلاك، والمقصود بأهله ابنتاه، واستثنوا امرأته من النجاة معهم، ولم يُطلق عليها لفظ (زوجة)؛ لمخالفتها له في دينه، وأخبروه أنها ستكون من الباقين في العذاب مع قومها[2]، فتهلك بهلاكهم.

وقوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾، فلما وصلت الرسل إلى لوط كانوا على هيئة بشر وبصور جميلة، فساء لوطًا مجيئهم، خوفًا عليهم من قومه المجرمين، وضاق بهم ذرعًا، وهو كناية عن العجز؛ لأن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله قصير الذراع[3]، وظنهم من عموم الناس الذين يسافرون من تلك البلدة، ولم يكن يعلم أنهم ملائكة في صورة بشر، فأخبرته الملائكة بحالهم، وقالوا له: لا تخف علينا من قومك ولا تحزن، فإنهم لا يقدرون علينا، وأخبروه بأنهم جاءوا لهلاك قومه وأنهم سينجّونه من العذاب مع أهله وهم ابنتاه، واستثنوا من النجاة امرأته التي ستبقى مع قومها في العذاب وتهلك بهلاكهم، وأخبروه بنوع العذاب الذي سينزل بأهل قريته، بأنه الرجز، وهو شدة العذاب المنزل عليهم من السماء، مأخوذ من ارتجز إذا اضطرب، لما

---

(1) صحيح البخاري: (4/ 175)، برقم: (3477).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 675).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 453).

يلحق المعذب من القلق والاضطراب[1]، وقد جاء تفاصيله في آياتٍ أخرى، **وخلاصته** أن جبريل رفع قرى قوم لوط إلى عنان السماء ثم قلب عاليها سافلها ثم أُتبعوا بحجارةٍ من سجيل، ولذلك يرى بعض الفقهاء أن عقوبة من يفعل فاحشة اللواط أن يُعاقب بمثل ما عُوقب به قوم لوط، فيُرمى من مكان مرتفع، ثم يُلحق بالحجارة حتى يموت[2]، وهذا العذاب الشديد لهم كان بسبب فسقهم وخروجهم عن الفطرة، في العقيدة والسلوك.

وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾، **هذا تعقيب** من الله على قصة هلاكهم، حيث ترك مكان قريتهم علامة واضحة ليتفكر بها العقلاء ويتعظوا بحالهم، فقد تحولت القرية إلى بحيرة، **وتسمى اليوم** بالبحر الميت، لكثرة المواد الكبريتية التي لا يعيش فيها حيوان، ومن تأمل فيها تذكر أن هذه آثار لعقوبة أولئك المجرمين الذين انتكست فطرهم ففعلوا تلك الفاحشة مع كفرهم بالله.

ثم قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾، **أي:** وأرسلنا إلى مدين، وهو اسم للقبيلة، وسُميت البلدة باسم القبيلة، وهي المدينة هرب إليها موسى بعد أن قتل القبطي، وتقع

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 453).

(2) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد: (5/ 37).

الآن في شبه الجزيرة العربية في منطقة تبوك بالقرب من مدينة البدع[1]، وشعيب أخوهم من النسب، لأنه من نفس القبيلة، وكانوا على الكفر والشرك، ليدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة غيره، وأن يستعدوا للوقوف بين يدي الله يوم القيامة ويخافوا ذلك اليوم ويعملوا له الصالحات، ويتركوا الفساد في الأرض كالتطفيف في المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم ونحوها، ولا يصير الفساد في الأرض شغلكم الشاغل، فكذبوه وجحدوا أمره؛ فأرسل الله عليهم عذاب الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة التي هلكوا بسببها، حيث صاح بهم جبريل حتى رجفت قلوبُهم وتمزقت من شدتها، فسقطوا على ركبهم صرعى ميتين في أماكنهم، ولم يتمكنوا من الهرب لينجوا بأنفسهم من العذاب.

وقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾، **واذكر لهم قصة** هلاك قوم عاد، **وهم** قوم نبي الله هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكانوا يسكنون في الأحقاف قريبًا من حضرموت، وثمود، **وهم** قوم نبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكانوا يسكنون في الحجر المعروفة اليوم بمدائن صالح، **وتُسمى الآن** منطقة العُلا قريبًا من تبوك في جزيرة العرب، وقد كان تجار قريش يمرون على مساكنهم في أسفارهم إلى اليمن والشام فيرون آثار هلاكهم، بسبب كفرهم الذي حسّنه لهم الشيطان ودعاهم إليه فاتبعوه، وابتعدوا عن طريق الإيمان والتوحيد الذي جاءت به رسلهم، وقد كانوا أصحاب بصائر وعقول متمكنين من النظر

(1) ينظر: المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية: (ص: 407).

والاستدلال[1]، ولكنهم لم يستخدموا ذلك في معرفة الحق واتباعه، فضلوا عنه ولم يهتدوا إليه.

وقوله: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، واذكر قصة هلاك قارون وفرعون وهامان، فقارون كان من بني إسرائيل وأعطاه الله المال الكثير، فانحرف بماله واتبع فرعون، وهامان وزيره، وقد جاءهم موسى ودعاهم إلى الإيمان وترك الكفر، فبالغوا في التكبر والإعراض عن قبول الحق، وأظهروا كبرهم في أرض مصر التي كانوا يحكمونها، ورفضوا أن يُؤمنوا بموسى، فأهلكهم الله، وما كانوا فائتين من عذابنا[2] ولا ناجين من الهلاك.

ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: فعاقبنا كل قوم ممن سبق ذكرهم بسبب ذنوبهم، ثم بدأ يُفصّل في نوع العذاب الذي حصل لهؤلاء الأقوام، بفاء التفريع، التي تأتي بعد الإجمال، فبدأ بقوم لوط الذين أرسل الله عليهم من السماء حجارةً من سجيل حصبهم بها، وذكر هلاك قوم صالح وقوم شعيب بالصيحة، حيث صاح بهم جبريل فانخلعت قلوبهم، وذكر هلاك قارون بخسف الأرض به، وذكر هلاك فرعون وهامان وقومهما بالغرق، وعلّل هلاكهم جميعًا

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1416).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (6/ 242).

بأنه كان بسبب ظلمهم، وأعظم الظلم هو الشرك بالله ثم المعاصي الأخرى التي ظلموا بها أنفسهم، ونفى الله عن نفسه ظلمهم؛ لأن الله حكَمٌ عدل، فلم يكن الله ليهلكهم بذنوب غيرهم، إنما أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم، وعبّر بالمضارع لاستمرارهم في الظلم وعدم قبولهم النصح والإرشاد من أنبيائهم، وفي هذا تهديد ووعيد لكفار قريش إن لم ينتهوا عن ظلمهم وكفرهم، فإن مصيرهم الهلاك كما حصل لمن قبلهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- قبحُ المجاهرة بالمنكرات في المجالس العامة، وخطورة ذلك على من فعلها.

2- بيان أن الإيمان شرط للنجاة من العذاب، وأن الأنساب لا تنفع بدون إيمان.

3- من أخلاق الإسلام حماية الضيوف والدفاع عنهم.

4- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما أهلك الأمم ترك لهم آثاراً باقية، ليتّعظ بهم من أتى من بعدهم.

5- بيان أن العقل إذا لم يُوصل صاحبه إلى الحق وعبادة الله فلا قيمة له، وليس بعقل رشيد.

تفسير المقطع الرابع من سورة العنكبوت

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ
بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ
مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ
نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ
وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ
بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن
قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي
صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ
أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ
يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ
لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾.

قـــــول الله تعـــــــالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾، **هـــذا مثالٌ ضربه الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمشركين الذين اتخذوا آلهةً يعبدونها من دون الله من الأوثان والأصنام؛ لكي تنفعهم وتُدافع عنهم، والواقع أنهم هم الذين يحمونها ويُدافعون عنها، **فما هو المشبه وما المشبه به وما وجه الشبه؟! المُشبّه** الشرك وعبادة الأصنام، **والمُشبّه به** بيت العنكبوت، **ووجه الشبه** شدة الضعف وعدم الفائدة، **والمعنى** أن اتخاذ المشركين أصناماً آلهة تنفعهم يشبه اتخاذ العنكبوت من خيوطها الضعيفة بيتًا يمنعها من الحر والبرد ويسترها، والواقع أن أوهن البيوت عند سائر المخلوقات هو بيت العنكبوت، فهو عبارة عن خيوط متشابكة لا ترد برداً ولا تستر جسداً، هذا وصف له من الناحية الحسية، وقد اكتشف العلم الحديث معنى آخر له من الناحية المعنوية يمكن أن يُضم إلى تفسير هذه الآية، فبيت العنكبوت المعنوي لا يوجد فيه ترابط ولا تكاتف بين ذكور العنكبوت وإناثه، فإن الأنثى هي التي تبني البيت، فإذا لقحها الذكر فإنها تنقض عليه بعد ذلك فتقتله، فلا يوجد استمرار للحياة الزوجية بينهما ولا وئام[1]، ولو كان المشركون يعلمون أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر وأن حالها كحال بيت العنكبوت؛ لتبرؤوا منها وتركوها ولم يعبدوها من دون الله، وعقّب الله جهل المشركين به فأثبت لنفسه العلم المطلق، و"ما" قد تكون استفهامية،

(1) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف الحاج أحمد: (ص 501).

بمعنى السؤال عن آلهتهم للتوبيخ والتقريع، أو نافية، **والمعنى** إن الله يعلم أنهم يدعون آلهةً لا تصلح لشيء، وإنما هي آلهة مزعومة، فلا قيمة ولا مكانة لها ولا تنفع ولا تضر، أو موصولة، **والمعنى** إن الله يعلم الذي يدعون من دونه من أي شيء كان[1]، **والتعقيب بالعزيز الحكيم** إشارة إلى جهلهم حيث تركوا عبادة من هذا وصفه وعبدوا شيئًا حقيراً ضعيفًا لا يملك لنفسه شيئًا ولا إرادة له فضلاً عن أن يكون له حكمة.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، **أي:** إن الأمثال التي يذكرها الله في القرآن للناس تنبيهًا لهم وتقريبًا لما بعد من أفهامهم، يفهمها أهل العلم وأصحاب العقول السليمة، ولا يستفيد منها الجهلة ولا أصحاب العقول السخيفة.

ومعلوم الآن أن ضرب الأمثال من الوسائل التعليمية الناجحة التي تُوضح ما خفي من المعنى بصورة حسية، وكما يقال: بالمثال يتضح المقال، **وفي الآية مدحٌ** لأهل العلم الراسخين فيه، وأنهم يتدبرون الأمثال بالتأمل والتفكر فيها، وفيها تلميحٌ وتعريضٌ بمشركي مكة بأنهم جهلة ولا يفهمون المغزى من الأمثلة.

ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾، إذا ذُكر خلق السموات والأرض؛ فالمقصود به خلق الكون كله بما فيه من مخلوقات، وقد خلقه لإقامة الحق، وخلقه كله لا يوجد فيه عبث ولا باطل،

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 235).

والباء للملابسة، **أي:** خلقهما على أحوالهما كلها بما ليس بباطل[1]، فالحق لا ينفك عن الغاية من الخلق، وفي هذا الخلق دلالة عظيمة، وعلامة ظاهرة على قدرته، وتفرده بالإلهية، وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك فيُصدقون بقدرة الله وينقادون لأمره.

وقوله: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، أمر الله رسوله ﷺ بتلاوة القرآن الكريم الذي أوحاه الله إليه بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والتلاوة لها معنيان: القراءة والترتيل للآيات والاتباع لما فيه من أحكام، وكلاهما مطلوب من المسلم، و"مِن" بيانية، **أي:** رتل واقرأ واتبع الكتاب كله، واستمر بالمحافظة على الصلاة بأوقاتها وشروطها وأركانها، ثم بيّن فائدة المحافظة على الصلاة بأنها تنهى صاحبها عن فعل القبائح من الأفعال والمنكر من الأقوال، فهي وسيلة لإصلاح النفوس وتزكيتها، فمن أقامها ثم لم ينته عن المعاصي والمنكرات لم تكن صلاته بالصفة التي وصفها الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، **فيها ثلاثة معانٍ**[2]:

الأول: أن المقصود بالذكر هنا الصلاة، سماها ذكراً لأن أكثر أعمال الصلاة هو الذكر من قراءة قرآن وتسبيح وتكبير ودعاء ونحوها، فتكون الصلاة أكبر وسيلة لدفع الفُحش والمنكر عن صاحبها.

(1) التحرير والتنوير: (20/ 257).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: 1420)، والتحرير والتنوير (20/ 261).

والثاني: أن المقصود به ذكرُ الله المطلق وهو أفضل الأعمال.

والثالث: أنّ تذكّر الله ومراقبته والحذر من غضبه أكبر وسيلة لإبعاد النفس عن فعل الفحشاء والمنكر، ولا تعارض بين هذه المعاني، فكلها مقصودة من اللفظ، وذيّل الآية بإحاطة علمه بما يعمل الخلق من الأعمال في الدنيا خيرها وشرها، وهو خبر ولكنه يفيد الوعد والوعيد.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾، **هذه الآية تُؤيد من قال** أن هذه السورة من آخر ما نزل في مكة، فإن الله هيّأ رسوله ﷺ والمؤمنين معه لما يستقبلهم في هجرتهم إلى المدينة من الاختلاط بقومٍ من أهل الكتاب، لأن مجادلة أهل الكتاب لم تُعرض للنبي ﷺ ولا للمؤمنين في مكة، وبيّن لهم أن أسلوب دعوتهم يختلف عن دعوة المشركين، لما عندهم من العلم من دينهم وكتابهم، فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ عليهم حتى لا ينفروا، وإنما يحاورون بالخِصلة الحسنة والأسلوب والطريقة الحسنة، واستثنى منهم الذين يتجاوزون الحدود، وهم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبي ﷺ وللمسلمين، فهؤلاء يجوز استخدام الأسلوب الخشن معهم من باب وضع الشيء في موضعه المناسب له، وأمر المؤمنين عند محاورتهم بالبدء بالمتفق عليه معهم، فيدعون إلى الإيمان بالمُشترك، وهذا من أهم أساليب الحوار الناجح، وأمرهم بالبدء بتحرير محل النزاع في المسألة؛ حتى لا يتشعب الجدال والحوار، فطلب من

أهل الكتاب أن يصدقوا ويقروا بما أُنزل على رسلهم من كتب وبما أنزل على رسولنا من كتاب، فمصدرها واحد، ونص على الإيمان بما أنزل عليهم؛ لأن ما بقي بأيدي اليهود والنصارى إلى وقت الخطاب لهم كان قد دخله التحريف والتبديل منهم، وأمرهم أن يقروا بأن الله هو إله الجميع، وأنه واحد لا شريك له، وهذا أيضًا من المُشتركات والمُتفق عليه، وأن الجميع مستسلمون وخاضعون له سبحانه.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾، **أي:** وكما أنزلنا الكتب السماوية على الرسل الذين من قبلك؛ أنزلنا عليك الكتاب، وهو القرآن الكريم، فلست بدعًا من الرسل، ولم تأتِ بشيءٍ لم يؤت به الرسل من قبلك، بل أنت تسير على طريقتهم وهديهم، والمقصود بالذين آتيناهم الكتاب، هم المؤمنون من أهل الكتاب السابقين، فقد ورد ذكره والبشارة به في كتبهم فهم يُؤمنون بالقرآن، **ومن هؤلاء أي:** من مشركي أهل مكة، عُقلاء يؤمنون بالقرآن، وما يمتنع عن الإيمان بآيات الله وحججه إلا الكافرون، وهذا وصفٌ مطلق يشمل اليهود والنصارى والمشركين الذين يجحدون الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به.

ثم قال الله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾، **الخطاب لمحمد** ﷺ، وفيه وصف لحاله قبل أن يُبعث

بالرسالة، فلم يكن يقرأ المكتوب، ولا يكتب الكتاب، وذكر اليمين من باب البيان والتوضيح، ولو حصل أنك كنت تقرأ أو تكتب؛ لارتاب المبطلون، **وهم صنفان**[1]: **الأول**: كفار قريش، الذين سيتهمونك بأنك أتيت بهذا الكتاب من عند نفسك ولم ينزل عليك، ولكن لما كنت أُمياً لا تقرأ ولا تكتب وجئت بهذا الكتاب المُعجز الذي لم يستطع أحد منهم أن يأتي بمثله، فهذا يقطع عنهم الشك فيه ويثبت أنه من الله.

والصنف الثاني: هم أهل الكتاب، فإن محمداً ﷺ موصوف في كتبهم بأنه أمّي لا يقرأ ولا يكتب، فلو كنت تقرأ وتكتب لوقع عندهم الشك بصدقك، لأن من علامات النبي الخاتم في كتبهم أنه لا يقرأ ولا يكتب، ثم أضرب عن ما سبق ذكرُه، وهو الريبة حول صحة القرآن، وأثبت خلافه، وهو أن القرآن الكريم آيات أنزلها على رسوله، وجعلها محفوظة في صدور العلماء، وأولهم محمد ﷺ، فقد حُفظ في صدره بعد سماعه من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قرأه للصحابة، فحفظه الحفاظ منهم، ثم حفّظه الصحابة لمن بعدهم، وهكذا سيبقى إلى يوم القيامة، وفي هذا إشادة بحفاظ القرآن الذين حفظوه في صدورهم، فهم أفضل من الذي يقرأه من المصحف، ووصفهم بأنهم من أهل العلم، وكفى بحفظ القرآن وفهمه علماً، فهم حجة على غيرهم، وإنكار الجاهل له لا يضر، وما يجحد ويكفر بالآيات إلا الكافر الظالم لنفسه؛ لأنه لم يستخدم عقله في التدبر والفهم لها، ولم يقتد بأهل العلم في قبولها والإيمان بها.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 540).

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾، **وقال المشركون:** هلّا أنزل الله على محمد ﷺ مُعجزة حسية كما حصل من الأنبياء قبله، مثل ناقة صالح أو عصا موسى ونحوها؛ لكي نصدقه، فأمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن إنزال المعجزات ليس إليه ولا خاضع لطلبهم وإنما ذلك إلى الله، ولو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، ولكنه يعلم أن قصدكم من ذلك التعنت، فلا يجيبكم إلى طلبكم، وأن مهمة الرسول هي الإنذار والتخويف لكم من عذاب الله إن كفرتم به، ويكون بيّناً واضحاً حتى لا يكون لكم حجة بعد ذلك عند الله.

ثم قال الله رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾، ألا يكفيهم إنزال معجزة القرآن الكريم عليك، وهي أعظم من الناقة، وأعظم من تحويل العصا إلى ثعبان؛ لأن معجزات الأنبياء كانت حسية مُرتبطة بهم، فإذا ذهبوا ذهبت معهم، أما القرآن فهو معجزة خالدة مستمرة، يقرأ عليهم وعلى غيرهم إلى آخر الزمان، وقد عجز الفصحاء والبلغاء عن معارضة سورة منه، وفي هذا القرآن رحمة للناس ببيان الحق لهم وهدايتهم إليه، وفيه تذكرة وموعظة يستفيد منها كل من آمن به وعمل به وصدّق بما فيه من الأخبار والوعد والوعيد، وفي ذلك إشارة إلى بيان منافع القرآن الأخرى غير الإعجاز، وأهمية قراءة واستماع القرآن بإيمان صادق ويقين تام وقناعة راسخة؛ لكي يستفيد القارئ والسامع له، فتحل به بركات القرآن الكريم والثمار الطيبة لتلاوته والاستماع إليه.

ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾، قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أنا أكتفي بالله شاهداً بيني وبينكم على تكذيبكم لي وإعراضكم عن اتباع ما جئت به، فهو العالم بحالي وحالكم، وعلمه سبحانه محيط بما في السموات وما في الأرض، وقد علم أني أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وعلم كفركم وتكذيبكم، وسيُعاقبكم على ذلك، ثم أخبر عن حال من يُؤمن بالباطل مع زيفه، والمقصود به إيمانهم بألوهية الأصنام والأوثان، ويكفر بالله سبحانه مع وضوح الحجج والبراهين الدالة عليه، فمن حصل منه ذلك، فهذا دليل على خفة عقله، وفساد فطرته، والألف واللام لاستغراقهم لجنس الخُسران، فلا أحد أكثر خسارة في الدنيا والآخرة منهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية ضرب الأمثال، وأنها وسيلة من وسائل الإيضاح والبيان في الدعوة والتعليم والتربية.

2- بيان أن عبادة غير الله من أوهى الحجج، كما أن بيت العنكبوت من أوهن البيوت.

3- بيان أهمية تلاوة القرآن والمحافظة على الصلاة وكثرة ذكر الله وأثرها في تربية وتزكية النفس.

4- مشروعية جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ويجوز مجادلتهم بخشونة

إن وقع منهم الظلم.

5 –من وسائل الجدال الناجح الاتفاق على المشتركات، وتحرير محل النزاع.

6- بيان عظمة القرآن، وأنه معجزة الرسول الخالدة التي لم تنتهِ بوفاته كما حصل للرسل السابقين.

7- بيان أثر بركة القرآن الكريم في كل من تدبره وقرأه بيقين.

تفسير المقطع الخامس من سورة العنكبوت

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ
ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ
رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا
بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا
هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ
﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ
﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا
وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾، **الخطاب موجّه** لكفار قريش الذين كانوا يستعجلون نزول العذاب الذي كان النبي ﷺ يخوفهم به إن استمروا على الكفر والشرك وعدم الإيمان بالله، فكان كفار قريش يطلبون من محمد ﷺ أن يُنزل بهم ذلك العذاب استهزاءً واستعجالاً، فرد الله عليهم أن استعجالهم بالعذاب لن يقدم أو يؤخر نزوله؛ لأن الله قد جعل لنزوله زمنًا وأجلاً محدداً، ولولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلاً، لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم، ولكن أراد الله تأخيره لحكم يعلمها، وسواءً كان المقصود به العذاب الدنيوي كغزوة بدر التي قُتل فيها صناديد كفار قريش، أو الجوع الذي أصابهم به ونحوها، أو كان المقصود به العذاب الأُخروي يوم القيامة، وهو الراجح، لتأكيده بذكر جهنم بعده[1]، وسينزل بهم العذاب بغتة بدون مُقدمات، وهو واقع بهم لا محالة، وهذه سنة الله في هلاك المكذبين، وأعاد لفظ يستعجلونك بالعذاب تهديداً وإنذاراً بأخذهم، وأخبر أن مصيرهم إلى جهنم، وأنها تحيط بهم جميعًا من كل جهة فلا يستطيعون الفرار منها، ولا يبقى منهم أحدٌ إلا دخلها وعذب فيها، وأتى بوصف الكافرين ليشمل كفار قريش وغيرهم، ثم بيّن ما يجري لهم في جهنم حيث يُغطيهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن كل الجهات، فالنار تغشاهم

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1426).

من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي، **ويقول الله لهم أو يقول لهم الموكل بعذابهم من الملائكة توبيخًا لهم**[1]: ذوقوا جزاء أعمالكم السيئة من الكفر والشرك ونحوها التي كنتم تعملونها في الدنيا.

ثم قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾، لما انتهى من الحديث عن أهل جهنم من الكافرين عاد الخطاب إلى المؤمنين المستضعفين في مكة، الذين كانت قريش تمنعهم من الإيمان وتُعذبهم عليه، فأذن لهم أن يُهاجروا إلى أرض الله الآمنة وهي واسعة ومتعددة ويستطيعون أن يعبدوا الله فيها آمنين مطمئنين لا يُؤذيهم أحد، وفي ذلك إشارة لهجرتهم إلى المدينة ودعوة لهم أن يستعدوا لذلك، وإن كنتم تخافون الموت بسبب الهجرة فكل النفوس ستذوق الموت، هاجرت أو لم تُهاجر، فلا تقيموا بدار الشرك خوفًا من الموت[2]، فأراد بذكر هذه الآية هنا أن يُعالج لديهم إشكالية ترك الهجرة خوفًا من الموت لأن طريقها غير آمن، فبيّن لهم أن الموت أمر مكتوب على كل نفس وسيأتي في موعده في أي مكان، ثم يرجع الجميع إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للحساب والجزاء.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾، **هذا بيانٌ** لما يعطيه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للمؤمن الذي آمن بالله وعمل الصالحات، ومن

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 20).

(2) التفسير البسيط: (17/ 548).

العمل الصالح الهجرة في سبيل الله من أجل الله ولإقامة دينه، فإنها تُقرب من الله وترفع الدرجات في الآخرة، **والتبوئة**: الإنزال والإسكان[1]، **أي**: نُنزّلهم ونسكنهم غرفاً في الجنة عالية وبجوارها بساتين وجنان، تجري من تحتها الأنهار يقيمون فيها خالدين، لا يموتون ولا يخرجون منها، ولا يهرمون، ولا يسقمون، ولا ينتهي نعيمها عنهم، ونِعم أجر العاملين الجنة، ثم وصف حالهم في الدنيا وكيف استحقوا هذا الأجر في الآخرة؛ بأنهم استفرغوا جهدهم في الصبر على كل ما واجههم في طريق الهجرة من الابتلاءات من فقر وجوع وخوف ونحوها، وفوّضوا أمرهم إلى الله واعتمدوا عليه دون غيره، وتركوا الأموال والأولاد والبيوت في مكة، فساعدهم ذلك على الثبات على دينه، فإن الصبر والتوكل على الله من أعظم أسباب الثبات على الحق.

وقولـــــه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾، "**كَأَيِّن**" **بمعنى**: كم الخبرية التي تُفيد التكثير، **أي**: وكم من دواب كثيرة العدد ضعيفة القوة قليلة الحيلة، لا تُدبر رزقها بنفسها، بل الله سبحانه هو الذي يدبره لها ويسوقه إليها، ويدبر لكم رزقكم ويسوقه إليكم، فالرزق بيد الله وهو الذي يمنحه للخلق، وعليهم فقط أن يأخذوا بالأسباب، وهو السميع والعليم، اسمان من أسماء الله الحسنى فيهما صيغة مبالغة، فهو سميع لأقوالهم، وعليم بنياتهم وأفعالهم، وعليم بما يصلحهم من غنى أو فقر، ولا يخفي عليه شيءٌ من أمرهم، والخطاب وإن كان بأسلوب الخبر، إلا أنه يُفهم منه التهديد

---

(1) التحرير والتنوير: (21/ 23).

والوعيد، **أي**: فيُجازي كل إنسان على قوله ونيته وفعله بما يستحقه، وفي الآية علاج لإشكالية ترك الهجرة بسبب الفقر، بل فيها إشارة إلى أن الهجرة سبب للرزق، فالحيوانات تُهاجر من مكان إلى مكان فيرزقها الله بذلك، فإذا كان الله يرزق الحيوانات غير المكلفة بعبادته، أيترك عبده المؤمن الذي هاجر من أجله؟!.

ثم انتقل إلى بيان استحقاقه للعبادة، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾، **ولو سألت يا محمد** هؤلاء المشركون من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر في خدمة الخلق؛ **لأجابوك** بأن الخالق المسخر هو الله وحده، وأن هذه الأصنام والأوثان لم تفعل شيئًا، فلماذا يُصرفون ويبتعدون عن الإيمان بالله وتوحيده، وقد أقروا بأنه الخالق المسخر دون سواه؟! **وهذا استدلال** بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فمن أقر أن الله الخالق المسخر وحده، فلا بد أن يُقر أنه المستحق للعبادة وحده دون سواه.!

وقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾، **وهذا دليل آخر على استحقاق الله للألوهية وحده** دون سواه، فهو الذي يُوسع الرزق على الخلق ويمنحهم إياه، فيجعل من يشاء غنيًا، وهو الذي يُضيق عليهم ويجعل من يشاء فقيراً، ولا يفعل ذلك أحد غيره سبحانه، وبسط الرزق أو تضييقه على العبد في الدنيا لا علاقة له بحب الله للعبد أو بغضه له، فإن الله يمنح الدنيا من يُحب ومن لا يُحب، وقد أحاط الله بكل شيءٍ علمًا، فما يحصل

في هذا الكـون مـن سعة رزق أو فقرٍ ونحوهـا، فهـو نـاتج عـن علـم الله وحكمته وتقديره جَلَّ وَعَلَا.

وقولـه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ولـو سـألت يـا محمـد هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من الـذي ينـزل المطـر ويُنبـت بـه الأشـجار ويُحيـي بـه الأرض التـي ييبـس وماتـت مـن القحـط، هـل هـو الله، أم الأصـنام والآلهة المزعومة؟! لأجابوك بأن الفاعـل لـذلك هـو الله دون سـواه، فاحمـد الله على أن جعل الحق معك، وأظهـر حجتـك عليـهم[1]، **وعقّـب علـى حـالهم** بـأن أكثـرهم لا يتـدبرون ولا يتـأملون الحجـج والبراهـين بعقـولهم، ولـو تأملوهـا وتدبروا فيها لقادهم ذلك إلى الإيمان بالله وحده، وعبَّر هنا بـ"أكثر"؛ لأن هنـاك قِلة من الكفار يُعمِلون عقولهم ويتفكرون بها فتوصلهم إلى الحق.

ثـم قـال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، **أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن حال الدنيا التي يتنافس عليها النـاس، وأتى باسـم الإشـارة تحقيـراً لهـا، وأنهـا لا دوام لهـا، وغايـة مـا فيهـا لهـو، وهـو: مـا تنـشغل بـه القلـوب والنفـوس، ولعـب، وهـو: مـا تنـشغل بـه الأبـدان والجوارح، وهذه طبيعـة الحيـاة الـدنيا، إذا قورنـت بحيـاة الآخـرة؛ لأنهـا خلقـت فانية منقطعة، وخلقت حياة الآخرة باقية دائمة، و"**الحيوان**" مصدر حي[2]، يدل

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 244).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 558).

على المبالغة، والمقصود حياة حقيقية لا موت فيها، ولا فناء لشيء منها، ولو كان الناس يعلمون قيمة الحياة الآخرة وحقيقتها؛ لاستعدوا لها بالأعمال الصالحة، ولم تشغلهم عنها الحياة الدنيا الفانية.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾، أخبر الله سبحانه عن حال الكفار أنهم إذا ركبوا في السفينة واضطربت بهم الأمواج في لجة البحار دعوا الله وأخلصوا الدعاء له دون غيره، فإذا لم يحصل لهم الضر فلا يفعلون ذلك، فهؤلاء القوم لا يعرفون الله إلا عند الشدة، وينسون جميع معبوداتهم من الأصنام والأوثان ويتعلقون بالله الواحد القهار، وذكر ضُرهم في البحر؛ لأنه لا تنفع معه العدة ولا العدد بل كلما كثُر العدد كلما ازداد اضطراب السفينة، فتكون شدة الهلع في البحر أشد منها في البر؛ لأنهم كانوا يسافرون في قوافل متعددة ومعهم أسلحتهم وفرسانهم، والدين هنا بمعنى المعاملة وهو التضرع والدعاء والإقبال على الله[1]، فلما تحصل لهم النجاة من ذلك ويرجعون إلى البر؛ يعودون لممارسة الشرك بالله مرة أخرى، واللام للتعليل الذي يفيد التهديد، أي: ليفعلوا ذلك كفراً بالله، فليتمتعوا بأرواحهم بعد أن نجاهم الله من الغرق، فسوف يعلمون عقوبة عملهم عند الله إذا رجعوا إليه.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع والخطاب لكفار

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 32).

قريش حيث أخبرهم عن نعمة خاصة بهم، وهي نعمة الأمن، فقد كان أهل مكة يعيشون في أمن فلا يتعرضون للسلب والنهب والغزو من غيرهم، بل كان أحدهم إذا خشي على نفسه يأخذ غصناً من أشجار الحرم ويضعه على رأسه ويسافر، فإذا رآه الناس قالوا: هذا من أهل الحرم، فلا يعتدون عليه؛ لأن الله عظّم مكة وأهلها في نفوس العرب، فعاش أهلها فيها آمنين مطمئنين، بينما القبائل التي كانت حولهم تعيش في خوف ويحصل لهم الاختطاف ويجري فيهم السلب والنهب والقتال، وكان الواجب على أهل مكة هو شكر هذه النعمة بالإيمان بالله وعدم الكفر بها، ولكن الواقع أنهم أشركوا بالله وجحدوا نعمه وصدقوا بالأصنام وعبدوها من دون الله، فعقّب عليهم بالسؤال لهم: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره؟![1]، وهو سؤال استنكار وتهديد لهم على ذلك.

ثم قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾، ولا أحد أشد ظلماً ممن اختلق كلاماً ونسبه إلى الله، وقد كان المشركون ينسبون إلى الله الشريك والولد كذباً وافتراءً على الله، ولا أحد أشد ظلماً أيضاً ممن كذّب بدين الله الحق الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب، **والمقصود به هنا محمدٌ** ﷺ والقرآن الذي نزل عليه، ثم عقّب على ذلك بسؤال تقريري يفيد التهديد والوعيد لهم، والمثوى هو المكان الذي تطول فيه الإقامة، وهي إشارة إلى أن من دخل جهنم من الكافرين

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 295).

طال مقامه فيها فلا يخرج منها فهي مقر إقامته الدائمة.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾، **والمقصود بالجهاد هنا لفظ عام يشمل: جهاد** النفس، **وجهاد** الشيطان، **وجهاد** الأعداء، فمطلوب من العبد أن يجاهد نفسه والشيطان وسائر الأعداء لكي يحصل له ثمرة هذا الجهاد وهو الحصول على الهداية من الله، وهذا يدل على أهمية بذل الأسباب للحصول على الهداية، كالمجاهدة للنفس والابتعاد عن المعاصي وجلساء السوء ونحوها، ثم يطلب من الله الهداية والتوفيق والتسديد، فمن فعل الأولى أعطاه الله الثانية.

والهداية هنا المقصود بها هداية التوفيق والتسديد والوصول إلى الطرق الموصلة إلى الجنة.

وجمع لفظ: "سُبُل" لبيان أنواع السبل والوسائل التي تُوصل إلى السبيل الأعظم وهو الصراط المستقيم والدين القويم، وذيّل ذلك بإثبات المعيّة الخاصة للمحسنين، وهي معيّة العون والنصر والتوفيق والتسديد، لأن الله مع الخلق كلهم بعلمه وإحاطته، ولكنه خص المحسنين بهذه المعيّة؛ لإتقانهم العمل وإخلاصهم لله فيه، **فإن معنى الإحسان يلزم منه وجود أمرين:** الجودة والإتقان للعمل، والإخلاص في النية لله وعدم الشرك أو الرياء فيه، فبعض الناس قد يفرط في هذا أو هذا، **فمثلاً:** قد يُصلي صلاةً مُتقَنة مكتملة الأركان ولكن كان في نيته رياء، أو يُصلي صلاة خالصة لكنها غير متقنة ولا مكتملة الأركان، فلم يكن في عمله هذا من المحسنين، وقلْ مثل ذلك في باقي العبادات والأعمال.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن استعجال العذاب دليل على حُمق الإنسان وغبائه.

2- أن استعجال العذاب لا يُقدم العذاب ولا يُؤخره، لأن الله جعل لكل شيءٍ أجلاً.

3- بيان فضل الهجرة من البلاد التي لا يستطيع الإنسان أن يُقيم فيها دينه إلى بلاد آمنة يستطيع أن يعبد الله فيها.

4- بيان أن إقامة الدين مُقدم على السكن في الوطن، وقد ترك النبي ﷺ مكة لأن قومه أخرجوه منها، وهي أحب البقاع إلى الله وإليه.

5- بيان فضل الصبر والتوكل على الله وأنهما قرينان، وبهما ينال العبد حاجته.

6- بيان أن الإله الحق هو الله، وهو الذي تلجأ إليه النفوس عند الشدة.

7- بيان أهمية مجاهدة النفس والأخذ بأسباب هدايتها.

8- بيان أهمية إتقان العمل وإخلاصه لله، وأن ذلك هو مقتضى الإحسان.

9- بيان فضل المحسنين، وأن لهم معية خاصة من الله، هي معية العون والنصر والتوفيق.

تفسير سورة الروم

تفسير المقطع الأول من سورة الروم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣
فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ
ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ
فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ
شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

شخصية السورة:

سورة الروم؛ سورة مكية بإجماع المفسرين[1]، **والمقصد العام لهذه السورة هو** بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المتفرد بتصريف الأمور في الكون كله.

ابتدأت السورة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، وقد سبق معنا بيان أن الراجح في معناها أنها من الأحرف التي يتكوّن منها الكلام في لغة العرب، وأنها ذُكرت كدليلٍ على إعجاز القرآن الكريم.

وقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾، هذا إخبار بما حصل للروم من هزيمة من قِبل الفرس، فقد اقتتلت فارس والروم قتالاً شديداً في بلاد الشام، وكانت هذه المنطقة أقرب الأرض إلى أهل مكة، وكان هذا الحدث والنبي ﷺ مع أصحابه في مكة في فترة الاستضعاف، فانتصرت فارس على الروم وهزمتهم شر هزيمة، فبلغ ذلك قريشًا ففرحت بهزيمة أهل الكتاب، لأن فارس كانوا مشركين عبدة النار، وحزن المسلمون لهزيمة الروم، لأن الروم كانوا نصارى على الديانة النصرانية المحرفة، وكلما كان الإنسان أقرب عقيدة إلى صاحبه كلما فرح له أو حزن عليه، فذكر أبو بكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: **"أما إنهم سيغلبون"** فذكر ذلك أبو بكر للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 415).

وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل لهم أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: **"ألا جعلتها إلى دون العشر"**، ثم ظهرت الروم بعد ذلك[1]، **والبِضع** ما بين الثلاث إلى العشر[2].

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، هذه القاعدة التي دارت حولها مقاصد السورة، فإن الأمر والتدبير للكون بيد الله وحده قبل أن يُهزموا وبعد أن انتصروا، وهو المنفرد بالقدرة، وإنفاذ الأحكام، فالنصر لهؤلاء أو الهزيمة لأولئك كله كان بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي بيده النصر والهزيمة، وعندما يأتي موعد نصر الروم على الفرس سيفرح المؤمنون من أمة محمد ﷺ، كما فرح المشركون بالهزيمة الأولى للروم، وقد وقعت هزيمة الروم للفرس يوم بدر[3].

وذيّل الآية بالعزيز الغالب القاهر بالهزيمة للعدو، والرحيم الكثير الرحمة لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين، وجعل النصر للروم على الفرس وعداً؛ لأن النبي ﷺ أخبر به أبا بكر، وأبو بكر أخبر به المشركين، فصار وعداً لا بُدّ أن يتحقق؛ لأن الله لا يُخلف وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والمقصود بهم هنا كفار قريش؛ لأنهم لا يُقدرون عظمة الله وقدرته ولا يُصدقون أخباره؛ بسبب جهلهم بالله.

---

(1) مسند أحمد: (4/ 296)، برقم: (2495)، وسنن الترمذي: (5/ 196)، برقم: (3193)، وإسناده صحيح.

(2) فتح القدير للشوكاني: (4/ 247).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 68).

ثم قال: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾، فنفى عنهم العلم بالله وشرعه، وقصر علمهم على معرفة ظاهر الحياة الدنيا، فجمع لهم بين النفي والإثبات، فهم لا يعلمون علمًا ينفعهم في دينهم ولا آخرتهم، وإنما يعلمون علومًا تنفعهم في دنياهم، وهذه العلوم التي تنفعهم في دنياهم قاصرة على ظاهر الحياة، فلو تعمقوا في معرفة بواطن أمور الحياة؛ لدلتهم على الله والإيمان به؛ لأن هذا الكون فيه آيات بيّنات تدل على كمال ألوهية الله وربوبيته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **وفي هذا إشارة** إلى أن العلم الذي لا يُوصل صاحبه إلى الإيمان بالله في الدنيا، فهو علم وبال عليه، فالعلم بالله طريق موصل إلى الجنة، **وفي الحديث**: **"ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة"**[1]، ولكن الكفار مشغولون بمعاشهم ومأكلهم ومشربهم ودنياهم، ولا يُفكرون في معادهم والوقوف بين يدي الله، وما الذي يُنجيهم من النار، وما الذي يُدخلهم الجنة، وما نشاهده اليوم من تقدّم مادي للكفار كله يدور حول الحياة الدنيا وكيف يتنعمون ويتلذذون بها!!، **أما الآخرة** فهم بعيدون عن التفكر فيها، ولذلك تستغرب حين تجد هنديًا مخترعًا للذرة أو مُتقنًا لعلم التقنية، ولكنه جاهل بالله، يخرج من معمله فيسجد لبقرة ويتبرك ببولها وغائطها، فأين عقلك الذي اكتشفت به هذه الأشياء العظيمة من علوم الدنيا؟! ومثله ذلك العالم النصراني المتخصص في عالم الطب أو الهندسة والتقنية وغيرها، تجده جاهلاً

(1) مسند أحمد: (14/ 66)، برقم: (8316)، ومسند الدارمي: (1/ 160)، برقم: (348)، وإسناده صحيح.

بالله يسجد لثلاثة آلهة ويعتقد أنهم إله واحد، وقل مثل ذلك في باقي الكفار الذين يعبدون غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا الصنف مبغوض عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لجهله بالله وبالدار الآخرة، **كما في الحديث**: **"إن الله يبغض كل جعظري جواظ صخاب بالأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة"**[1]، **والْجَعْظَرِيُّ هو**: الْعَظِيمُ فِي نَفْسِهِ، **والْجَوَّاظُ هو**: الضَّخْمُ[2].

ثم قال: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾، **سؤال استنكاري تعجبي** من حالهم، فلو تأملوا وتفكروا في أنفسهم لوجدوا فيها آيات وبراهين وحججًا توصلهم إلى الإيمان بالله، وأنه المستحق وحده للعبادة، وأنه ما خلق السموات والأرض وما فيهما من عوالم إلا لإقامة الحق، فلم يخلقها عبثًا وإنما خلقها بالعدل، وخلقها ملابسة ومصاحبة للحق لا باطل فيها، وجعل لها موعداً محدداً تنتهي فيه، فالخلق كله له نهاية معلوم وقتها عند الله حين خلق الخلق، وهو يوم القيامة، والغالب على الناس هو الجحود للبعث والنشور والوقوف بين يدي الله للحساب، وهذه قاعدة مطردة في الخلق حتى اليوم، فالكثرة الكاثرة من الخلق كفار لا يُؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثم قال: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ

---

(1) صحيح ابن حبان: (1/ 274)، برقم: (72)، والسنن الكبرى للبيهقي: (10/ 327)، برقم: (20804)، وإسناده صحيح.

(2) مساوئ الأخلاق للخرائطي: (ص: 258).

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾، **ثم سألهم سؤال تعجب وتوبيخ واستنكار آخر**، لعدم استفادتهم من السير في الأرض، وهو السفر والانتقال من بلد إلى آخر، والتفكر والتأمل فيما يمرون عليه من آيات وآثار الأمم السابقة التي دمرها الله بسبب كفرها وإعراضها عن اتباع رسله، والاعتبار بمصيرهم، وقد كانت تلك الأمم أشد قوة في الأبدان والإمكانيات من كفار قريش، فقد كانت لهم آثار عظيمة في الأرض، حيث أثاروا الأرض وزرعوها واستخرجوا ما فيها، وأقاموا فيها القصور والحصون والتُرع والطرق وغيرها؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش(1)، فعمارة تلك الأمم للأرض أكثر من عمران كفار قريش لها، ولكنهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج والبراهين كفروا بها؛ فأهلكهم الله بسبب كفرهم، فهم من ظلموا أنفسهم بالكفر واستحقاق الهلاك!.

ثم قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾، ثم كان مصير ونهاية من عمل السوء من الأعمال، هو العذاب الأقبح، **فالسواء هي** فعلى من السوء تأنيث الأسوأ، **وقيل**: هي اسم لجهنم، كما أن الحسنى اسم للجنة(2)، **كما في قوله**: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:26]، ولا مانع من اجتماع المعنيين، فهم قد فعلوا أقبح الأعمال، وكان عاقبتهم في أقبح وأشد

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 248).

(2) ينظر: المصدر السابق: (4/ 248).

أنواع العذاب في النار، وكان نتيجة عملهم السيئ هو التكذيب والاستهزاء بآيات الله، **فجمعوا بين سَوْأتين: سوءة** التكذيب **وسوءة** الاستهزاء، والاستهزاء مرحلة متقدمة من التكذيب، وقد أشرنا في درس سابق إلى ما سميناه بالكافر قليل الأدب والكافر المؤدب، فالكافر المؤدب لا يُؤمن ولكنه لا يستهزئ بالمؤمنين، والكافر غير المؤدب لا يؤمن ويستهزئ بالمؤمنين، ومثله عاصٍ مؤدب، وعاصٍ قليل أدب، فقد تجد شخصاً يترك الصلاة، فتنصحه بإقامة الصلاة فيستحي ويسكت، وشخصاً آخر يفعل معصية فتنصحه فلا يقبل النصيحة، ويستهزئ بالمتدينين والمصلين، فجمع بين سوءتين: سوءة المعصية وسوءة قلة الأدب مع من ينصحه.!

ثم قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾، فالله هو الذي أوجد الخلق من العدم ثم يعيدهم بعد الموت أحياء، والخلق المكلفون راجعون إلى الله يوم القيامة ليُحاسبهم ويُجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢﴾، وحين تقوم الساعة ويُبعث الكفار الذين فعلوا الجرائم وأعظمها الكفر والشرك بالله، ينقطع كلامهم وحجتهم، فييأسون من كل خير، **والإبلاس في اللغة:** السكوت مع الحيرة[1]، فهؤلاء المجرمون ييأسون من رحمة الله وتنقطع آمالهم في عفو الله بسبب انقطاع حجتهم وأنه لا عذر لهم في هذا الكفر الذي وقعوا فيه.

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 470).

ثم قال: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾، ولم يوجد لهم من الأوثان والأصنام وغيرها من أنواع الآلهة التي عبدوها في الدنيا من يشفع لهم يوم القيامة، وتبرؤوا منها وتبرأت منهم، وكل منهم جاحد الآخر؛ لأنهم لم يفعلوا لهم شيئًا وقد اجتمعوا جميعًا في الهلاك.

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وحين تقوم الساعة وتنشر الصحف وينصب الميزان؛ **يتفرق الناس إلى فريقين: فريق** في الجنة، **وفريق** في السعير، وهذه الفُرقة لا اجتماع بعدها، **فالفريق الأول** هو الفريق الذي آمن بالله وعمل صالحًا في الدنيا فهذا يذهب إلى الجنة، وفيها روضة عظيمة خاصة بهم، فيها قصورهم وأماكن نعيمهم، وهذا يدل على أن هناك تنوعًا لنعيم أهل الجنان على قدر درجاتهم وأعمالهم الصالحة، وهم فيها يُسرُّون ويُنعّمون ويكرمون، **والحبور** هو السرور(1) الشديد بما يرون أو يسمعون مما أنعم الله به عليهم من النعم المتنوعة في الجنة، وبما حل بهم فيها من رضوان الله سبحانه، فهم في نعيم وفرح وسرور لا ينتهي، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم، **والفريق الثاني:** وهم أصحاب الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله القرآنية، والتكذيب بآيات الله من المعجزات الدالة على صدق الأنبياء والرسل، وكذبوا كذلك بالبعث والنشور ولقاء الخلق بين يدي الله في الآخرة، فهم بسبب ذلك في العذاب مُحضَرون، **أي:**

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 12).

حاضرون في العذاب فلا يغيب عنهم، بل مستمرون فيه، أو تُحضرهم الملائكة إلى العذاب[1]، ولا تعارض بين المعنيين، فإن الملائكة تُحضرهم وتُلقيهم في النار، ثم لا تغيب النار عنهم، فهم ملازمون للعذاب فيها لا يخرجون منها، والعياذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن القرآن من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه أخبر عن مغيبات لا يعلم بها البشر وحصلت كما أخبر في قصة هزيمة الروم للفرس.

2- بيان أن العلم الذي ينفع صاحبه هو العلم الذي يدله على الآخرة ويُقربه من الله، وأن أي علم يُبعد عن الله فهو علم غير نافع.

3- اهتمام الكفار بعلم الدنيا فهم يُبدعون ويتقدمون فيها، وهم من أجهل الناس بعلوم الآخرة.

4- بيان ما في الأنفس والكون من آيات تدل على الإيمان بالله، لو تفكر الإنسان وتأمل فيها.

5- أن الظلم سبب لهلاك الأمم، وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

6- هناك فرق عظيم وبون شاسع بين حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 64).

تفسير المقطع الثاني من سورة الروم

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم
بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ٢٢
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ٢٣ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٢٤ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥ وَلَهُۥ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٧﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨﴾، **هذا خبرٌ** والمقصود منه الأمر،

وهذا يقتضي أن يكون الخطاب موجهًا إلى المؤمنين، **أي**: سبحوا الله[1] حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح، **وقد سئل** ابن عباس عن الصلوات الخمس، هل مذكورة في القرآن؟ فقال: نعم، وذكر هذه الآية والتي تليها[2]، **ففي الصباح** صلاة الفجر، **وفي المساء أي**: وقتي صلاة المغرب والعشاء، **وعشيًا**: أي وقت صلاة العصر، **وحين تظهرون**: أي حين تدخلون في وقت الظهيرة وفيها وقت صلاة الظهر، **والتسبيح هو** التنزيه المطلق لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن النقائص، **ويأتي بمعنى** ذكر الله وقول سبحان الله، **ويأتي بمعنى** فعل الصلاة الفريضة والنافلة؛ لأنها تحتوي على التسبيح لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فيشمل هذا الأمر كل هذه المعاني، وله الحمد في السموات والأرض، هذه جملة معترضة، تفيد أن تسبيح المؤمنين لله ليس لمنفعة الله تعالى، بل لمنفعة المسبحين أنفسهم؛ لأن الله محمود في السموات والأرض فهو غني عنهم[3].

وقوله: ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩ ﴾، هذا بيان لعظيم قدرة الله في الخلق والإيجاد، فيخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، **والسنبلة** من الحبة الميتة، **والفرخ** من البيضة الميتة، **والابن المؤمن** من الأب الكافر، ونحو ذلك، ويخرج الميت من الحي بعكس ما سبق من الأمثلة، **والآية تشمل الحياة المعنوية والحياة الحسية**،

---

(1) التفسير البسيط: (18/ 29).

(2) ينظر: مصنف عبد الرزاق الصنعاني: (1/ 454)، برقم: (1772).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 66).

فالحياة المعنوية كالإيمان والطاعة والاستقامة، فيُخرج إنسانًا صالحًا مستقيمًا من أب كافر، كمثل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أبيه، ويخرج إنسانًا كافراً من شخص مؤمن، كمثل ولد نوح من أبيه ونحوها، ويحيي الأرض التي أجدبت ويبست بإنزال الماء عليها، فتصبح حية، فتنبت وتخرج ثمارها وزروعها، والكاف للتشبيه، **أي:** وكما أخرج الأحياء من الأموات، وأحيا الأرض بعد موتها، كذلك تخرجون أنتم أيها الخلق من قبوركم أحياءً، فيحاسبكم على أعمالكم في الدنيا، وفي هذا استدلال على البعث والنشور ببعض صور الإحياء الدنيوي التي يراها الخلق.

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، ثم بدأ يُعدّد مجموعة من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرته، والآية هنا العلامة التي تكون حجةً وبرهانًا لمن يتفكر فيها فيتضح له قدرة الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ واستحقاقه للألوهية، و"**مِن**" هنا للتبعيض، فآياته كثيرة، وسيذكر منها بعض الأمثلة، ومنها: أنه خلق آدم ' من التراب، وهي مادة ميتة لا حياة فيها، ونفخ الروح فيه فصار إنسانًا حيًا مكتمل الحياة، ثم خلق زوجه منه، ثم تناسل الخلق منهما وتكاثروا وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، فهذه آية من آيات الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، **ومن آيات الله** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وهي أن خلق لنا من جنسنا أزواجًا، جمع زوجة، وهي المرأة التي يتزوج بها الرجل، واللام للتعليل **أي:**

ليحصل لكم بالزواج والعلاقة الحسنة بينكما السكن والاطمئنان والهدوء والراحة، وخلق المودة والرحمة بين الزوجين، فالمودة خالص الحب، والرحمة هي التعاطف والتراحم، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، واسم الإشارة يعود إلى الأمرين معًا، ففي ذلك علامات وبراهين وحجج لمن تأمل وتدبر في هذه النعم وطريقة وجودها وما تدل عليه من عظمة الله وقدرته، وفي هذا إرشاد لإعمال العقول بالتفكر وعدم إهمالها.

ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾، ومن آياته الدالة على قدرته خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات الكثيرة، من مجرات وجبال وبحار ونباتات وهواء ونحوها، ومن آياته اختلاف ألسنة الخلق، والاختلاف له معنيان، الأول: اختلاف اللغة التي يتكلمون بها، وهي كثيرة وتحت اللغة الواحدة عشرات اللهجات، في العربية عشرات اللهجات وغيرها، ويدخل في ذلك الشخص الذي يتكلم عدة لغات، فسبحان الذي خلق هذا اللسان بهذه القدرة، والثاني: اختلاف الصوت من شخص لآخر، رغم اتحاد اللغة.

واكتشف العلم الحديث ما يُسمى (بصمة الصوت)، وفي ذلك دليل على عظمة الله وكمال قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن آياته اختلاف ألوان البشر، وهذا الاختلاف له أسبابه: إما لاختلاف الماء الذي يشربون، أو اختلاف المناخ الذي يعيشون فيه، أو اختلاف الجينات بين الزوج والزوجة أو بين الأجداد، وليس بيد الشخص أن يختار لونه، والاختلاف آية من آيات الله في الخلق، وكلما ازداد الإنسان علمًا كلما

ازداد اعتباراً بهذه الحجج والبراهين، وفي ذلك إشارة إلى أهمية العلم، وخطورة الجهل الذي يجعل الإنسان يُعيّر أخاه بسبب اللون أو اللسان، ولو كان عنده علم صحيح لاعتبر هذا من آيات الله الدالة على كمال قدرته سبحانه.

ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، **ومن آيات الله منام البشر**، لأن الخطاب للمكلفين الذين يعقلون ومطلوب منهم أن يتفكروا في ذلك ليُؤمنوا ويُطيعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويعبدونه، مع أن النوم آية في كل الحيوانات، ومثله اختلاف الألوان والألسن آية في كل الحيوانات، وبدأ بذكر الليل لأنه الأصل في وقت النوم، **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[النبأ:10-11]، ثم ذكر النهار تبعاً له والباء ظرفية تشمل الليل والنهار، فيمكن أن ينام الشخص ليلاً ويمكن أن ينام في النهار، ولكن نوم الليل هو الأصل وهو الأفضل، ونوم ساعة في الليل تُغني عن ساعات منه في النهار، كما يقول الأطباء، فقدّم لفظ الليل وجعله ملتصقاً بالنهار، وأخّر لفظ النهار وجعله ملتصقاً بابتغاء المعاش والفضل الذي هو طلب الرزق، لأن أغلب أوقات طلب المعاش والرزق يكون في النهار، ولا مانع أن يعمل الإنسان ويطلب الرزق في الليل، وخاصة بعد تقدم الحياة وظهور الكهرباء ونحوها، وعقّب بذكر السمع هنا؛ لأن الإنسان حين ينام تُسحب جميع أجهزته، التي يحصل بها على المعلومات فإذا استيقظ سأل عنها، فيخبر بها فيستمع إليها، والمقصود بالسماع هنا سماع التأمل والتفكر والتدبر، لا مجرد سماع الأصوات فقط.

ثـــم قـــال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، **ومــــن آياته** أن يريكم مقدمات وعلامات نزول المطر، **ومنها** رؤية البرق الذي يخاف من رؤيته أحيانـًا خشية الصواعق، ويفرح به أحيانـًا أخرى طمعـًا في نزول الغيث[1]، وهذه طبيعة الناس مع سماعهم للبرق يشعرون بالخوف من آثاره التي يمكن أن تضرهم، ويطمعون أن يكون وراءه غيث ومطر ينفعهم، **والبرق** هو عبارة عن تصادم السحب بعضها ببعض حين يسوقها الملك وبها شحنات كهربائية موجبة وسالبة فينتج عنها تلك الشرارة التي تسمى البرق، وذلك الصوت الذي يسمى الرعد[2]، وينزل الله من تلك السحب ماء المطر، فإذا نزل على الأرض الميتة أحياها بعد جفافها بإنبات الأشجار فيها، إن في هذا الفعل دلالات وهدايات لمن يستخدمون عقولهم ويتدبرون هذه الآيات، فتدلهم على كمال قدرة الله وعظيم حكمته وإحسانه بهم.

ثـــم قـــال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾، **ومن آيات الله** الدالة على قدرته بقاء وثبوت السماء والأرض على ما خلقت عليه من الصناعة الحكيمة المُتقَنة دون خلل فيها، فهي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، والمقصود بأمره الأمر الكوني القدري الذي لا يتخلف وتخضع له كل المخلوقات، ثم إذا دعا الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الخلق يوم

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 254).

(2) ينظر: الحديث في سنن الترمذي: (5/ 145)، برقم: (3117)، وإسناده صحيح.

القيامة، والمقصود بالدعوة هنا النفخة الثانية في الصور، وهي نفخة البعث، فإذا سمعتها الأرواح طارت إلى ما تبقى من أجسادها، وهو عجب الذنب، فتحيا الأجساد وتخرج من الأرض المدفونة فيها، فـ "مِن" تدل على الظرفية، و"إذا" الثانية فُجائية، وهي جواب "إذا" الأولى الشرطية، **أي**: يحصل منكم الخروج من قبوركم أحياءً للجزاء والحساب بين يدي الله جَلَّوَعَلَا.

ثم قال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾، لما ذكر خضوع وقيام الكون وانتظام المجرات الكونية لأمره، ذكر طاعة وخضوع واستسلام من في السماء ومن في الأرض من الخلق المكلفين بالعبادة وانقيادهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمنهم من ينقاد له طوعًا، وهم المؤمنون من الجن والإنس، ومنهم من ينقاد له كرهًا، وهم الكافرون به، فهم مطيعون له في الحياة والبقاء والموت والبعث، وإن عصوه في العبادة[1]، فالجميع ملكه وعبيده سبحانه.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾، ثم أخبر عن قدرته في الخلق والإيجاد، فهو سبحانه الذي أنشأ الخلق من العدم وابتدأهم منه، ثم يفنيهم بالموت، ثم يعيد الخلق بعد الموت أحياء يوم القيامة، والإعادة أهون عليه من الخلق الأول، وهو أسلوب متعارف عليه لتقريب الفهم للسامع، فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثاني مرة، أما الله سبحانه فالأمور كلها متساوية

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (6/ 267).

عنده، وكل شيء على الله يسير[1]، ولا يوجد شيءٌ عسير على الله، والمقصد من ذلك إفحام من يُنكر قدرة الله على الإعادة وقد أقر بقدرته على النشأة، والمثل الأعلى هو الوصف الكامل الذي يصفه به أهل السموات والأرض، ولا يشاركه ولا يشابهه فيه أحد من الخلق، وهو العزيز الذي لا يُغالَب، والحكيم في أمره وخلقه وشرعه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان فضل التسبيح المطلق وعاقبته الحسنة عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

2- بيان كثرة الأدلة العقلية التي بثّها الله في الكون الدالة على قدرة الله واستحقاقه للألوهية.

3- بيان خضوع جميع الخلق لقهره خضوعًا اختياريًا يؤجرون عليها، وإما خضوعًا اضطراريًا.

4- بيان انفراد الله بالوصف الكامل الذي لا يشاركه ولا يشابهه فيه أحد من الخلق.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1454).

تفسير المقطع الثالث من سورة الروم

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ
وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞
مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ
فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا
رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا
آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ
يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ
يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
(٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا
آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، الخطاب موجه إلى كفار مكة الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ويجعلونها شريكة لله في الألوهية، فضرب الله لهم مثلاً مأخوذاً من حالهم وتعاملهم في الواقع، وخلاصته: هل يوجد من عبيدكم من يشارككم المال الذي تملكونه، فأنتم وهم شركاء تتساوون في التصرف فيه، وتخافون أن يرثكم العبيد هذا المال كما يرث بعضكم بعضًا، وهو سؤال تقريري لواقعهم، فيه نفى للشركة بينهم وبين المملوكين، والاستواء معهم في المكانة، وخوفهم إياهم كما يخافون أنفسهم أو الأحرار الذين مثلهم[1]، فإن السادة لا يشركون عبيدهم في شيء من أموالهم ولا يستشيرونهم في التصرف فيها، ولا يرث العبيد من أموال سيدهم شيئًا، فضلاً عن أن يتساوى العبد مع سيده فيها، بل هم ملك له يتصرف فيهم كما يشاء، **والمعنى** إذا كنتم أيها المشركون لا تقبلون أن يُشارككم عبيدُكم في أموالكم، فكيف تثبتون لله شركاء في ملكه سبحانه؟! وعبّر عن ممتلكاتهم بأنها رزق من الله، إشارة إلى أنهم لا يملكونها حقيقة، بل هي منحة من الله لهم، ومع ذلك منعوا عبيدهم من التصرف فيها، وذيَّل الآية بأن بيان تفصيل الحجج والبراهين يستفيد منها العقلاء الذين يعقلون الخطاب ويتفكرون ويتأملون في الأمثلة المضروبة لهم دون غيرهم، وفي ذلك تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا من أهل العقول، ولا ممن ينتفعون بها.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 257).

ثم قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ثم أضرب عن مخاطبة المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، ومحاورتهم لقلة انتفاعهم بعقولهم في تدبر الآيات، بل طغى عليهم اتباع الأهواء، والهوى: هو كل ما تشتهيه النفس بلا حجة وبرهان، بل يعتمد على الرغبة والشهوة، فالعلم مفقود في الهوى، ومن يُجاري أهواء النفس ويسير ورائها فهو شخص جاهل، ومن هذا حاله فإنه يحرم الهداية ويقع في الضلال، فلا تعجبوا من عدم هدايتهم!!، ونسب الضلال إلى فعل الله به؛ لأنه خذله ولم يمنحه التوفيق، رغم أنه منحه هداية الإرشاد ووسائلها وأسبابها، فلم يستفد منها، بل استمر في الكفر والضلال ومات على ذلك، فلم يجد له من يمنعه من عذاب الله، ولا من ينجيه منه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ومن معه، والمقصود بالقيام هنا صدق التوجه إلى التوحيد والعبادة الخالصة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والاستمرار عليها، وقد كان النبي ﷺ متوجهاً إليها صادقاً فيها، فطلب منه أن يستمر على ذلك، والحنيف هو المائل عن الباطل إلى الحق، ونُصبت فطرة الله على الإغراء، **أي:** الزموا فطرة الله[1]، فقد خلق الناس وأوجدهم على الفطرة السليمة، المقرة بالتوحيد ونبذ الشرك، **وفي الحديث:** "**خلقت عبادي حُنفاء كلهم**"[2]، **أي:** مائلين عن الشرك

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 259).

(2) صحيح مسلم: (4/ 2197)، برقم: (2865).

إلى التوحيد، فلا تُبدلوا خلق الله الذي خلقكم عليه وهو الفطرة السليمة إلى الشرك والكفر، بل التزموها وابقوا عليها، فالفطرة التي خلقتم عليها هي الدين القيم، وهو الإسلام الحق الذي ارتضاه الله للخلق، وإنما وقع أكثر الناس في الكفر بالله بسبب جهلهم به، ولو علموا قيمة التوحيد والإيمان بالله؛ لبقوا على فطرهم السليمة ولم ينحرفوا عنها أو يُغيروها، ولو علموا كذلك بخطورة تغيير الفطرة؛ لما استجابوا للشيطان في ذلك، وأكثر هنا على بابها في العموم، فأكثر الناس على الكفر، والقلة هم المؤمنون في كل الأزمنة إلى أن تقوم الساعة.

ثم قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾، **أي:** وكونوا راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له في أوامره ونواهيه، وعبّر بالجمع هنا مما يدل على أن الأمر لمحمد ﷺ ولأمته، وأمرهم بالتقوى، وهي اتقاء غضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفعل الطاعات وترك المحرمات، وأمرهم بإقامة الصلاة وهو أداؤها في أوقاتها بشروطها وواجباتها، ونهاهم أن يكونوا من المشركين الذين وقعوا في الشرك بالله وتفرقوا في دينهم، فكل طائفة منهم ابتدعت لها طريقة خاصة بها، حتى صاروا على أديان وملل ومذاهب شتى، أو ابتعدوا عن أصول دينهم الذي أمروا أن يلزموه ويتبعوه، وكلا المعنيين لازم للآخر، فمن ابتعد عن أصول الدين وقواعده واتبع الهوى فإن ثمرة ذلك تعدد الأديان وتفرقها، وتمزق أتباعها إلى فرق وأحزاب وجماعات، وكل فئة منهم ترى أنها على الحق وحدها وغيرها على الباطل، فكل حزب بما لديه مسرور ومقتنع به، ولا يلتفت إلى غيره، وهذا مشاهد اليوم في أحوال البشرية البعيدة عن

دين الله الحق، تعددت مذاهبها وكثرة النِحل والطوائف والفِرق فيها، وكلٌّ يدّعي أنه على الحق، وأن الجنة له دون سواه، **كما قال الله عن أهل الكتاب:** ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾[البقرة:111]، وقل مثل ذلك في باقي المِلل والنحل المنحرفة، فهذا الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم هو نتيجة لاتباع الأهواء والبعد عن أصول الدين الحق، ولا مخرج منه إلا بالبقاء على الفطرة المستقيمة والدين الحق الذي ارتضاه الله للخلق.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾، **المقصود بالناس هنا هم** المشركون؛ وأن من صفاتهم أنهم يتضرعون إلى الله مقبلين عليه بكل قلوبهم ولا يشركون به شيئًا حين ينزل بهم بلاء أو مرض أو قحط ونحوها، لعلمهم بأنه لا فرج إلا منه سبحانه، **والتعبير بـ"مسَّ"** يدل على جزعهم بحصول أدنى إصابة لهم بالضر، فيُسارعون إلى التضرع ليرفع ما نزل بهم، فإذا رحمهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ورفع الضُّر عنهم وجاءهم الخير، عاد فريق منهم إلى الشرك بالله وعبادة ودعاء الأصنام مرة أخرى، و"ثم" للتراخي الرتبي؛ لأن إشراكهم بالله كان بعد الدعاء والإنابة وحصول رحمته، وفيه معنى التعجيب من تجدد إشراكهم(1)، وفي ذلك إشارة إلى سفه عقولهم؛ حيث أنابوا إليه وأخلصوا له الدِّين في حال الشدة والبلاء، وأعرضوا عنه وأشركوا به في حال الرخاء.

وقوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾، **السلام** لام

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 98).

التعليل، وهي مستعارة لمعنى التسبب؛ لأنهم لما أشركوا بالله كان الشرك مفضياً إلى كفرهم بنعم الله[1] التي منحهم إياها، من كشف الضر، وزوال الشدة عنهم، فتمتعوا بهذه النعم في الدنيا مع كفركم بها، فسوف تجدون عقوبة ذلك الكفر في الآخرة، وهو خطاب تهديد ووعيد لهم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾، يخبر الله منكراً على المشركين ما اختلقوه من عبادة الأوثان والأصنام بلا دليل ولا حجة ولا برهان، فخاطب المسلمين وسألهم: هل أنزل الله على الكفار كتاباً أو حجة تنطق بأن ما يفعلونه من شرك عمل صحيح ومقبول؟ وهو سؤال استنكاري للتوبيخ والتقريع لهم، فليس عند المشركين كتاب ولا حجة بذلك، ولا يُمكن أن يُوجد كتاب أو حجة تأذن بالشرك بالله وتدعو إليه وتُقرر صحته، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين تعجيباً من حال أهل الشرك[2].

ثم قال الله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾، وهذه من طبيعة الناس، أنهم مجبولون على الفرح فرح أشر وبطر بالرحمة، وهي اسم يشمل كل خير من صحة ومطر ومال وسائر أنواع الخير، ومجبولون على القنوط واليأس وعدم الصبر على المصائب والابتلاءات، وإن كانت هذه الطبيعة متمكنة في الكفار أكثر؛ لأن المؤمن قد

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 98).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 99).

يهذّب نفسه من هذه الطبائع السيئة بالإيمان والعمل الصالح، وعبّر في الفرح بـ "إذا" وعبَّر في القنوط بـ "إنْ"؛ لأن جواب إذا مشكوك فيه، بينما جوابُ إن واقعٌ لا محالة، فقنوطُهم مقطوعٌ به، وفرحُهم مشكوك به؛ لأن النفس البشرية أقرب إلى القنوط منها إلى الفرح، لكثرة الخوف والهلع المجبولة عليه، وبيّن أن الابتلاءات والعقوبات غالبًا ما تكون بسبب ما يعمله العبد من أعمال سيئة، ولذلك يُفرق العلماء بين البلاء والابتلاء، فالبلاء عقوبة للعبد على ذنب ارتكبه، والابتلاء اختبار وتمحيص للعبد الصالح لرفع درجاته.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾، **سؤال استنكاري تعجبي** من تقلّب أحوالهم بين الفرح والقنوط، والرؤية هنا بمعنى العلم، فمن تأمل وتدبر؛ علم أن الخير والشر من الله، والرزق سعته وضيقه من تقديره سبحانه، وفي تقليب أحوال الناس بين الخير والشر، وبين البسط والقبض، وبين الصحة والمرض، دلالات لقوم يؤمنون بأقدار الله وحكمته، فلا يتسخطون منها.

ثم قال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾، **أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** النبيَ ﷺ ومن معه من المؤمنين ممن بسط الله لهم الرزق، أن يعطوا من قُدِّر عليه رزقُه مما أعطاهم الله من الرزق، فبدأ بذي القربى فيعطى ما يستحقه من الصلة والصدقة، وليس بالضرورة أن تكون زكاة، فإن كانت زكاة فهو أولى بها من البعيد، **والمسكين:** وهو الذي يتكفف الناس ويسألهم، وإذا ذُكر المسكين وحده دخل في معناه

الفقير، وإذا اجتمعا فالمِسكين أرفع رتبة من الفقير، **وابن السبيل**: هو المسافر الذي انقطعت به السبل وانتهت مُؤنته وهو بعيد عن وطنه، فهذا له حق الضيافة على كل من مر بهم في بلدهم، وعلّل بأن هذا الفعل أجره عظيم وخيره عميم لمن فعله لوجه الله لا رياءً ولا سمعة، ويحصل به لهم الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، وهو خير من فعل أهل الجاهلية الذين كانوا يؤثرون البعيد على القريب رياء وسمعة، ويعطون السادة وأهل السمعة تقرباً إليهم، ويتركون الأقارب والضعفاء[1].

ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾، **الربا في هذه الآية له معنيان**[2]: **الأول**: الربا المعروف شرعاً، وهو أن تُعطي الإنسان مالاً وتطلب منه زيادة عليه مقابل القرض، والذي يفعل هذا الفعل آثم، ولا أجر له عند الله.

والمعنى الثاني: أن الربا مطلق الزيادة سواءً كانت حسية أو معنوية، مثل ما يفعل بعض الناس حينما ينفقون أموالهم لتزداد سمعتُهم في الواقع، فيمدحون بهذا الفعل، وهذه زياده معنوية وليست حسية، ونحوه أن يعطي غيره هدية أو يقدم له ضيافة، وينتظر منه أكثر منها، فهذا حرام ومأثوم صاحبه، ولا يكتب لصاحبه أجر في صحائف أعماله، ولا ينمو ولا يبارك الله فيه بل يمحقه ويبطله؛ لأنه كان لغير الله، ولو فعل ذلك لله وأخلص نيته لله لسُجل ذلك العطاء في

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 104).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 424).

صحائف أعماله، وضاعف الله أجره فيها، **كما في الحديث**: **"إن الرجل إذا تصدق بتمرة من الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وقعت في يد الله فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله حتى تعود في يده مثل الجبل"**[(1)]، فمن أراد أن يزداد ماله ويتطهر من الأخلاق الرذيلة وينمو ويتضاعف أجره؛ فلينفق منه في سبيل الله بإخلاص ولا يشوبُه برياء ولا سمعة ولا منفعة دنيوية، **كما قال**: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان:9].

ويرى بعضُ أهل العلم[(2)] أنه يُكرَه لمن يُطعِم مسكينًا أن يقول له: ادعُ الله لي؛ لأن المسكين لو دعا الله له أو أثنى عليه؛ فقد حصل على الجزاء والشكور مقابل ما تصدق به عليه، **لحديث**: **"من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تُكافئوه فادعوا الله له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"**[(3)]، فالدعاء مكافأة للعطاء، ولذلك كان السلف يستحبون الصدقة خفية حتى لا يعلم بها أحد فيضاعف أجرها لهم عند الله، **وقد كان الإمام** علي بن الحسين بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُلقَّب بزين العابدين كثير الحرص على الصدقة سراً، فما علم الفقراء الذين كان ينفق عليهم بمصدر النفقة إلا بعد انقطاعها بموته[(4)]، أين هذا

(1) مسند أحمد: (16/ 577)، برقم: (10979)، وصحيح ابن حبان: (8/ 109)، برقم: (3316)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية: (ص:170).

(3) مسند أحمد: (9/ 266)، رقم: (5365)، وسنن أبي داود (2/ 128)، برقم: (1672)، وإسناده صحيح.

(4) ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: (5/ 332).

الخُلُق العظيم اليوم ممن يُعطون الفقراء شيئًا يسيراً ويُصورنهم وينشرون الصور في وسائل الإعلام!!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- خطورة اتباع الهوى وأنه سبب للضلال، فاحرص على التفكر في الحق وأدلته.

2- أن دين الإسلام هو دين الفطرة السليمة.

3- أن القنوط من طبيعة النفس الإنسانية، ولا بد للإنسان أن يُهذبها بحسن الظن بالله.

4- أن إعطاء الحقوق لأهلها سبب للفلاح، وأولى الناس بها هم الأقارب والضعفاء والمحتاجين.

5- أن من أراد أن يزداد ماله ويتضاعف أجره؛ فلينفق منه في سبيل الله بإخلاص ولا يشوبُه برياء ولا سمعة ولا منفعة دنيوية.

تفسير المقطع الرابع من سورة الرابع

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾، **يبيّن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات لكفار قريش نعمه المتعددة عليهم، فذكر أربع دلائل على انفراد الله تعالى بها في التصرف في الناس وإبطال ما زعموه من ادعائهم شركاء لله في الإلهية؛ فقد أوجدهم من العدم، وخلقهم على هذه الهيئة المُكرمة الحسنة،

ثم منحهم من فضله أنواعًا من الرزق الذي لا غنى لهم عنه في معاشهم، كالمال والولد والصحة، ونحوها مما يتمتع به الإنسان من أرزاق ونعم، فإذا انتهت آجالهم في هذه الحياة الدنيا؛ قبض أرواحهم وأماتهم، ثم يحييهم ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء، فهل تستطيع هذه الأصنام والآلهة التي منحوها صفة الشريك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تفعل شيئًا من هذه الأمور الأربعة؟! **الجواب**: لا، فإنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعًا، ولذلك عقّب الله على هذا السؤال بتنزيه نفسه عن الشريك والمثيل والنِد الذي يدعيه المشركون مع الله.

ثم قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾، ظهر بمعنى بان وانكشف، والمقصود بالفساد ما فيه ضرر على الخلق، والمقصود بذلك ثمرة الإفساد، أو عاقبة الفساد الذي هو فعل الذنوب والشرك والمعاصي من العباد، فينتج عنها فساد البر بالقحط وقلة الأمطار ونزع البركة من الأرزاق، ونزول الأمراض والأسقام، وحصول الزلازل والمحن، وفساد البحر بتعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان، وكثرة هيجان الأمواج والرياح التي تعطل الأسفار فيه، وغير ذلك من الآثار السيّئة التي تعمّ البر والبحر، **وذهب بعض المفسرين**[1] **إلى تفسير البَر** بالقرى والمدن البعيدة عن السواحل والأنهار، والبحر القرى والمدن الملاصقة للسواحل والأنهار، ولكن إبقاء اللفظ على أصله الذي وُضع له في لغة العرب، وهو أن البَر هو اليابسة والبحر هو الماء، أولى، وبيّن السبب لظهور هذا الفساد وهو ما

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 70).

فعلته جوارح البشر من الشر والمعاصي والمنكرات، ونسب الكسب إلى أيدي الناس مع أن الفساد قد يكون بالفرج واللسان وسائر الأعضاء؛ من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، واللام لام العاقبة، **أي**: فأذقناهم بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم وكفرهم[1]، أو هي لام العلة، **أي**: ليذيقهم جزاء بعض عملهم[2] في الدنيا؛ تنبيهاً لهم لعلهم يتوبون من كفرهم وشركهم ويرجعون إليه؛ فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، ولكن بعض الناس لا يستفيد من هذا الابتلاء، بل يزداد به عتواً ونفوراً إن نزل به، **كما قال**: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنعام: 43].

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾، **أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للمشركين**: تأملوا أثناء سيركم وسفركم في الأرض وتفكروا في آثار الأمم السابقة التي أهلكها الله، مثل قوم لوط، وقوم عاد، وقوم ثمود وغيرهم، فمنازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة، وقد كانت عاقبتهم سيئة ونكالهم عظيماً، بسبب أن أكثرهم كانوا على الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقلة منهم آمنت بالله وصدّقت الرسل، وفي هذا تلميح وتهديد للمشركين من كفار مكة إن استمروا على الشرك بالله.

وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾، **الخطاب لمحمد ﷺ** ومن معه من المؤمنين، المقصود

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 111).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 263).

بالوجه هنا القصد، **أي:** اجعل قصدك اتباع الدين القيم، وهو دين الإسلام الذي لا اعوجاج فيه ولا خلل فيه، واستمر على التمسك به والاستقامة عليه في الدنيا من قبل أن تقوم الساعة، فإنه لا فائدة من الإيمان والاستقامة عند رؤية علامات الساعة الكبرى، فإذا جاء يوم القيامة وبعث الناس بين يدي الله وحاسبهم على أعمالهم؛ فإنهم ينقسمون إلى فريقين: مؤمنين يذهبون الجنة، وكفار يذهبون إلى النار، **كما قال:** ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورى:7].

وقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾، من كان كافراً في الدنيا فجزاء عقوبة كفره على نفسه لا يتحملها غيره، ومن عدل الله أن العقوبة والوزر على العبد تكون بقدر كفره، لا زيادة فيها ولا نقصان، ومن آمن وعمل صالحاً فجزاء ذلك له، ولكنه أطلق الجزاء الحسن دون تحديد؛ لأنه قائم على فضل الله، **وأشار بلفظة** "يمهدون" إلى أثر العمل الصالح في الدنيا في تحسين المرقد في الآخرة، وهذا يشمل القبر والمحشر والجنة، شبّه حالة المكلف مع عمله الصالح وما يتحصل به من الثواب ويتخلص من العقاب، بحالة من يمهد فراشه ويوطئه ليستريح عليه ولا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه[1]، وفيه بيان أن عمل العبد في الدنيا يعود منفعته أو ضرره عليه في الآخرة، لأن الله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

وقولـــه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾،

(1) ينظر: تفسير الألوسي: (11/ 50).

اللام للتعليل متعلقة بـ"يمهدون"[1] **أي:** ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم بفضله وكرمه، والكافرون لا يحبهم وأدخلهم النار بسبب كفرهم، وذلك من عدله؛ لأنهم فعلوا قبائح يستحقون بها الكره والعقوبة في النار، وفي هذا إشارة إلى أنه يُحب المؤمنين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾، **ومن آيات الله الدالة على عظمته وقدرته وتفرده بالألوهية؛** تكوين الرياح وبعثها وتحريكها مبشّرة بنزول الغيث لأنها تتقدمه، وفي حركتها منافع كثيرة كاعتدال الجو، وذهاب الرطوبة، وتلقيح الأشجار ونحوها، وإذاقة الرحمة للخلق هو نزول المطر إلى الأرض؛ حيث يكون من أثر هذه الرحمة إنبات الشجر وحصول الخصب والرخاء، وذهاب الغبار والأتربة وسائر ما كانوا يتأذون منه بسبب سكون الرياح وقلة الأمطار، **ومن منافع تحريك الرياح أيضًا** جري السفن على البحر، لأن السفن القديمة كانت شراعية تجري بالرياح فقط، ولا يوجد فيها مكائن تتحرك بالطاقة كسفن اليوم، وإذا تحركت السفن في البحر انتعشت التجارة بالبيع والشراء وجاءت الأرزاق، وقد فعل الله بكم ذلك لأجل أن تشكروه بالتوحيد والإيمان به، فيزيدكم من نعمه وفضله.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، في هذه الآية إخبار للنبي ﷺ بأنه

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 117).

ليس أول رسول إلى قومه، بل قد سبقه رسل كثير إلى أمم كثيرة، وقد جاءوا أقوامهم بالمعجزات والحجج والبراهين، ودعوهم إلى التوحيد والعمل الصالح، فلم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وآذوهم، فعاقبهم الله بسبب كفرهم وإجرامهم وأهلكهم؛ لأن الانتقام هو سلب النعمة بالعذاب[1]، والمنتقم ليس من أسماء الله الثابتة له، ولا يُوصف الله بالمنتقم على الإطلاق ولا بالماكر ولا بالمُخادع؛ لأن هذه الأسماء جاءت مقيّدة بمن يستحق ذلك، فهو يمكر بمن يستحق المكر، وينتقم ممن يستحق الانتقام، ويخدع من يستحق الخديعة، وهنا جاء الفعل مقيداً بالإجرام، والإجرام فعلٌ قبيحٌ يشمل الإجرام في حق الله بالشرك والكفر، وفي حق الخلق بالمنكرات والآثام، فاستحقوا الهلاك بسبب كفرهم وإجرامهم، وأنجى المؤمنين بتحقيق وعده لهم بالنجاة، فإن الله إذا أخبر بشيء تحقق ذلك الشيء ووُجِد على ما أخبر به سبحانه[2]، ولا يتخلف، وهذا الحق في إنجاء المؤمنين ونصرهم حق أوجبه الله على نفسه، وهو لا يُخلف الميعاد، خلافاً لمذهب المعتزلة الذين يوجبون ذلك على الله[3]، والألف واللام لاستغراق كمال الإيمان، وهو شرطٌ لنيل النصر والتمكين لهم، فقد يتأخر النصر عن المؤمنين أحياناً حتى يكتمل الإيمان عند أغلبهم، وفي هذا سؤال البعض: ما للمؤمنين والمسلمين يُعذبون ويُضربون من اليهود والنصارى ويفعلون بهم كذا وكذا وهم يُصلون ويعبدون الله؟! هل يُخلف الله وعده؟،

(1) الفروق للعسكري: (ص77).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 76).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 484).

والجواب: لا، ولكن هناك قصور في تحقيق كمال الإيمان عندهم، وهناك سنّة الإمهال والأجل للكافرين، فإذا اكتملت سنّة الإمهال للكافرين، واكتملت شروط النصر للمؤمنين؛ أهلك الله المجرمين، ونصر الله المؤمنين، وفي الآية تبشير للنبي ﷺ بالظَفَر في العاقبة، والنصر على مَنْ كذبه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الذنوب والمعاصي من أسباب خراب البيئات، وذهاب البركات منها.

2- بيان أهمية التفكر والتأمل في أحوال الأمم السابقة التي أهلكها الله والاتعاظ بحالهم.

3- بيان أن نعم الله كثيرة، وأن هذه النعم تستدعي أن يشكر العبد ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها.

4- بيان أن النصر للمؤمنين، وأن الهلاك للكافرين سنّتان ماضيتان، تتحققان عند توفر شروطهما.

تفسير المقطع الخامس من سورة الروم

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا
فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ (٤٨)
وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ
كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٥٠) وَلَئِنۡ
أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ
ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ (٥٢) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ (٥٣) ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ
ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ (٥٤) وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ
وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٥٦) فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُسۡتَعۡتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا
يَعۡلَمُونَ (٥٩) فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾.

قـــول الله تعـــالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾، **هـذا بيـانٌ لعظمـة قـدرة الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تـدبيره شـؤون الكـون، فـإن الله يُرسـل الريـاح، **أي**: يبعثهـا ويحركها بطريقة هادئة فتتحرك بها السحاب وتنقله في طبقات الجو حتى يتكثف وتـزداد برودتـه ويمـده وينـشره في الـسماء، بالكيفيـة التـي يريـدها الله سـبحانه، فتتكوّن السحب في السماء على أشكال متعددة كما هو مـشاهد، وأحيانـًا تكـون مترابطة، وأحيانـًا تكون قطعـًا متباعدة متناثرة، ثم يـتراكم هـذا الـسحاب ويرتفع فتزداد برودته فيتحول إلى قطرات من المطر، والخلال الشقاق الذي بـين بعـضه وبعض(1)، فيخرج من خلال تلك الفراغات المطر، فينـزل بـوزن معـين حتـى لا يـؤذي مـن نـزل عليـه، وهـذا مـن رحمـة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتـدبيره بـالخلق، فـإذا أصاب بهذا المطر من يشاء مـن عبـاده؛ فرحـوا بهـذه النعمـة واستبـشروا بآثارهـا، والعبودية هنا المقصود بها العبودية المطلقة، فقد يكون الذي تنزل الأمطار على أرضه وبلده مسلمـًا أو كافراً، وكانوا حين قـد انقطـع عـنهم المطـر وتـأخر نزولـه عنهم، قد أصابهم الإبلاس، وهو شدة اليأس من رحمـة الله، مـن كثـرة انتظـارهم لنزوله؛ فلما نزل عليهم استبشروا به استبـشاراً كبيـراً وفرحـوا بـه فرحـًا عظيمـًا، وفي ذلك إشارة إلى عظيم حكمـة الله في خلق الإنـسان، إذ جعلـه قـابلاً لاخـتلاف الانفعال بين فرح وقنوط مع اتحاد العقل والقلب، كما جعل الـسحاب مختلـف

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1468).

الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج المطر من خلاله[1].

وقولــــه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾، الخطاب يصلح لكل ناظر، ورحمة الله هنا المقصود بها نزول المطر، والأثر هو ارتواء الأرض، وذهاب حرارة الجو، ونبات الزرع، واستبشار الخلق بذلك، فمن أحيا الأرض بالمطر بعد موتها باليبس والقحط، فهو القادر على إعادة الحياة إلى أجساد الموتى، وبعثهم ومجازاتهم يوم القيامة، وهو مثال تقريبي لكيفية البعث ضربه الله لهم، فإن الله لا يقف أمام قدرته شيء ولا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾، في الآية مقارنة عكسية، فالرياح الأولى كانت رياح رحمة وخير، ولذلك جمعها؛ لأنها تتكوّن من عدة جهات، بينما أفرد الريح هنا؛ لأنها غالباً تكون من جهة واحدة وفيها معنى الشدة والقوة، **والمقصود بالريح هنا** العذاب[2]، أو الريح اليابسة الباردة التي لا خير فيها، فتسببت بيبس الزرع واصفرار لونه، **والمعنى** لو أرسلنا عليهم بعد المطر ريحاً يابسة باردة أذهبت خضرة هذا الزرع وأفسدته؛ لذهب منهم الفرح سريعاً، وعاد إليهم اليأس والقنوط من جديد، ولحصل منهم الجحود لنعم الله السابقة، فمن طبيعة الكافر أنه يجحد النعم، ويتذكر النقم، بينما المؤمن تجده صبوراً على النقم شكوراً على النعم.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 122).

(2) التفسير البسيط: (18/ 79).

ثم قال الله لنبيّه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٥٣﴾، الخطاب في الآيات لمحمد ﷺ، وهو مثالٌ ضربه الله للكافر الذي لا يسمع الموعظة ولا يهتدي بها، فشبه حالهم بالموتى في عدم إحساسهم، وهم فعلاً موتى القلوب، كما قيل:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياءِ(1)

فمن ماتت قلوبهم عن سماع الهدى والاستفادة منه يشبهون الموتى الذين في القبور ولا يسمعون من يناديهم من الأحياء، ومثلهم أيضـًا كالشخص الحي الذي في أذنه صمم، الذي لا يسمع النداء ممن حوله لشدة انسداد أذنه، فكما لا تُسمع الموتى ولا تسمع الأصم المناداة؛ فكذلك لا تسمع الكافر الحق والهدى، وإن سمع الصوت، فسماعُه سماع لا عمل فيه، ولذلك نفاه الله عنه، والتولي هو الإعراض عن القبول والعمل، فإن المشركين كانوا يُعرضون عن سماع القرآن والنصح الذي كان يُقدمه لهم رسول الله ﷺ، ويُولون الأدبار معرضين عن ذلك، ومثلهم أيضـًا كالشخص الأعمى الذي ذهب بصره، فلا تستطيع أن تريه الطريق ليسير عليه، **والمقصود بالأعمى هنا** أعمى البصيرة، فالضلال من أمراض القلوب، فهو لم يرَ الهدى لفساد قلبه؛ فاستمر في طريق الغواية والضلال، وحصر السماع المفيد للحق بالمؤمن بالله وبآياته المستسلم لأمر الله وشرعه، فهذا هو الذي وفقه الله للهداية والاستفادة من النصح والتوجيه.

---

(1) البيت لعديّ بن الرّعلاء الغسّاني، ينظر: الأصمعيات: (ص 152).

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا مظهراً آخر من مظاهر قدرته في الخلق والإيجاد، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾، الخطاب للبشر لأنهم هم المكلفون، والمقصود بالضعف هنا هو النطفة التي تكون علقة ثم مُضغة، ثم يكون جنيناً ضعيفاً، ثم يولد طفلاً ضعيفاً يحتاج إلى عناية ورعاية، فهذه كلها تدخل في مرحلة الضعف، ثم يكبر الطفل وتقوى بنيته وجسده ويكبُر فكره وعقله وسمعه وبصره وسائر قواه فيكون في مرحلة القوة، وهي مرحلة الشباب، بعدها تذهب مرحلة الشباب وتأتي مرحلة الضعف والشيبة والهرم، ثم بعدها مرحلة الشيخوخة، وهي آخر المرحل، والمرحلتان الأخيرتان مرحلة انحدار وضعف في الجسد والسمع والبصر وسائر الأعضاء، وهذه الأطوار التي يمر بها الإنسان كلها كانت وفق مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتقديره، فهو الذي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ومن حكمته في هذا أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص[1]، وذيّل الآية بالعليم القدير حتى لا يظن ظان أن هذا الضعف أتى عن جهل أو عجز، بل هو بعلم الله وقدره لحكمة يريدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾، فإذا قامت القيامة وبُعث الكفار الذين كانوا يُنكرون البعث والنشور فإنهم يعودون إلى كذبهم ويحلفون أنهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة،

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 645).

وهذه طبيعة المشركين، فالكذب صفة مطّردة فيهم منذ كانوا في الدنيا فقد كانوا يحلفون أنه لا يوجد جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور، وأن الله لم يرسل رسولاً ولا أنزل كتاباً، فبُعثوا على تلك الطبيعة، والهدف من هذا الكذب هو تبرير كفرهم، وأن الوقت لم يكن كافياً لكي تبلغهم الحجة ليؤمنوا بالله، وكذبهم هذا الذي اعتادوا عليه، هو سبب لصرفهم عن اتباع الحق في الدنيا حين عرض عليهم.!

وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾، فلما سمع أهل العلم من المؤمنين قولهم الباطل وكذبهم الفاضح، سارعوا إلى الرد عليهم، وهذه طبيعة مطردة عند أهل العلم والإيمان، فقد عاشوا في الدنيا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وإقامة الحق والعدل، فكانوا كذلك في الآخرة، فأكذبوا المشركين في قولهم هذا، وبينوا لهم أنهم قد عاشوا في الدنيا وقتاً طويلاً وفقاً لما كتب الله لهم من أعمار في اللوح المحفوظ، ثم ماتوا وبقوا في البرزخ ما شاء الله لهم من الوقت، ثم بُعثوا في القيامة للحساب والجزاء، فهذه تفاصيل حياتهم، وفيها فرصة كافية للعمل والاستعداد للآخرة، فلا تكذبوا على الله ولا على أنفسكم، وهذا يوم القيامة الذي كنتم تنكرون وجوده، وفيه توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقبهم من العذاب[1]، ونفى عنهم العلم به لأنهم لم يستعدوا له، وغرهم جهلهم بالله فأنكروا قدرته على بعثهم، ولو كان عندهم أدنى علم ومعرفة بالله، لما أنكروا مثل هذه الحقائق الواضحة البينة.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 131).

وقولـــه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾، سبق بيان أن العلة من إنكار بقائهم في الدنيا كثيراً هو البحث عن عذر لهم يوم القيامة، فجاء التصريح هنا بالعلة، فمهما حاولوا البحث عن عذر لهم ولوا بالكذب واليمين الباطلة، فلا ينتفعون بذلك ولا يُقبل منهم العذر، فيوم القيامة يوم للحساب والجزاء وليست داراً للتوبة والاعتبار، فدار التوبة والاعتبار هي الدنيا، والسين والتاء للطلب، **أي:** ولا يُقبل طلبُهم في إزالة العتب عنهم، **وفي الحديث:** "**ولك العتبى حتى ترضى**"(1)، **أي:** أسترضيك حتى ترضى عني، فهؤلاء القوم رفضت معاذيرهم عند الله، ولا يرضى الله عنهم ولا يقبل توبتهم لأنه قد فات وقتُها.!

ثـم قـال الله تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨﴾، **يبيّن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** أنه قد أكثر من ضرب الأمثلة المتنوعة في هذا القرآن، من أجل أن تتضح للناس الحقائق، وتقرب لهم المعلومات، فضرب الأمثال أسلوب من أساليب إيصال المعلومة بأقصر طريق، غير أن المشركين لم يستفيدوا من تلك الأمثال، بل سارعوا إلى التكذيب بها وإنكار ما جاء به محمد ﷺ من المعجزات والحجج، بل لشدة إعراضهم عن الحق يتهمون من جاءهم به بأنه مُبطل وأنه لا حق لديه!

وقولـــه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾، **الكــاف** للتشبيه وتعود على ما فعله الله بهم من الطبع على قلوبهم وعدم التأثر بالمثال

(1) الدعاء للطبراني: (ص: 315)، برقم: (1036)

والموعظة والاقتناع بالمعجزة، فوقعوا في الكفر، وهي نتيجة حتمية لكل من أعرض عن الحق وجهل عظمة الخالق سبحانه، أن يجعل قلبه غير قابل لفهم الأمور الدينية أو الاستفادة منها، وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾، أي: استمسك يا محمد بالصبر وتحمل تكذيبهم وأذيتهم لك وإعراضهم عنك، فما وعدك الله به من النصر والتمكين وظهور دينك على الدين كله وذهاب هؤلاء المشركين وهزيمتهم كائن لا محالة، وإنما هم يعيشون في سنّة الإمهال، فإذا انتهت وقع بهم وعد الله، فإن وعد الله حق لا يتخلف، ونهاه أن يستخفه المشركون ويستعجلونه بفعل شيء لم يؤمر به، فالاستخفاف المبالغة في الخفة، وضده الرسوخ والتثاقل، أي: انتبه أن تترك الرزانة في المواقف والصبر والثبات على المبادئ ولا تخرج عن طورك وتفعل ما يريدون، بل اثبت على الحق، مهما واجهت منهم من تكذيب وإعراض واستفزاز، وهو أمر للنبي ﷺ ولكل داعية بعده يدعو إلى الحق في أي زمان ومكان، فأعداء الإسلام يُحاولون دائمًا أن يستخفوا الدعاة لكي يتصرفوا تصرفًا خاطئًا ثم ينسبوا هذا الخطأ إلى دينهم تنفيراً منهم وتشويهًا لهم، ونفى عن الكفار اليقين؛ لأن دينهم يقوم على الشك والظن، ومن كان هذا حاله فلا مبدأ سيبقى معه، ولا قناعة سيستقر عليها! بل سيدور مع مصالحه وأهوائه حيث دارت، فاليوم يكون مع مبدأ وفكرة، وغداً مع مبدأ وفكرة أخرى.!!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتدبيره في هذا الكون إشارة إلى قدرته على البعث والنشور والحساب.

2- بيان أن الكافر طُبع على اليأس والقنوط، وإن جاءته نعمة سرعان ما ينساها، بخلاف المؤمن الذي يشكر الله على نعمه ويصبر على بلائه.

3- بيان أن الهداية نوعان: هداية التوفيق وهي بيد الله، وهداية الإرشاد وهي بيد الرسل والدعاة.

4- بيان مراحل عمر الإنسان، وأنه يبدأ ضعيفًا، ثم يشب ويقوى، ثم يضعف، ليستعد للآخرة في وقت قوته ونشاطه.

5- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعاقب المعرض عن قبول الحق بالختم على قلبه فلا يفهم الحق ولا يهتدي به.

6- نهى الله رسوله ﷺ أن يستخفه الذين لا يُوقنون، وهو توجيه عام يشمل الدعاة في كل زمان ومكان أن يثبتوا على مبادئهم وأخلاقهم الحسنة مهما استفزهم أعداؤهم.

تفسير سورة لقمان

تفسير المقطع الأول من سورة لقمان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ
فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ
٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ
فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ
زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ
مُّبِينٖ ١١ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾.

شخصية السورة:

سورة لقمان؛ سورة مكية[1]، **والمقصد العام لهذه السورة**، هو بيان الحكمة

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 330).

والدعوة إليها والتحذير من ما يُناقضها ويُخالفها.

ابتدأت بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، وهذه الأحرف المقطّعة الصحيح فيها أنها لا تفسير لها، وإنما هي إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، فإنه مكوّن من هذه الأحرف التي تتكوّن منها لغة العرب، ومع ذلك لم يستطع العرب أن يأتوا بشيءٍ من مثله.

وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾، هذا وصف للقرآن الكريم الذي هو آخر الكتب السماوية، بأنه حكيم، **أي:** ذو حكمة، وهو حكيمٌ، **أي:** مُتقن الإحكام فلا نقص فيه ولا خلل، وحكيمٌ في تشريعاته وأحكامه، وحكيمٌ في أخباره وقصصه، فليس فيها خلل ولا خيال، بل كلها حقائق، وأغلب آياته مُحكمة لا نسخ فيها، ولا غموض في معانيها، فجميع ما سبق من مُقتضيات وصف القرآن بالحكمة.

وقوله: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣﴾، نصبت على أنها حال، أي حال كونه هدىً ورحمة يهتدي به ويرحم به من أحسن في إيمانه وعمله، فيوفقهم للصراط المستقيم، ويخرجهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والتوحيد، ويرحمهم في تشريعاته وأحكامه، فيصلون باتباعه إلى دخولهم في الرحمة العظمى وهي جنات النعيم، وخص المحسنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم يستحقون ذلك، فمن أحسن في عمله جازاه الله تعالى على إحسانه هدىً ورحمة، فمن أراد أن يمنحه الله الهداية وأن يرحمه الله في كل أحواله؛ فعليه أن يُحسن في كل شؤونه بالإتقان للعمل، والإخلاص فيه.

ثم وصف هؤلاء المحسنين بثلاث صفات رئيسية، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾، فهم يُحافظون على الصلاة ويُؤدونها بخشوع وبكامل أركانها وشروطها وواجباتها، ويُعطون الصدقة المطلقة من أموالهم طيبةً بها نفوسهم إلى من يستحقها؛ لأن الآية مكية، ولم تكن الزكاةٌ الواجبة قد فرضت في مكة، ويؤمنون بالآخرة إيمانـًا بلغ إلى درجة اليقين الذي ليس فيه أدنى شك، لأن الكفار من حولهم كانوا يشكّون شكـًا مطلقـًا في البعث والنشور ويُنكرونه، فكان لا بد من إبراز هذا الفارق بينهم، فالمؤمن لديه إيمان ويقين مطلق باليوم الآخر، فالأولى عبادة بدنية، والثانية عبادة مالية، والثالثة عبادة قلبية.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾، **هذا بيان** لجزائهم عند الله بسبب صفاتهم وأعمالهم السابقة، واستخدم اللام في "أولئك"، إشارة إلى بُعْد مكانتهم وتعظيم شأنهم، ورفعة مقامهم عند الله، واستخدم حرف الجر "على"؛ لأنهم علوا بالهدى وارتفعوا بسببه، وأتى بلفظ الرب هنا ليُشعِرهم أن هذا الهدى الذي معهم منحه لهم من رباهم وأحسن إليهم به، وقدّم الضمير على الاسم لأجل الاختصاص فلا فلاح لغيرهم إلا من ساواهم أو زاد عليهم، وأتى بالألف واللام التي تدل على استغراقهم للفلاح المطلق في الدنيا والآخرة، وهو النجاح والفوز الذي ليس بعده فوز.

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾، ثم ذكر حال من لم يهتدِ بالقرآن

وأعرض عن سماعه والاستفادة من أنواره فحرم من دخول الإيمان والسعادة إلى قلبه، وشغل نفسه بما لا فائدة منه، بل عارض القرآن بالقول الباطل، و"مِن" هنا تبعيضية، **قيل**[1]: إن هذه الآية نزلت في أحد رجال قريش، وهو النضر بن الحارث، فقد كان يذهب إلى بلاد فارس والروم ويأتي بأساطير الأولين وقصصهم وأخبارهم فيقرأها على الناس في مكة ليُعارض بها القرآن الكريم، **ولفظ**: "يشتري" ليست على بابها، وإنما هو تعبير عن عناية الرجل واهتمامه بهذا اللهو وكأنه يدفع ثمنه، **ولهو الحديث ذُكر في تفسيره أقوالٌ**[2]، **قيل**: إنه الغناء، **وقيل**: إنه الباطل، **وقيل**: الكذب، **وقيل**: السحر والشرك، ونحوها من الأقوال، والصحيح أنه اسم عام يدخل فيه كل ما يشغل عن الإيمان بالله والعمل بالشرع مما ذكر وغيره من كل كلامٍ باطل يُلهي الإنسان عن الحق والخير والإيمان والصلاح، واللام للتعليل، أي من أجل أن يُضِل الناس به عن سماع ما يدلهم على الله ويُوصلهم إلى طريقه المستقيم وسبيله القويم، وهو الإسلام، وسبيل الله اسم يشمل دين الإسلام وكل ما فيه خير للبشرية، والمقصود بغير علم هنا **أي**: ليس عنده حجة ولا برهان لا عقلي ولا نقلي على ما جاء به، بل إن فعله هذا يدل على جهله، بل الحجج والبراهين تدل على عكس ما يفعل وأن فعله هذا باطل وضلال ولغوٌ لا فائدة منه، ومن أهدافه أيضًا الاستهزاء بآيات القرآن الكريم عند تلاوتها، وجاء الضمير مؤنثًا ليُشير إلى أن المقصود بهذا

---

(1) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (6/ 503).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 126).

اللهو هو معارضة آيات القرآن، وجعلها محلاً للاستهزاء، إما بالسخرية أثناء قراءتها أو الضحك أو أن يفعل أي فعل يشغل الناس به عن سماعهم القرآن الكريم، فمن فعل ذلك الفعل في زمان ومكان فهو متوعد بالعذاب المهين في الآخرة، واللام إشارة إلى بعدهم عن الهدى والحق والصواب، وتفيد التحقير لهم، وقدَّم الجار والمجرور على العذاب ليكون هذا العذاب مختصاً بهم، وهو عذاب جهنم في الآخرة، لأن فيه إهانة لأنفسهم وأجسادهم حساً ومعنى، والسبب في ذلك كبرياؤهم وعدم امتثالهم وتواضعهم للحق، فعاقبهم الله بنقيض وصفهم في الدنيا.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾، ثم ذكر بعض أحوال المكذبين بالقرآن، حين تُقرأ عليهم بعض آياته، فإنه يعرض ويترك المكان الذي تُتلى فيه الآيات، ويبتعد وهو شديد التكبر لا يريد أن يسمع منها شيئًا، كالذي في أذنه صمم حتى لا تدخل إلى قلبه فيهتدي به، فالوصف الأول يُثبِت عدم سماعه للآيات، بسبب هروبه وابتعاده عن سماعها، والوصف الثاني شبهه بالأصم الذي لا يسمع حقيقة، حيث منع نفسه من سماعها كأنه يتأذى من ذلك، فانظر إلى شقاء هذا الإنسان الذي يسد على نفسه منافذ الخير والهدى!!، ولو ثبت سبب النزول في شخص، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من شابه هذا الرجل في فعله ووصفه فالحكم ينطبق عليه، فبشره بعذابٍ أليم في الآخرة، وجاء لفظ البُشرى بالعذاب من باب التبكيت والتقريع، والأصل في البُشرى أن تكون في الخير،

ولكن الله أراد أن يُقرعه ويُوبخه، والخطاب يصلُح لكل مُخاطَب بعد محمد ﷺ إلى قيام الساعة.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾، انتقل الحديث بعد هذه الآيات إلى الحديث عن المؤمنين الصالحين، ليبيّن الفرق بين حال المعرضين عن الآيات القرآنية وسماعها والاهتداء بهدايتها والمعارضة لها بالأقوال الباطلة أو بالأغاني والموسيقى وسائر آلات الطرب واللهو، وبين حال المؤمنين الذين يعملون الصالحات في الدنيا، فهم في الجنة في حال لا ينفك عنها النعيم المقيم، مما لا أذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون فيها لا يخرجون منها أبداً، قد وعدهم الله بذلك وعداً يتحقق ولا يتخلف، فهو كائن لا محالة، ثم ذيّل الآية باسمين من أسمائه الحسنى غالبًا ما يقترنان مع بعض، فالعزة تعني القوة، والحكمة تعني عدم الخلل والنقص ووضع كل شيءٍ في موضعه، ومن عزته وحكمته؛ وفّق من وفّق، وخذل من خذل، وفائدة الجمع بين هذين الاسمين، أن يستشعر العبد قوة الله وحكمته في أفعاله وشرعه.

ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾، يبيّن الله لهؤلاء الكفار الذين يُنكرون البعث والنشور ويعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله العظيم الجليل سبحانه، بأنه خلق السموات السبع وهي خلقٌ عظيم لا يعرف حقيقته وكنهه على الواقع إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وما وصل إليه العلم الحديث من

تفاصيل إنما هو شيءٌ تقريبي له، ومن عظمة الخالق وقُدرته أنه جعلها مركبة على الأرض كالقبة بدون أعمدة، ولو كان لها عمد لرآها الناس، وإنما استقرت واستمسكت[1] بقدرة الله تعالى، ولو رأيت قبة مبنية في مسجد وكانت هذه القبة واسعة وكبيرة فستجد مجموعة من الأعمدة القوية التي تحملها، وكلما توسعت هذه القبة كلما ازدادت الأعمدة، وكلما أتقن المهندس في ضبط هذه القبة ووسعها كلما قيل عنه مبدعـًا، فما بالك ببديع السموات والأرض سبحانه، فقد خلق السماء وجعلها كالقبة على الكون كله، وصارت كغطاء وقبة للأرض، وهي قبة لسائر المجرات الكونية الأخرى مثل المريخ والمشتري والشِعرى ونحوها، وأظهر قدرته في الأرض بأن ثبتها بالجبال الرواسي التي نصبها تُرسي وتُثبِت الأرض وتجعلها مستقرة فلا تتحرك، ولا تضطرب بالخلق الذين يعيشون عليها، ولو تحركت الأرض حركة خفيفة في جوفها وهو ما يُسمى الزلزال لحصل الدمار فيها، فكيف لو اضطربت الأرض اضطرابـًا شديداً، لهلك كل من يعيش عليها، وخلق ونشر على ظهر الأرض الدواب، وهي كل ما يدب على الأرض من الحشرات والدواب والأنعام وسائر المخلوقات التي تعيش على الأرض، وسخرها في مصالح بني آدم ومنافعهم، وأنزل من السحب الأمطار التي تتكوّن من البخار المرتفع من البحار والأنهار ثم تحركه الريح فيتكثف حتى يُصبح ماءً، ثم يأذن الله بنزوله إلى الأرض، فينبت به النباتات المتنوعة من كل الأصناف، وكريم المقصود به هنا الشجر المثمر أو المفيد

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 647).

الذي فيه منافع للإنسان والحيوان، وقلّ أن تجد شجرة إلا وفيها منفعة للخلق، علم بذلك من علم، وجهله من جهل، لأن الله لم يخلق شيئًا عبثًا.

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾، اسم الإشارة يعود إلى خلق السموات والأرض والجبال وخلق الدواب وإنبات الأشجار، هذا كله خلق الله، فأخبروني ماذا خلقت هذه الأصنام التي اتخذتموها من دون الله آلهة؟! هل تستطيع أن تخلق ذبابًا؟ الجواب: لا، فلماذا تعبدونها من دون الله وهي بهذا العجز؟! وهذا يُسميه العلماء بالاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فإن الخالق القادر المتصرف هو الذي يستحق أن يُعبد وحده، بل هذه تُفيد الإضراب وتكون بمعنى لكن، **والمعنى** ولكن كانت عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، حيث عبدوا من لا يملك نفعًا ولا ضراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور[1]، فسبحان من أذهب عقول بعض الناس فجعلهم يصنعون آلهتهم بأنفسهم ثم يعبدونها ويطلبون منها جلب النفع ودفع الضر!.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، ما سبق ذكره هو ممهدات ومقدمات لنصائح وحِكم لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والصحيح أنه حكيمٌ ورجل صالح وليس بنبي[2]، والمشهور عند أهل السنة والجماعة أن لفظ "عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" خاصٌ بالأنبياء

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 647).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 273).

والرسل، خلافًا لغير أهل السنة الذين يُطلقون لفظ "عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" على غير الأنبياء والرسل من أئمتهم، وقد كان لقمان رجلاً من أهل السودان[1]، منحه الله تعالى الحكمة، وهي الفقه في الدين والإصابة في القول وكمال العقل وحسن التصرف، فارتقى شأنه وارتفع بالحكمة لا بجنسه ولا بلونه، **ولذلك قيل**[2]:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يغنِيكَ محموده عن النسبِ

فالذي يرفع الإنسان هو الأدب والأخلاق والعلم والحكمة، وليس حسبه ولا نسبه ولا جماله، فرفع الله ذكر هذا العبد الأسمر بالحكمة التي وهبها الله له وألهمه بها، ومنحه التوفيق بأن يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل نعمة أنعمها عليه، ثم ذكر قاعدة مطلقة في فعل الخير أو فعل الشر، فمن فعل خيراً فلنفسه، ومن فعل شراً فلنفسه، فأجر وثواب الشكر يعود على صاحبه، ووزر وعقوبة الكفر يعود على صاحبه، وتركَ بيان نتيجة الكفر احتقاراً لأصحابها، ونبههم إلى أن الله غنى عنهم وعن شكرهم، فهو غنيٌ بذاته، ومحمودٌ على كل حال وعلى كل لسان، وغناه ممدوح ومرتبط بالحمد والثناء وليس فيه أشر ولا بطر كغنى بعض المخلوقين.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 333).

(2) البيت لأبي العتاهية، ينظر: جمهرة الأمثال: (2/ 312).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سبب للفلاح في الدنيا والآخرة، ومعصيته سبب للهلاك في الدنيا والآخرة.

2- أن كل ما يصد عن الإيمان والعمل الصالح، فهو من لهو الحديث ولا ينبغي الانشغال به.

3- أن من موانع الهداية والاستقامة على دين الله الكِبر عن سماع الحق والإذعان له.

4- أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المُنفرد بالخلق ولا خالق غيره، فلا معبود سواه.

تفسير المقطع الثاني من سورة لقمان

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى
وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ
وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى
ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ
ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ
بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ
غَلِيظٍ (٢٤)﴾.

قـــول الله تعـــالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾، ثم بدأ بذكر وصايا لقمان لابنه، التي وعظه بها وهي من الحكم التي منحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وألهمه بها فضلاً منه وكرماً، وقد بدأ هذه الوصايا والحِكم بنهيه عن الشرك بالله وتحقيق التوحيد، وهو أصل الإيمان، وهو الطريق الأمثل في ترتيب الأولويات في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد أرشد النبي ﷺ به معاذاً حين أرسله إلى اليمن، فقال له: **"إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى"**[1]، وسماها موعظة؛ لأنها ترهيب مقرون بالترغيب، وطبيعة النفس البشرية تحتاج إلى ملاينةٍ وترغيبٍ في الأجر لتُقبل على الطاعة، وتخويفاً وتشديداً عليها لتبتعد عن المعصية، ثم علّل النهي بأن الشرك ظلمٌ عظيم؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فالذي يعبد غير الله قد وضع العبادة في غير موضعها، وقد ظلم نفسه بذلك حيث عرَّضها للهلاك والعذاب بسبب هذا الفعل القبيح، والشرك ذنب عظيمٌ؛ لأنه أكبر الكبائر، كما في الحديث: "أكبر الكبائر الإشراك بالله"[2].

وقولـــه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾، هذه الآيات جاءت كجملة اعتراضية أثناء وصايا لقمان لابنه، وهي بمثابة التهيئة لما سيأمر به ولده من وصايا، والذي وصى الإنسان بوالديه هو الله، حيث أمره أن يبر بوالديه وأن يُطيعهما في طاعة

---

(1) صحيح البخاري: (9/ 114)، برقم: (7372).

(2) صحيح البخاري: (9/ 3)، برقم: (6871).

الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وعلّل أهمية هذه الوصية بما تبذله الأم وما تتعرض له الأم من تعب وضعف بسبب حملها لهذا الولد، فإن الأم إذا حملت جنينها في بطنها تُصاب بالضعف، وكلما كبر الجنين في بطنها زاد تعبها وضعفها، وهذا مشاهدٌ في الواقع، فالمرأة تكون في الأشهر الأولى أقوى منها في الأشهر الأخيرة من الحمل بسبب كبر الجنين في بطنها، إضافة إلى ما يصاحب هذا الحمل الثقيل من آلام للمرأة؛ لأنه يُضيق عليها المعدة والقلب وباقي الأجهزة التي توجد حول الجنين وتزداد الحاجة إلى الغذاء فإن دم الأم كله أو أغلبه يُصب في الحبل السري الذي يُغذي الطفل فيحصل فيه إنهاك للمرأة كلما استمر الحمل وطال، ثم تتعب في ولادته، وتهتم برضاعته فترة من الزمن حددها هنا بعامين، أي: خلال العامين، فبعض النساء قد تستكمل مدة الإرضاع كاملة، وبعضهن أقل أو أكثر، وكل هذا جائز إذا لم يكن ثَم ضررٌ على الطفل في فطامه وفي الإرضاع والفطام مشقة وتعب على الأم، فإن الأم المرضعة تتعب بسبب الرضاعة، ولذلك أدخل بعضُ أهل العلم المرضعة في حكم المرضى في باب الصيام وجوّز لها الفطر بسببه، كما أن الفطام يؤثر عليها من الناحية المعنوية، فإنها حين تفطم ولدها تشعر بالألم والحزن والتألم عليه، خاصة أنه لا يبتعد عن الرضاع إلا بمشقة ويحتاج إلى وسائل لإبعاده عنها، وفي هذه المرحلة يكون الطفل منزعجًا جداً فتتألم الأم لانزعاجه، والمقصد من ذكر ذلك للابن أن يستشعر ما بذلته أمه من أجله حتى يبرّ بها ويحسن إليها، ولم يذكر شيئًا عن الأب؛ لأن ما تبذله الأم في الحمل والإرضاع والفطام يُشاركها في ذلك الأب فإنه هو من يقوم

على نفقتها ومتابعة أمرها والبحث عما تحتاج إليه، فهي لا تقوم بما يجب عليها نحو طفلها وجنينها إلا بمساعدة الأب، ثم جمع بين الوصية بالشكر لله أولاً والشكر للوالدين ثانياً؛ لأن الله هو الموجد والخالق والمُنعم على هذا الإنسان، ولأن الوالدين هما سبب في وجوده فقدّم حق الله على حق الوالدين، ثم ختم الآية ببيان مرجع الخلق كلهم وأنه إلى الله، وهو خبر لكنه يُفيد التهديد والوعيد، فإن الغاية من البعث والنشور هو الحساب والجزاء للخلق على أعمالهم.

ثم قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾، هذا بيان لحدود الطاعة للوالدين، وأنها لا تلزم الولد إذا كانت تتعارض مع طاعة الله، فلو طلب الوالدان واجتهدا في دعوة الولد إلى الشرك بالله بغير علم، وكل ما يصرف الإنسان عن التوحيد فهو جهلٌ لا حجة فيه، فالواجب عليه أن لا يطيعهما في ذلك، وعليه أن يوحد الله ولا يشرك به، وأن يبر والديه في غير معصية الله، ولا يطع الولد والديه إذا أمراه بالشرك والكفر وترك الصلاة وفعل المحرمات والمنكرات، وعليه أن يحسن عشرتهما، ويحسن إليهما بالمال والخدمة والكلمة الطيبة، وقيّد ذلك بالدنيا؛ لأنها دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء وقيّد هذه المصاحبة بالمعروف، وهو الشيء الذي ليس بمنكر ولا منهي عنه، وتعارف الناس على أنه حسن مقبول، ثم أمر الولد أن يتبع ويطيع الرسل والدعاة إلى الله الذين يدعونه إلى التوحيد والعمل الصالح والتوبة والإنابة إلى الله، ثم بيّن أن الآباء والأبناء جميعاً سيرجعون إلى

الله يوم القيامة، وسيُنبئ كل واحد منهم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شر، ويحاسبهم على ذلك.

ثم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾، **هذه الوصية الثانية من وصايا لقمان لابنه،** وقد كرّر له النداء بالبنوّة، وهو أسلوب تحفيز وتشجيع وعطف وحنان لكي يستجيب، وخص هذه النصيحة بتعظيم الله في نفس الولد، فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد أحاط بكل شيءٍ علماً، وأن الواجب على العبد أن يخاف الله ويعظمه في سره وعلانيته، وهي وسيلة عظيمة من وسائل التربية للناشئة والصغار فلا تمنعهم دائماً عن فعل القبائح بالتخويف من العقاب، بل عظّم الله في نفوسهم؛ ليكون انتهاؤهم عن القبيح تعظيماً لله وحباً له سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، **والضمير في ﴿إِنَّهَآ﴾:** يعود على الخصلة الحسنة أو السيئة التي يفعلها العبد، فهي لا تغيب عن الله ولو كانت صغيرة الحجم بوزن حبة الخردل، وهو نوع من الحبوب يمتاز بصغر حجمه وخفته، فلو كانت هذه الخصلة مخفية في داخل صخرة، وهذه الصخرة كانت في أي مكان في السموات أو في الأرض بحيث لا يطّلع عليها البشر ولا يدري بها أحد، فإن الله يعلم بها ويأتي بها، فهو لطيف في استخراجها خبير بمكانها، ويحاسب صاحبها عليها، وجمع بين اسميه اللطيف، وهو دقيق العلم الذي يُوصِل الشيء إلى صاحبه بلين ورفق، والخبير الذي يعلم جزئيات الأشياء، وهما يدلان على إحاطة علم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالجزئيات والكليات ولطفه في إيصالها الشيء إلى من يستحقه.

ثــم قــال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾، **كانت النصيحة الأولى والثانية في تصحيح العقائد،** وهي أصول الدين، ثم ثنى نصحه بأعمال الجوارح وأعظمها الصلاة، ومعنى إقامة الصلاة تأديتها بكامل شروطها وأركانها وواجباتها، وهي عبادة بدنية تتعلق بحق الله، وأضاف إليها عبادة تتعلق بحق الخلق، وهي عبادة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي عبادة لا تترك لقائم بها صاحبًا، بل تعرضه للإيذاء من أصحاب الشر والفساد، فأمره بالصبر على ما يصيبه من المخالفين له، **وهذه الأعمال الثلاثة:** إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والصبر على الأذى من الأمور الواجب فعلها، فهي عزائم وليست رُخصًا، فشأنها عظيم ومن أعلى الأمور، ويلزم الإنسان أن يقوم بها ولا يتركها، لما لها من الأهمية في حياة الفرد والمجتمع.

ثـم قـال: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾، ثـم انتقل بالنصح من باب العبادات إلى باب الأخلاق والآداب، وهي إصلاح السلوك اليومي للفرد داخل المجتمع، فنهاه عن بعض الأخلاق السيئة، ومنها: التكبر على الخلق، والتصعير من صَعَر البعير إذا أصابه داء فلوى منه عنقه[1]، **أي:** لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقاراً لهم، ولا تُظهر لهم الكِبر والغطرسة عند لقائك بهم، ولا تمشِ بينهم مشية المتكبر، ونصبت مرحًا على

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 198).

الصفة لمفعول مطلق، أي مشياً مرحاً، والمرِح، فرط النشاط من شدة الفرح[1] الذي فيه أشر وبطر، فإن الله تعالى يكره هذه الصفات السيئة، والمختال شديد الخيلاء، وهو من الصفات السيئة للهيئات، والفخور كثير الفخر، وهو من الصفات السيئة للأقوال، وكلاهما لا يُحبهما الله ولا يحب من اتصف بواحدة منهما، وأمره بالتواضع في مشيته، والقصد هو التوسط في كل شيء، وهو في المشيء الاعتدال فيه، فلا يمش مشية المتماوت الضعيف الهزيل، ولا يمش مشية المتبختر المتكبر، وأمره بغض صوته أثناء الكلام، فليس من الأدب رفع الأصوات بدون حاجة مع الخلق عموماً، ومع الله من باب أولى، **فقد سمع الرسول** ﷺ بعض الناس يرفعون أصواتهم بالدعاء، فقال لهم: **"أيها الناس أربِعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً"**[2]، **فالصراخ** ورفع الصوت صفة سيئة، تشبه نهيق الحمير، فلها حظ من النكارة، واختار صوت الحمار لقبحه، فأوله زفير وآخره شهيق، ولأنه ينهق بدون سبب يخصه كتعب ونحوه[3]، وإنما ينهق إذا رأى شيطاناً[4].

هذه هي وصايا لقمان التي ذكرها الله في القرآن، وهي عبارة عن نماذج للوصايا في باب العقائد والعبادات والأخلاق، وهناك وصايا غيرها ذكرت في كتب الوعظ، فقد أوصلها الطاهر ابن عاشور في تفسيره إلى نحو سبعين

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 167).

(2) صحيح البخاري: (4/ 57)، برقم: (2992).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (25/ 123).

(4) ينظر: عمل اليوم والليلة لابن السني: (ص: 272)، برقم: (314).

وصية[1]، وهذه الوصايا منها ما يثبُت ومنها ما لا يثبت؛ لأنها جاءتنا عن طريق روايات بني إسرائيل، ولا يوجد فيها سند متصل حتى نعرف صحتها من ضعفها، ولكنها حكم ونصائح أغلبُها لها دليل من شرعنا.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾، الخطاب لكفار قريش المكذبين بالبعث والنشور، يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، والرؤية هنا قلبية، وتعني التفكر والتأمل في الكون، فقد سخّر الله ما فيه من شمس وقمر ونجوم وأمطار وأشجار ونحوها لخدمتهم ومنفعتهم، وأتم عليهم نعمه وغمرهم بكثرتها، من الثوب السابغ الثوب الذي يُغطي الجسد كله، **وهي نوعان: نعم** حسية ظاهرة تراها العين، **ونعم** معنوية باطنة لا تراها بالعين، **فالحسية** مثل الشمس والقمر والصحة والمال والولد ونعمة الإسلام والإيمان والنطق بالشهادتين، **والمعنوية** مثل اليقين والتوكل وراحة النفس والاطمئنان وغيرها، ثم انتقل من الخطاب المباشر إلى خطاب الغيبة للتنويع، **أي:** ومنكم أيها المشركون مع نعم الله عليه من يكثر الجدال في استحقاق الله للألوهية دون سواه بدون دليل ولا برهان على ذلك، ذكر هذه الثلاثة؛ لأنها مصدر العلم والوصول إلى الحق، وهي علم مبني على الاجتهاد والاستنباط، أو الاتباع لعالمٍ راسخ، أو قراءة ذلك في كتاب واضح ليس في أحكامه غموض ولا خفاء، وقد نفاها كلها عن هؤلاء المشركين المجادلين في صحة شركهم بالله.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (21/ 173).

وقولــه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾، فإذا دعاهم الرسول إلى عبادة الله وحده بالحجة والبرهان، أعرضوا عن ذلك واستمروا في شركهم بالله وعبادة غيره تقليداً لآبائهم وأجدادهم بدون علم ولا حجة ولا برهان على ذلك، والاستفهام تعجبي استنكاري لفظاعته وبطلانه عقلاً، **والمعنى** لو دعا الشيطان آباءكم إلى الشرك الذي يوصلهم إلى عذاب السعير في جهنم، فهل تتبعونهم على ذلك؟!، فأين ذهبت عقولكم؟! وفي هذا ذم للتقليد والمقلدة الذين يسيرون وراء من لا يعلمون ما حجته، فربما يقذف بهم في الهاوية ويوصلهم إلى جهنم وبئس المصير.!

ثــم قــال: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾، لما ذكر حال الجهلة من الذين أشركوا بالله بغير علم وكفروا بالله تقليداً لآبائهم واتباعاً للشيطان، ذكر حال المؤمنين الصادقين المتبعين للحجة والبرهان، وأثنى عليهم بأنهم أقبلوا بقصدهم وتوجههم إلى الله واستسلموا لأمره وخضعوا لعبادته وتوحيده دون سواه، وبلغوا رتبة الإحسان في أعمالهم إتقاناً وإخلاصاً، فمن فعل ذلك فقد تمسّك تمسكاً بليغاً بالعقدة الموثقة التي لا تنقطع، التي من تمسك بها؛ توثق ونجا وسلم من الهلاك، **والمعنى** أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه(1)، وإلى الله مرجع أمور كل الناس ومنتهاها، فيحكم بينهم ويجازيهم بما عملوا.

ثم قال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 347).

بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ لتسليته بسبب كفر قومه به، حيث نهاه عن الحزن والتألم لإعراضهم عن الحق وكثرة جدالهم له، بل اترك أمرهم إلى الله، فإن مرجعهم إليه وسيخبرهم بأعمالهم القبيحة ويُعاقبهم عليها يوم القيامة، فعلمه محيط بكل شيء، حتى إنه يعلم ما في الصدور من الخواطر والوساوس قبل أن تنطق بها اللسان، وأن بقاءهم في الدنيا مع كفرهم إنما هو إمهال لهم زمناً قليلاً يتمتعون بزخارفها ليزدادوا إثماً، ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاقّ على نفوسهم في جهنم؛ لأنهم لا يدخلون النار بأنفسهم، بل بمجرد أن يروا النار يهربون منها، فتأخذهم الملائكة إليها بالقوة وتدفعهم إليها دفعاً، فيسقطون فيها رغماً عن أنوفهم، نسأل الله السلامة والعافية.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- وجوب تعاهد الأبناء بالتربية والنصح والتوجيه فهم أمانة في أعناق الوالدين.

2- بيان أن التربية يجب أن تشمل جميع أحكام الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق.

3- أن النظر والتأمل في نعم الله الظاهرة والباطنة يدفع الإنسان إلى شكر الله عليها.

4- بيان خطر التقليد الأعمى، فإنه يُوقع الإنسان في الهلاك.

5- أهمية الاستسلام والخضوع والإخلاص لله سبحانه في كل الأعمال.

تفسير المقطع الثالث من سورة لقمان

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ
أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ
بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ
مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ
بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم
مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن
وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ
مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾، **الخطاب موجه لرسول الله ﷺ**، والضمير يعود لكفار قريش، فلو سألهم من خالق السموات والأرض، لأجابوا بأن الله هو الخالق لها، فقد كانوا يقرون بذلك، فاحمد الله على ظهور الحجة وسقوط الشبهة، **والمعنى** ما دام أنكم تُقرون أن الله هو الخالق لا سواه؛ فهو المعبود بحقٍ لا سواه، فلماذا تعبدون غيره؟! وفي ذلك إشارة إلى استحباب حمد الله والثناء عليه عند ظهور الحجة وسقوط الشبهة مع أي مخالف لإعادة الفضل إلى الله، فهو الذي أظهر الحق وأزهق الباطل، بل تفيد الإضراب عما سبقها، **أي:** لو كانوا يعلمون عظمة الله وقدرته واستحقاقه للألوهية لما عبدوا الأوثان والأصنام، ولكن جهلهم بالله وقلة علمهم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كانت سبباً في كفرهم وإعراضهم عن الله، وهذه الأكثرية ليست محدودة بزمن، بل هي الغالبة في حياة البشرية حتى اليوم، **كما قال:** ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنعام:116]، فأكثر الخلق يكفرون بالله لجهلهم بعظمته واستحقاقه للألوهية، وفي ذلك إشارة إلى خطورة الجهل وعاقبته الوخيمة، ولا عذر للإنسان أن يجهل ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن أرسل الرسل وأنزل الكتب إليهم وأقام عليهم الحجة.

ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾، فمن خَلَقَ السموات والأرض فهو المالك المتصرف فيهما، وفي هذا إشارة إلى أن معبوداتهم من الأوثان والأصنام هي من ضمن ما في السموات وما في الأرض،

وأن الله مالكها فهي مملوكة له، فيكف تكون آلهة؟! وهو غني عن ملكه وليس بحاجة إليه، وهو حميد في غناه ومحمود بكل لسان في الأمور كلها.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾، هذا افتراضٌ الغرض منه بيان عظمة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للسامعين، **والمعنى** لو قُدِّر أن تتحول جميع أشجار الأرض وتُصنع أغصانها كلها أقلامـًا، ويصبح كل ما في الأرض من ماء وهو يعادل سبعين بالمائة (70٪) من مساحة الأرض يتحول إلى مداد ويضاف إليه ماء سبعة أبحر أخرى ثم يكتب بتلك الأقلام وبهذا المداد كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله؛ لانتهت البحار والأقلام، ولم ينته كلام الله الذي هو علمه[1]؛ لأن المداد والأقلام تتناهى وعلم الله لا يتناهى، إذ هو صفةٌ متعلقة بذاته لا حد له ولا نهاية، والله عزيزٌ في فعله وحكيمٌ في تدبيره وأمره.

ثم قال الله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾، الخطاب للمشركين الذين كانوا يُنكرون البعث والنشور، فأخبرهم أن خلقهم جميعـًا كخلق نفس واحدة، وبعثهم جميعـًا كبعث نفس واحدة، لأنه يقول للشيء كن فيكون، وفي هذا بيانٌ لقدرة الله في الخلق والإيجاد والبعث والحساب، وذيّل الآية باسمين من أسمائه الحسنى، فهو سميع لأقوال الخلق، بصير بأحوالهم، لا يشغله شيءٌ عن شيء، قد أحاط سمعه وبصره بكل شيء.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 122).

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾﴾، **الاستفهام** تقريري لا يحتاج إلى جواب، والرؤية هي العلمية التي تتعلق بتفكر القلب وتأمله في الأشياء، والخطاب يصلح لكل من يرى ويتأمل في قدرة الله، **والإيلاج هو**: الإدخال[1]، **ويتضمن معنيين، الأول**: أن الليل يأخذ من ساعات النهار فتزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار في فصل الشتاء، وأن النهار يأخذ من الليل فتزداد ساعات النهار وتنقص ساعات الليل في فصل الصيف، **والمعنى الثاني للإيلاج**: هو في كيفية خروج الليل ودخول النهار، وخروج النهار ودخول الليل، فإن ذلك يكون بالتدرج، فلا تحس بظلامٍ مفاجئ ولا بنورٍ مفاجئ، وفي هذا بيان لعظمة الله وقدرته وتدبيره في الخلق، والتسخير جعلها تسير في خدمة الخلق ووفقًا لمصالحهم، فكلٌّ من الشمس والقمر وباقي الكواكب والمجرات تدور في أفلاكها وتستمر في السير فيها إلى الأجل المحدد الذي تنتهي فيه حركتها، وهو عند قيام الساعة، وذيّل الآية بما يفيد التهديد والوعيد فلا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق، وسيجازيهم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾، الضمير في ذلك يعود على ما سبق ذكره من التدبير والتقدير في إيلاج الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر وجريانها، والباء يحتمل أن تكون سببية[2]، **والمعنى** من يفعل ذلك ويُتقنه فهو المستحق للعبادة دون سواه، وهو

---

(1) التحرير والتنوير: (21/ 185).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1492).

وحده الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق، وأن عبادتكم لغيره من الأصنام والأوثان باطلة، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلي بذاته وصفاته على خلقه، القاهر فوق عباده، الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وهو الكبير على كل شيء، وكل ما عداه خاضع له.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾، هذا استفهام تقريري آخر لإظهار نعمة أخرى من نعم الله على الخلق، وهي نعمة جريان السفن الكبيرة العملاقة على سطح البحر وهي محملة بالأثقال، بنعمة الله وهي إرسال الرياح التي تحركها، فإن الرياح إذا سكنت لم تتحرك تلك السفن، والخطاب موجّه لمن كان في عهد النبي ﷺ، ولم يكن آنذاك سفن تعمل بالطاقة أو النفط ونحوها، وإنما كانت السفن القديمة كلها تسير بالرياح، وهي أحد ألطافه ونعمه على الخلق، واللام للتعليل، أي لكي تنظروا بعض آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدالة على قدرته وعظمته جَلَّ وَعَلَا، والآية المقصود بها العلامة والحجة التي يستفيد منها من تأملها، فيتعظ منها ويعتبر بها، وصبَّار صيغة مبالغة من الصبر، وشكور صيغة مبالغة من الشكر، وهما صفتان لا بد أن يتصف بهما العبد؛ لأنه يعيش بين نِعم تحتاج منه إلى شكر، ونِقم تحتاج منه إلى صبر.

ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾، الخطاب للكفار،

والظُلل جمع ظُلة، والمقصود بها الأمواج الكبيرة الضخمة التي ترتفع حتى تصير كالسحابة التي تُظل من تحتها، فإذا رأى الكفار الراكبون على الفلك ذلك الموج الكبير فوق رؤوسهم خافوا على أنفسهم الهلاك؛ فأخلصوا في عبادتهم وتوجههم ودعائهم إلى الله وتركوا أوثانهم وأصنامهم وشركائهم، فلما انتهت تلك الأمواج وخرجوا بسلام من البحر إلى البر، انقسموا إلى قسمين، الأول: المقتصد، وهو المتوسط في الجحود والكفر، الذي انزجر بعض الانزجار، وإن كان باقيًا على كفره، والقسم الثاني: وهو كثير الجحود الذي يُنكر قدرة الله وعظمته والبراهين الدالة على وجوده، والختّار بمعنى الغدّار وزنًا ومعنى[1]، وهو كثير الغدر الذي ينقض العهد، والكفور شديد الجحود لنعم الله.

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾، **الخطاب عام** يشمل الناس أجمعين، المؤمنين والكفار، فأمرهم بتقوى الله، فالمؤمن يستمر في تقواه ويبتعد عما يُغضب الله، والكافر يُسلم ويتقي ما يُغضب الله من الكفر والجحود، وأمرهم أن يخافوا يوم القيامة الذي أهواله عظيمه وعذابه شديد، ومن شدة أهواله لا ينفع ولا يشفع والد لولده، وبدأ بالوالد؛ لأن شفقته بابنه أكثر من شفقة الابن بأبيه، ولا ينفع ولا يشفع ولد لوالده، فكل إنسان مشغولٌ بنفسه يبحث عن خلاصه، **كما قال:** ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس:37]، **ونكّر "شيئًا"** ليشمل القليل والكثير،

(1) تفسير الرازي: (25/ 132).

إن وعد الله وهو قيام الساعة والحساب والجزاء حقٌّ ثابت لن يتخلف، وواقع لا محالة، فلا يغرنكم ما في هذه الحياة الدنيا من شهوات وملذات وتشغلكم عن الاستعداد لهذا اليوم العظيم، والتغرير: كثرة الخداع، لأن شهوات الدنيا تخدع الناس وتُلهيهم عن الاشتغال بما ينفعهم من الاستعداد ليوم القيامة، والغرور: هو الشيطان، لأن من شأنه أن يغر الخلق، ويمنيهم بالأماني الباطلة، ويلهيهم عن الآخرة، ويصدهم عن طريق الحق[1]، ويلحق به النفس الأمارة بالسوء التي تزين لصاحبها الباطل والشهوات وتشغله عن الطاعات والقربات.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾، **وفي الحديث: "مفاتيح الغيب خمسة"**[2]، ثم تلى هذه الآية، **والمقصود بمفاتيح الغيب** الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، **فالأول:** علم مجيء الساعة، فعلمه محصور بالله لا يعلمه أحد غيره، **والثاني:** علم موعد نزول الغيث، وعبّر بالمضارع الذي يُفيد الاستمرار، فكل غيث ينزل فهو الذي يعلم موعده وكميته ومكانه وزمانه وإلى أين يسوقه على وجه الدقة، **والثالث:** علم ما في الأرحام، فيشمل رحم كل أنثى من جميع الحيوانات، والمقصود ما فيها من الأجنة من ذكور أو إناث على سبيل التفصيل والدقة، **والرابع:** علم ما تفعله وتكسبه كل

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 282).

(2) صحيح البخاري: (4/ 1733)، برقم: (4420).

نفس في المستقبل من خير أو شر، **والخامس:** علم المكان الذي تموت فيه كل نفس، فقد يختار العبد المكان الذي يعيش فيه، ولكنه لا يعرف المكان الذي سيموت فيه، فإن الله إذا أراد أن يقبض نفساً في مكانٍ ساقها إليه لسبب أو لآخر، وذيّل الآية بوصف نفسه بأنه عليم، وهي صيغة مبالغة من العلم، وخبير، وهي صيغة مبالغة من الخبرة، فهو سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال الكون كله، كبيرها وصغيرها، فهو عليم خبير بدقائق الأشياء وعظيمها، فعمم علمه بجميع الأشياء بعد تخصيص علمه بمفاتيح الغيب.

وقد يقول قائل: إذا كانت هذه مفاتيح علم الغيب التي لا يعلمها إلا الله، فقد اكتُشف حديثاً أن الأطباء يستطيعون معرفة نوع الجنين وهو في بطن أمه، وأن أجهزة الأرصاد والفَلَك يستطيعون الآن تحديد مواعيد نزول المطر؟! والجواب: أن هذه المعرفة معرفة عامة وليست دقيقة، فهم يعلمون علماً إجمالياً نوع الجنين بعد مرور فترة من الحمل، أما قبلها فلا يستطيعون معرفة نوعه، أما الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فعلمه شامل لما في الأرحام من أول لحظة، وأما إخبارهم بنزول المطر فيكون على سبيل التوقع من خلال دراسة مجموعة من ملابسات حركة الرياح وتجمعاتها وعلم الفلك وما يتعلق به من سنن كونية، وليس على وجه الدقة والتحديد للزمن والمكان والكميات ونحوها التي هي علم خاص بالله سبحانه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان سعة علم الله وكلماته، وأنها لا تنتهي.

2- بيان أن من علامات قدرته وآياته جَلَّ وَعَلَا في الخلق؛ تقلب أحوال الليل والنهار، وتسيير الشمس والقمر فيما ينفع الخلق.

3- بيان فضيلة الصبر، وفضيلة الشكر، فإنهما عبادتان عظيمتان، فالصبر يكون على النقم، والشكر يكون على النعم، ومن تعبّد لله بهاتين العبادتين فهو من عباد الله الصالحين.

4- بيان خطورة الاغترار بالدنيا والاستسلام للشيطان وخطواته، فإنهما يشغلان العبد عن الاستعداد ليوم القيامة.

5- بيان إحاطة علم الله سبحانه، وأن مفاتيح الغيب الخمسة بيد الله، لا يعلمها نبيٌ مرسل، ولا ملك مُقرب.

تفسير سورة السجدة

تفسير المقطع الأول من سورة السجدة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ
بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي
يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ
مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ
وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾.

شخصية السورة:

سورة السجدة[1]؛ سورةٌ مكية[2]، **ومقصدها الأعظم** بيان حقيقة الخلق وأحوال الناس في الدنيا والآخرة، **وقد ورد في فضائلها**: "أن النبي ﷺ كان يقرأ

---

(1) ينظر: روح المعاني، للألوسي: (11/ 113).

(2) ينظر: روح المعاني، للألوسي: (11/ 113).

بها في صلاة فجر يوم الجمعة"، والحديث في الصحيحين[1]، **وفي مسند أحمد**[2] من حديث جابر: "أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ بها وبسورة الملك"، والحديث وإن كان في سنده ضعف، ولكنه بمجموع طرقه يرتقي للاستدلال به.

وهذه السورة ابتدأت بالأحرف المقطعة، ﴿الٓمٓ ۝١﴾، **فألف** حرف، **ولام** حرف، **وميم** حرف، **واختلف المفسرون في تفسيرها، والراجح** أنها من أحرف الهجاء التي تتكوّن منها لغة العرب، وأن ذكرها في بداية بعض السور لبيان معجزة القرآن[3]، **والمعنى** أن هذه أحرف اللغة التي تتكلمون قد نزل بهذه الأحرف القرآن الكريم، فصار معجزاً بلفظه ومعانيه، وقد تحداهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يأتوا بجزءٍ من سورة أو بجزءٍ من آية مثله، فلم يفعلوا، فدل ذلك على الإعجاز، **والقرينة الواردة على ترجيح هذا المعنى**: أن جُلّ أو أغلب السور التي افتتحت بحروف الهجاء جاء بعدها ذكرُ القرآن، **كما قال هنا**: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، **والمقصود** بالكتاب هنا القرآن الكريم، **وفي سورة البقرة**: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة:1-2]، **وفي سورة طه**: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[طه:1-2]، وهكذا، ولو تتبعت الحروف الهجائية التي ابتدأت بها السور؛ لوجدت أن ما جاء بعدها إنما هو حديثٌ عن القرآن، فهذه قرينة لترجيح هذا القول في معنى الأحرف المقطعة.

---

(1) رواه البخاري: (2/ 5) برقم: (891)، ومسلم: (2/ 599) برقم: (880).

(2) رواه أحمد: (23/ 26) برقم: (14659).

(3) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي: (1/ 25).

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ذَكَرَ هنا التنزيل بصيغة المضارع، وأضاف التنزيل إلى الكتاب، وأتى بالألف واللام التي تدل على التعريف، والتعريف هنا يُعطي الكتاب مكانةً وكأنه صار معروفًا من كثرة ما قيل حوله من خلاف، وكلمة التنزيل تدل على أن القرآن ليس من كلام محمد، بل هو مُبلّغ للقرآن، وأن القرآن نزل على قلبه، **كما في قوله:** ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[الشعراء:193-195].

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، **أي:** لا شك فيه، فلا شك في صدق هذا الكتاب، وأنه من عند الله، ولا شك في صدق أحكامه التي احتوى عليها، ولا في صدق أخباره التي ذكرها، ولا في شيءٍ مما احتواه.

ثم قال: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، **والمعنى** تنزيلُ الكتاب من رب العالمين، **وكلمة:** ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، **قال بعض المفسرين:** جملة اعتراضية(1) لبيان مكانة القرآن، وأنه لا شك فيه ولا ريب، بل هو كله حق وصدق، وأضاف الرب إلى العالمين هنا ليُشعر الخلق أنه مربوبهم وأنه هو الذي خلقهم ورباهم، وأن من رحمته بهم بعد خلقهم وتربيتهم أنه لم يتركهم سدىً ولا هملاً، بل أنزل إليهم هذا الكتاب الذي فيه هدايتهم، ودلّهم فيه على الحق والصواب حتى لا يقعوا في الضلال والانحراف.

وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، جمع عالَم، وهو كل ما خلق الله.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21/ 205).

ثم قال سبحانه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، في البداية حدثنا عن القرآن أنه تنزيلٌ وأنه لا ريب فيه، هذا هو الواقع وهذه هي الحقيقة، ثم ذكر لنا بعد إخباره عن هذه الحقيقة، ما يدعيه الكافرون من المشركين عن القرآن، حيث ادعوا أن محمداً ﷺ افتراه، **أي:** اخترعه واختلقه من عند نفسه، وتقوّله على الله، و﴿أَمۡ﴾؛ هذه تُسمى بأم المنقطعة التي **بمعنى:** بل، والتي تُفيد الإضراب من جهة، وتفيد التعجب للسامع من جهة أخرى لبطلان ما تحويه من قول، والقائلون هذا القول هم كفار قريش الذين كان القرآن ينزل فيهم.

ثم جاء الإضراب الثاني صريحًا في قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، **يعني:** ليس الأمر كما تقولون، والضمير عائد إلى القرآن، والحق جاء معرّفًا بالألف واللام التي تفيد التعريف وتفيد الاستغراق ليشمل كل حق، **والمعنى** أن القرآن كله حق لا مِرية فيه.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، الخطاب موجهٌ لمحمدٍ ﷺ، وإضافة الرب إلى كاف الخطاب للنبي ﷺ، تدل على عناية الله به، وأنه ما كان ليُنزل هذا القرآن على شخصٍ يفتري عليه، فهو من حيث الدلالة يُفيد تكذيبهم، ومن جهة أخرى يدل على تزكية محمد ﷺ، وأنه ليس بكاذبٍ ولا مفتر.

ثم بيّن العلة من هذا الإنزال للقرآن؛ فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾، **اللام** للتعليل، **يعني:** الهدف من إنزال القرآن هو الإنذار وهو التخويف، **أي:** لتُخوِّف به وبما جاء به ﴿قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾، **والمقصود بالقوم هنا قيل:** قريش(1)، **وقيل:** العرب كلهم(2)، **والراجح** أن

(1) ينظر: جامع البيان، للطبري: (20/ 164).

(2) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (4/ 357).

المقصود به العرب كلهم، ليشمل عرب الجزيرة كلها، فإن العرب لم يكن قد أُرسل فيهم رسولٌ منذ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي سكن في بلادهم، وتزوّج منهم وتعلّم لغتهم وكان رسولاً نبياً، لكن رسالته لم تكن عامة لكل العرب، بل كانت لأهله الموجودين حوله، فإذاً من إسماعيل إلى بعثة محمد ﷺ لم يُبعث في جنس العرب رسول ولا جاءهم من نذير، **كما قال:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة:2]، فهكذا كان حال العرب، فقد كانوا في جاهلية جهلاء، بدون رسل ولا أنبياء ولا كتب، وكانوا على الشرك وعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلم يكن عندهم الهداية إلى الحق، **ولذا قال:** ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾، بهذا النذير، والمقصود بالهداية هنا الإرشاد والدلالة والبيان، وهو أحد أنواع الهداية المرتبطة بالرسل والدعاة والمرشدين.

والنوع الثاني: هداية التوفيق، وهذه بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **كما قال:** ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:272]، وحتى يفهم السامع كلام الله؛ فلا بد أن يجمع النصوص الواردة في كل مسألة، ثم ينظر في معناها، لأن بعض الناس بسبب قلة علمه يظن التعارض في بعض الآيات، **فيقول هنا:** كيف نسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهداية إلى النبي ﷺ ثم نفاها عنه؟! **والجواب:** هذا الإشكال يُحَلّ بأن **يقال:** إن الهداية نوعان: هداية الدلالة والإرشاد؛ وهذه ممكنة للبشر ومن ضمنهم الأنبياء والدعاة، وهي المثبتة لهم في بعض الآيات، وهداية التوفيق؛ وهي خاصة بالله، ولا يملكها البشر، وهي المنفية عنهم في بعض الآيات، وبهذا يزول الإشكال.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، هذا حديثٌ عن أفعال الله سبحانه، وقدرته، والهدف من هذا البيان المتضمن أن هذا الكون الذي خلقه الله ودبره وأوجده وهو المتصرف فيه وحده دون شريك له، فيلزم منه أن يكون هو الإله المعبود، وحده لا شريك له، وهذا الذي يُسميه العلماء بالاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فالخالق المبدع الرازق المتصرف، هو المستحق وحده دون سواه للعبادة.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، **يعني:** السموات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما وما داخلهما من الخلق.

وقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، **أي** خلقهما في ظرف زمني مقداره ستة أيام، مع أنه قادر على أن يخلقهما في لحظة، ولكن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أراد بذلك أن يُعلّمنا سنّة التدرج، ويبيّن لنا أهمية عنصر الزمان في كل عمل، فلا نستعجل الأمور، بل نأخذ بسنّة التدرج في كل قضية.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، **ثم:** حرف عطف يدل على التراخي، **فالاستواء** على العرش كان بعد خلق السموات والأرض، **واستوى بمعنى:** علا، فالله تعالى في جهة العلو، وهو علوٌ يليق بجلاله، لا يجوز للإنسان أن يسأل عن كيفيته، ولا أن يتخيله بعقله، فإن معرفة كنهه لا يمكن أن يصل إليه المتخيلون، **وحق المسلم أن يقول في ذلك:** آمنا بما جاء عن الله ورسوله من أسماء الله وصفاته على ما أراد الله ورسوله من دون تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم

ولا تمثيل، فلا نشبهها بخلقه أو ننفيها عنه، كما فعلت بعض الفرق[1]، **بل نقول:** استوى استواءً يليق بجلاله، وهكذا نقول في باقي الصفات، والعرش هو القُبة التي فوق السموات، وهو أعظم المخلوقات.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾، هذا خطاب لمن يعبدون غيره، فليس لهم غير الله من ولي ولا شفيع، **والمقصود بالولاية هنا** الحب والنصرة، فإن هذا مقتضى معنى الولي، **والشفيع** هو الوسيط الذي يشفع عند غيره، **بمعنى:** لو أراد الله أن يُعذبكم لن تجدوا من ينصركم، ولن تجدوا من يشفع لكم عنده، وهو نوع من التهديد والوعيد لهؤلاء الكفار.

وختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، **التذكّر هنا** بمعنى التفكر، فمن تفكر فسيوصله تفكيرُه إلى التذكر، وهو الاتعاظ، والمعنى هنا: هلا تتّعظون أن لا إله إلا الله، وأن لا معبود بحقٍ إلا الله، وأن محمداً ﷺ رسول الله، وبإعمال الفكر؛ يصل العبد إلى الهداية، سواءً كان ذلك التفكر في آيات الله الكونية التي من ضمنها السموات والأرض والعرش وغيرها، فهذا الكون هو الكتاب المفتوح الذي تقرأه بفكرك، أو كان ذلك التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم المكتوبة، ففيها ما يُوصل ويدل على التوحيد والإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم وصف نفسه بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، **التدبير في اللغة:**

---

(1) كالمعتزلة، والجهمية، ومتأخري الأشاعرة، والماتريدية، ينظر: الزناد شرح لمعة الاعتقاد، علي الخضير: (42).

التفكر[1] في الأمر حتى تُنجزه بإتقان، أو التفكر في طريقة إنجاز الشيء حتى تُنجزه بإتقان، **وبالنسبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فمعناه**: ينجز الأمرَ مُتقناً بدقة تامة كاملة، **والأمر في مدلولات الوحي يأتي على معنيين: إما الأمر الشرعي، وإما الأمر الكوني، فالأمر الشرعي هو**: ما يأمر به الله تعالى خلقه من التكاليف والأحكام الشرعية من حلال أو حرام ونحوها[2]. **والأمر الكوني**: هو مقتضى فعل الله المطلق[3] الذي: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:82]، فتسيير الفلك وخلق السموات ونزول الأمطار وغيرها من الأفعال التي تقع في هذا الكون؛ هذه كلها داخلة تحت الأمر الكوني.

وأي الأمرين قَصَدَ هنا؟! هناك قولان للمفسرين[4]: فبعضهم قال: الشرعي، **وبعضهم قال**: الكوني. ولا مانع أن يكون المقصود هنا الأمرين معاً: الشرعي والكوني[5]، فهو يُدبر الأمر الشرعي فيُرسل الرسل ويُنزل الكتب ويُحل الحلال ويُحرم الحرام، وهو الذي يقول للشيء في هذا الكون كن؛ فيكون، والأمر الشرعي والكوني كلاهما ينزل من السماء، أي من جهة العلو أي من قِبل الله، وهذا يدل على

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21/ 212)، وفي تاج العروس، للزبيدي: (11/ 266).

(2) ينظر: التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، عبد الرحمن آل سعدي: (65).

(3) ينظر: المرجع السابق: (65).

(4) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 86).

(5) ينظر: تفسير السعدي: (653).

أن الله في جهة العلو، خلافًا لمن ينفي ذلك من بعض الفرق[1].

ثم قال: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، الضمير يعود على الأمر، **فإن قلنا** الأمر الشرعي، **فالمعنى:** يعرج إليه أعمال العباد، كما قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:10]، فيعرُج إليه أخبارهم، **مثلاً:** هذا كَفَرَ، وهذا أَسلَمَ، هذا عصى، وهذا أطاع، إلخ..، فكل الأمر يرجع إليه ويعرج إليه، وتعرُج به الملائكة إلى الله كل يوم، أو كان الأمر الكوني، **فالمعنى:** تعرُج الملائكة إليه بما حصل في الأرض، مثلاً: بموت فلان، ومرض فلان، ووقع زلزال هنا، وحصل خيرٌ هنا...إلخ، فالأمر كله يصعد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **فالعروج** هو الصعود.

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، هنا كلامٌ محذوف، وتقديره: يعرُج إليه في لحظة، لو قيست هذه اللحظة على ما تفعلونه بطبيعتكم أيها البشر لساوت ألف سنة من حسابكم، فيكون المعنى على هذا التصور أن الأمر يعرج إليه في لحظة، ولكن في حسابكم، أيها البشر؛ يعادل ألف سنة مما تعدونه من السنين، وهذا يدل على أن السنة المقصود بها في هذه الآية سنوات الناس المستخدمة التي هي اثنا عشر شهراً، وتحتوي على ثلاثمائة وستين يومًا، واليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، كما هو متعارف عليه عند الناس اليوم.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦﴾، ذلك اسم إشارة مضاف إليه اللام التي تُفيد البعد، وإضافة اللام إلى ذلك يأتي على

(1) ينظر: التمسك بالسنن والتحذير من البدع، شمس الدين الذهبي: (104).

صورتين: **صورة** التعظيم والتبجيل، **وصورة** التحقير والتبعيد، فهنا لا شك أنها من الأول، لأنه عائدٌ إلى لفظ الجلالة الله الخالق المدبر، **فاللام هنا** تفيد علو المكانة، وتعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم وصف نفسه، بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، **الشهادة:** ما تشاهده المخلوقات وتحسه، والغيب ما غاب عنهم، سواءً كان غيباً مُطلقاً لا يعلمه أحد، مثل علم الساعة، ومثل ما يتعلق بذات الله ونحوه، أو كان علماً غيبياً جزئياً، وهو الذي يعلمه بعض الخلق ويخفى على آخرين، فالله تعالى عالم الغيب كله، وعالم الشهادة كلها، وهذا يدل على سعة وإحاطة علم الله بالخلق.

ثم وصف نفسه بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والمعتاد في نصوص كثيرة من القرآن أن يقول: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، إلا أنه قال هنا: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فما هو سر الجمع بين هذين الاسمين.

العزيز: من العزة وهي القوة، وأنه لا يحتاج إلى أحد، فهو الذي كل شيء في هذا الكون بقوته وعزته وقدرته، وفيه إشارة لما سبق في الآية السابقة من خلق السموات والأرض والتدبير وإنزال الأمر، هذا كله يظهر فيه معنى القوة والعزة.

والرحيم: فيه إشارة إلى ما سيأتي ذكره في الآية التي تليها، **وهي قوله:** ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فخلْقُك أيها الإنسان فيه معنى الرحمة، فجعلك إنساناً لطيفاً، وأحسن خلقك، وصوّرك فأحسن صورتك، وأودع فيك جزءاً من

رحمته، **وفي الحديث: "إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق مائة جزء من الرحمة، فأنزل واحدة منها ليتراحم بها الخلق، وترك تسعةً وتسعين إلى يوم القيامة"**[1]، وهذه تسمى الرحمة المخلوقة وليست الرحمة التي هي صفة ذاتية لله سبحانه، فأثر رحمته ظاهر في خلق الناس، فجمع بينهما ليشمل عزته وقدرته في خلق الكون، وتشمل أثر رحمته في خلق الإنسان بطريقة فيها معنى اللطف والرحمة ونحو ذلك.

وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾، هذا وصف مطلق في كل المخلوقات، فما من خلقٍ خلقه الله تعالى إلا وهو في صورةٍ حسنة، وكل خلقٍ صورتُه الحسنة وفقًا لطبيعته ولما يحتاجُه، فالسموات حسنة بحسب طبيعتها، والأرض حسنةٌ بحسب طبيعتها، وهكذا باقي المخلوقات، فالله خلق كل شيءٍ خلقًا حسنًا، **والإحسان يأتي في لغة العرب على مدلولين**[2]: **الأول:** أحسن بمعنى أتقن، **والثاني:** أحسن بمعنى أوصل الخير إلى الناس، فأحسن هنا، بمعنى أتقن كل شيءٍ خلقَه، **يعني:** خلْق الله مُتقن في كل شيءٍ خلقه، في السماء، في الأرض، في الحيوانات، في سائر المخلوقات، ومنه الإحسان في العبادة. **والمعنى الثاني في قوله:** ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[القصص:77] **أي:** أوصل الخير إلى الناس كما أوصله الله إليك.

ثم قال: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾، مع أنه قد ذكر إحسان الخلق مطلقًا، والإنسان أحد مخلوقاته، فقد أحسن خلقه من ضمن المخلوقات، لكنه

---

(1) رواه البخاري: (8/ 99) برقم: (6469)، ومسلم: (4/ 2108) برقم: (2752).

(2) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: (13/ 117).

نص هنا على خلق الإنسان ليظهر مكانته وفضله وتكريمه على باقي المخلوقات في هذا الكون، **كما قال:** ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء:70]، **والألف واللام** هنا للتعريف والمقصود به هنا آدم؛ لأنه هو الذي خُلق من طين فقط، وخُلقت حواء منه.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾، ثم هذه أيضـًا للعطف المتراخي، فإن آدم خُلق وبعد فترة صار عنده ما يتناسل منه، وهم ذريته، وسُمي نسلاً؛ لأنه ينفصل عن الأصل، ويخرج منه، **كما في قوله:** ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس:51]، **أي:** يخرجون من قبورهم، وحفظ النسل إحدى الكليات الخمس من كليات الشريعة.

وقوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾، **والمقصود بالسلالة هنا:** النطفة، وسُميت نطفة المني سلالة؛ لأنها تُستل من الرجل **أي:** تخرج منه، و(مِن)، في **معناها قولان**[1]: **قيل:** إنها بيانية، **وقيل:** إنها تبعيضية، وهو الراجح؛ لأن العلم الحديث أثبت أن النطفة من المني التي تتدفق من الإنسان عند التقائه بالمرأة تخرج منها ملايين الحيوانات المنوية، والذي يصل إلى البويضة ليلقحها بعضها فقط، وهي في الغالب الحيوانات المنوية القوية.

ثم وصفها بقوله: ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾، **أي:** مُبتذل ومهان لا يُلتفت إليه، وفي هذا اللفظ إشعار للإنسان المعرض المتكبر بأصله!!.

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21/ 216).

وقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾، **أي:** أكمل خلق جسده، فالنطفة إذا وصلت إلى البويضة واستقرت في الرحم يجري تعديلُها على المراحل والأطوار من علقة إلى مضغة، ثم خلق العظام وكسوتها باللحم حتى يكتمل خلق الجسد.

ثم قال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، **أي:** يرسل الله الملك فيأمره أن ينفخ فيه الروح، والروح هذه نسْمَة عُلوية لا يعلم كنهها إلا الله وحده.

كما قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:85]، وهي التي يتم بها الحياة، فيتحول هذا الجسد من مضغة لحم ودم إلى إنسان يتحرك ويتكلم وينمو، فاجتمع فيه أصلان: جسد يُغذى مما أخرجته الأرض، وروح تغذى بالوحي.!!

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾، هذا أسلوب من أساليب الامتنان، فالله يمتن على خلقه بهذه النعم التي صيرها لهم، وتحول الخطاب من الغيبة إلى الحاضر حتى يستشعر السامع أنه المخاطب بها، والسمع معروف والبصر معروف، والأفئدة المقصود بها: القلوب والعقول، وهي وسائل أو أدوات المعرفة، فإذا استخدمتها الإنسان استخداماً صحيحاً أوصلته إلى العلم المطلق، ومنه العلم بالله، والقليل من الناس من يشكرون الله على هذه النعم، **كما قال:** ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[سبأ:13]، أو قليلٌ شكركُم لله، في مقابل تلك النعم الكثيرة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الراجح في معنى الأحرف المقطعة التي ابتدأت فيها بعض السور؛ أنها من أحرف الهجاء التي تتكوّن منها لغة العرب، وأن ذكرها في بداية بعض السور لبيان معجزة القرآن.

2- بإعمال الفكر والتدبر؛ يصل العبد إلى الهداية، سواءً كان ذلك التفكر في آيات الله الكونية التي من ضمنها السموات والأرض والعرش وغيرها، أو في آيات الله الشرعية المنزلة في القرآن الكريم.

3- أن **أدوات المعرفة: هي** السمع والبصر والفؤاد، فإذا استخدمها الإنسان استخداماً صحيحاً أوصلته إلى العلم المطلق، ومنه العلم بالله.

تفسير المقطع الثاني من سورة السجدة

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ
كَٰفِرُونَ ١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١ وَلَوۡ
تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا
نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ
مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ
يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا
يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم
بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، **الواو** استئنافية، **والقول هنا**

محكيٌّ عن الكفار، **والمقصود بهم** كفار مكة الذين كانوا ينكرون البعث والنشور، حيث قالوا هذا القول لنبينا محمد ﷺ أو لمن كان يُجادلهم في إثبات البعث والنشور، **والمقصود بقولهم**: ضللنا، **أي**: ذهبت أجسادُنا في التراب، وتفرقت، تمزقت، وأكلتها الدود، وأصبحت غير معروفة.

وقوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، هذا سؤال استبعاد، **والمعنى** فكيف يمكن أن نرجع من جديد ونصير أحياءً، وهل سيخلقنا الله خلقًا جديداً مكتمل الخلقة، كما كنا في الدنيا، وهي حكاية لإنكارهم البعث وتكذيبهم بالنشور، ولم يُجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم؛ لأن الجواب واضح في أذهان العُقلاء، فإن الذي أنشأ الخلق من العدم قادرٌ على أن يُعيدهم مرة أخرى، والإعادة كما هو معروف أهون وأسهل من الإيجاد.

ولكنه أضرب عن كلامهم هذا وعن شبهتهم، فقال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾، **بل**: للإضراب، **والمعنى** كلامكم غير صحيح، فالذي دفعكم إلى التكذيب ليس لأن العقول تُنكر قدرة الله على البعث والنشور، بل من عنده عقل سليم سيعلم أن الله قادر على ذلك، ولكن السبب الرئيس في إنكاركم هو الكفر والجحود الذي جعلكم لا تُعْمِلُون عقولكم في الوصول إلى معرفة الحق، وتلقّيتم هذا الكفر عن آبائكم تقليداً لهم، وفي إضافة اللقاء إلى ربهم، تبكيت لهم، فكيف تكفرون بالله وهو الذي خلقكم وأوجدكم ورباكم ثم نسيتم هذا كله، وكفرتم بالله وجحدتم لقاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!!.

ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾،

هذا الكلام **يقول علماء البلاغة**[1]: إنه عبارة عن تهيئة للجواب الحقيقي الذي هو في ختام الآية، وهو قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾، فالمرجع إلى الله، ولكنه ذكر كيف يتم الموت ومن يقوم به ومن وُكِّل به، وهذا رد على كلامهم السابق المعروف في عقائدهم، **كما قال عنهم**: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾[المؤمنون:37]، فنسبوا الموت والحياة إلى أنفسهم، وكأنهم هم الذين يختارون الحياة وهم الذين يختارون الموت، فبيّن الله لهم في هذه الآية أن الذي يحييهم هو الله، وأن الذي يُميتهم هو الله، وأن الله قد وكّل بإماتتهم ملك الموت، فهو الذي يقبض الأرواح، ولم يأتِ دليلٌ صحيح على تسمية ملَك الموت بعزرائيل، وإنما هذا الاسم مشهور في الإسرائيليات، وذُكر هنا ملَكُ الموت على الانفراد، بمعنى أنه هو القائد للمجموعة الذين حوله.

وقد ورد في آيات أخرى بالجمع، كما في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:61]، **وفي قوله**: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:93]، **والمعنى** أن هناك مجموعة من الملائكة يُساعدونه في قبض الأرواح، كما ثبت في حديث البراء بن عازبٍ، الطويل في وصف نزع الروح[2]، **وفيه**: أن ملك الموت ينزل وتنزل معه ملائكة الرحمة في نزع روح المؤمن، وتنزل معه ملائكة العذاب في نزع روح الكافر أو الفاجر، وبهذا تُجمع بين النصوص.

---

(1) ينظر: الصناعتين، لأبي هلال العسكري: (431).

(2) رواه أحمد، قرطبة: (4/ 295) برقم: (18637)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز: ص59.

وقولـه: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، **أي:** وكّلـه الله وأمـره وأعطـاه قـدرة علـى قـبض أرواح النـاس مـع اخـتلاف أسـباب الـوفـاة، واخـتلاف أمـاكن الأجـساد، وكثـرة الأعداد التي تُقبض في اللحظة الواحدة على مستوى العالم، وذهـب بعـض أهـل العلم: إلى أن أرواح كل المخلوقات مُوكّل بها الملائكة[1]، مثل أرواح الطيـور وأرواح الحيوانـات وكـل مـا فيـه نفـس حيـة فإنهـا تُقـبض مثـل مـا يُقـبض روح الإنسان، ولكن الإنسان كرّمه الله حيًا وميتـًا؛ فجُعـل لـه طريقـة معينـة في الغـسل والصلاة والدفن ونحوها.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾، ثم حرف عطف يفيـد التراخـي، وفي هذا إشارة إلى حياة البرزخ، وهي الفترة التي يعيشها من تُـوفي ودُفـن في الـبرزخ حتــى يُـنفخ في الــصور النفخــة الثانيــة، فيبعــث الله الجميــع ويرجعــون إليــه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ثـم قـال الله سـبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾، **الخطـاب مُوجّه إلى نبينـا محمـد** ﷺ عنـد نـزول القـرآن عليـه، ولكنـه بعـد النـزول أصبح صالحـًا لكل من يقرأ الآية، **أي:** لو رأيـت حـال المجـرمين حينمـا يُبعثـون بـين يـدي الله، وهم خافضون لرؤوسهم مع الذلة، وهو فعل المذنب الخجلان حين يُقابـل الله بعد أن أنكر قدرته، وكفر به واستعمل نعمه في معصيته، فقـد خفـضوا رؤوسـهم ذلـةً وخضوعـًا وخوفـًا وخجلاً من تكذيبِهم، ولا ينفعهم ذلـك اليـوم، ولـو فعلـوا جـزءاً مـن هـذا الخجـل في الـدنيا لـنفعهم، ولـو مـن أدوات الـشرط، وحـذف الجـواب

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 93).

للتهويل والتعظيم، **وتقديره هنا:** لرأيت مطلعـًا وهولاً عظيمـًا، والمجرمون هنا هو وصفٌ لمن سبق ذكرُه، وهم الكفار الذين أنكروا البعث والنشور.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، **أي:** بين يدي ملك الملوك سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وسلطانه العظيم، وهذا يزيدهم ذلةً وخوفًا، وكرّر كلمة الرب مع الكفار لتذكيرهم بما يجب عليهم نحوه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولما نكسوا رؤوسهم اعترفوا، ولكن الاعتراف في هذا الوقت لا ينفع صاحبه، **فقالوا:** ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾، أبصرنا النار التي كنا ننكر، وأبصرنا البعث والحشر الذي كنا ننكر، وأبصرنا الوقوف بين يدي الله الذي كنا ننكر، وسمعنا ما يدل على ذلك كله، فرأوا الحقائق التي كانوا ينكرونها بعيونهم وسمعوها بآذانهم يوم القيامة، **فما المطلوب؟! قالوا:** ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾، **أي:** أرجعنا إلى الدنيا من أجل أن نعمل صالحًا، فنؤمن بك ونتبع رسلك، هذا إقرار منهم واعتراف بأنهم كانوا على عمل غير صالح، **ثم أكدوا بقولهم:** ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾، فقد وصلوا لما بُعثوا بين يدي الله إلى حالة اليقين بأحقية ألوهية الله وربوبيته بعد أن كانوا في حالة الشك المطلق منها في الدنيا.!!

ثم قال الله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾، **يقول بعض المفسرين:** إن هذه الآية كلها جاءت كجملة اعتراضية قبل الجواب على سؤال المشركين[1]، وأتى بها هنا ليُبيّن حكمة الله من الأمر والنهي، وحكمة الابتلاء بالتكليف، ولو أراد الله أن يجعل الأنفس كلها على الهدى والإيمان؛ لجعل ذلك مشيئة كونية،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: (21/ 222).

وفطرهم على الإيمان والهدى، كما فطر الملائكة، ولكن مشيئته وإرادتُه اقتضت أن يبتلي الخلق بالتكاليف، فخلق جنةً ولها أهل، وخلق ناراً ولها أهل، فأهل الجنة من وُفقوا للإيمان والعمل الصالح، وأهل النار من لم يُوفقوا، وهم الذين حق عليهم القول، **أي**: سبق عليهم القول في علم الله الأزلي أنهم سيكونون من أهل النار، وهذا ليس فيه حجة لمن يقول إنه مجبور على الكفر أو المعصية؛ لأن الله لم يُخبر بهذا العلم أحداً من الخلق، بل كتبه في اللوح المحفوظ، وطلب من الناس أن يعملوا الخير وأن يتركوا الشر، وبيّن لهم الطريقين، **كما قال**: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾[البلد:10]، والمكلف هو من يختار الطريق.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾، ولكن سبق القول في علم الله أنه سيكون هناك مكذبون من الجن والإنس، لأنهما هما الصنفان المكلفان بالأمر والنهي، وسيكون مصيرهم إلى النار، فأتي بهذه الآية كجملة اعتراضية لبيان حكمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من الابتلاء للخلق بالتكاليف.

ثم جاء الجواب على طلبهم: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾، **فقال لهم**: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾، **أي**: لا رجعة إلى الدنيا، وإنما اذهبوا إلى النار؛ لتطعموا عذابها، وعبَّر هنا بالذوق مع أنه من أفعال اللسان؛ للتهكم، **والمعنى** لتذوق أجسادُكم ألم العذاب مثل ما يذوق اللسان طعم السكر أو الملح، وحذف المفعول به لتهويله، والباء هنا للسببية، **أي**: بسبب نسيانكم لقاء الله؛ حصل لكم ذلك العذاب، **والمقصود بالنسيان هنا**: ليس هو النسيان المعروف عند الناس، فلو كان

هو لكان معفياً عنه، **كما في الحديث: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه الله"**[1]**، ولكن المقصود به هنا** الإهمال المتعمد، والإعراض المتعمد عن الإيمان والطاعة، نسي بمعنى: أهمل، وترك، وأعرض.

وقوله: ﴿يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾، نسب اليوم إليهم مع أنه ليس خاصاً بهم، من باب تعظيمه في نفوسهم، وجاء باسم الإشارة هذا ليُذكرهم أنهم كانوا يُنكرونه في الدنيا، وأصبح حقيقة تراه أعينُهم.

ثم قال: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾، فهذا هو العقاب الأول لكم، النسيان مقابل النسيان، فالجزاء من جنس العمل، فلما أعرضتم؛ أعرض الله عنكم، وترككم وأهملكم، كما تركتم وأهملتم أمره في الدنيا.

ثم قال: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وهذا هو العقاب الثاني لكم، دخولكم النار وتعذيبكم فيها، ووُصف العذاب بالخلد لأنهم سيُخلّدون فيها ولن يخرجون منها.

ثم قال: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾، **الباء هنا** سببية، حيث عاقبكم بذوق عذاب الخلد بسبب ما عملتم من الكفر والقبائح.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥﴾، فهذا الوصف محصور ومقصور على من

(1) رواه ابن حبان، كما في الإحسان: (16/ 202) برقم: (7219)، والطبراني في المعجم الكبير: (9/ 340) برقم: (1110)، والبيهقي في السنن الصغرى: (3/ 301) برقم: (2586)، وصححه الألباني في الإرواء: (1/ 123).

هذه صفته، وهم المؤمنون حقًا بالآيات سواءً كانت الآيات القرآنية أو الآيات الكونية، وكلاهما آيات عظيمة تدعوا إلى الإيمان بالله الخالق الرازق المستحق وحده للعبادة جَلَّ وَعَلَا، **والتذكير هنا بمعنى**: الوعظ، **أي**: إذا وُعظوا بها، سواءً كان الوعظ بالآيات القرآنية التي تتلى، أو كان الوعظ بالتفكر العقلي والتأمل الفكري للإنسان في ملكوت الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا رأى شيئًا عجيبًا من مخلوقات الله تعالى خضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾، هذا بيان لثمرة الخضوع لله من هذا المخلوق، فإنه يخرّ، **والخرور معناه** النزول من أعلى إلى أسفل، **كما قال**: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾[النحل:26]، فالعبد يكون واقفًا فينزل ساجداً بين يدي الله، والسجود هو لصق الجبهة والأنف مع باقي أعضاء السجود وتمكينها من الأرض، **كما في الحديث**: **"أُمرتُ أن أسجد على سبعة أعظم، وأشار إلى الجبهة والأنف ثم ذكر اليدين والركبتين وأطراف القدمين"**(1)، **والسجود هو** الهيئة التي تدل على كمال خضوع العبد واستسلامه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالأنف والجبهة هما عنوان العزة، وسُمّي أنفًا من الأَنَفة، فكان السجود على الأنف والجبهة عنوان الخضوع والاستسلام.

وقوله: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، **الواو** عاطفة، **يعني**: ليس سجوداً فقط للأعضاء والجسم، بل أيضًا سجوداً للقلب واللسان، فإذا سجدوا سبّحوا الله ونزهوه عن

---

(1) رواه البخاري: (1/ 162) برقم: (812)، ومسلم: (1/ 354) برقم: (490)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النقائص، **والباء هنا** للملابسة، **يعني**: جمعوا بين التسبيح والتحميد.

ثم قال: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، فذكر هنا العلة التي يمتنع بها من لم يسجد، وهي الكبر، فإبليس منعه الكِبر من السجود، وكذلك الكافر منعه الكِبر من السجود، أما من سجد وخضع لله؛ فقد ذهب منه الكبر.!!

ثم ذكر لهم صفةً أخرى، فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾، **تتجافى** بمعنى تتباعد، **والمضاجع** الفُرُش كما في قوله: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء:34]، **أي**: في الفُرش وفي مكان النوم، **والمعنى** أن جنوبهم تبتعد عن الفُرش، فلا يقطع الليل كله في النوم، وإنما يقوم عدة مرات من فراشه للصلاة بين يدي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد وردت روايات كثيرة عن الصحابة تفسّر زمن ذلك، **فقيل**: إنها الصلاة بين المغرب والعشاء[1]، **وقيل**: إنها صلاة العشاء نفسها[2]، **وقيل**: إنها صلاة المغرب نفسها[3]، ولكن قد جاء في حديث معاذ بيان ذلك بأنها صلاة الليل، قال: "قلت يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟!! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ النار الماء، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم قرأ

(1) ينظر: جامع البيان، للطبري: (20/ 178).

(2) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (4/ 362).

(3) ينظر: جامع البيان، للطبري: (20/ 179).

عليه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾"[1]، فهذا تفسير للآية من النبي ﷺ، **وأن المقصود بها** قيام الليل؛ وقد وردت فيه فضائل كثيرة، فهؤلاء كانوا يقومون الليل ولا ينامونه، **كما قال:** ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[الذاريات:17].

ثم قال: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾، فهم إذا قاموا بين يدي الله كان حالهم حال الخائف الطامع، ولا شك أن حبهم لله دفعهم إلى تعظيمه والوقوف بين يديه، وتلك هي أصول العبادة، **وهي:** كمال الحب، وكمال الخوف، وكمال الرجاء، وبها جميعاً يجب أن يتعبد الإنسان لربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فلا تعبد الله بالخوف فقط؛ فتكون من الخوارج، ولا تعبد الله بالرجاء فقط؛ فتكون من المرجئة، ولا تكن من الزنادقة الذين يدّعون أنهم يعبدون الله عشقاً وحباً وغراماً!!، بل نعبد الله محبةً، وخوفاً، ورجاءً، وهذه هي صفة عبادة الرسل والأنبياء عليهم السلام، وهم أكمل الناس عبادة لله!!

ثم وصفهم بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾، فعباداتُهم متنوعة ما بين سجودٍ وخُضوع وقيام الليل وهذه عبادات بدنية، وتعظيم لله في القلب محبةً وإجلالاً، وجمعهم بين الخوف منه والرجاء فيما عنده، وهذه عبادات قلبية، ثم ذكر نفقاتهم من رزق الله، وهذه من العبادات المالية، وتنوع عبادة العبد دليل على كمال صلاح كل جوارحه، لأنه يمكن أن تكون عابداً لله بقلبك ولسانك وببدنك ولكنك بخيل في باب المال والنفقة، لأن النفقة عبادة مالية، تُخرج

(1) رواه الترمذي: (5/ 11) برقم: (2616)، وابن ماجة: (5/ 116) برقم: (3973)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

الشح والطمع من نفسك، فتتصدق وتُعطي وأنت تعتقد أن الله سيُخلف عليك، كما قال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ:39]، وتعتقد أنك تُعطي من مال الله إلى خلق الله، وأن العوض من الله، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة:245].

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، لفظ عام يشمل كل نعم الله التي رزقها العبد، فليس الرزق محصوراً على المال فقط، صحيح أن المال أعظم أنواع الرزق، ولكن هناك رزقٌ من نوع آخر، فالوجاهة رزق، فأنفق من وجاهتك، واشفع للناس، وفي الحديث: "اشفعوا تُؤجروا"(1)، والعلم رزق، فأنفق من علمك، وعلّم الناس، وبلّغ عن النبي ﷺ آيةً أو حديثًا، أو أي علّمٍ مما تعلمت، والصحة رزق، فأنفقها في طاعة الله، وهكذا...!

ثم قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، فهؤلاء القوم وعدهم الله الجنة، وهي مما تقر به العين إذا رأتها، ولكنه هنا لم يُصرّح باسمها، وإنما ذكرها بوصفها وأخفى الاسم تشويقًا إليها، وتعظيمًا لما فيها، فلا يعلم شخص من هؤلاء الذين سبقت صفاتهم بالجزاء المخفي له عند الله، ولن يراه إلا إذا مات ودخل الجنة، وقد جاءنا في القرآن الكريم وصفًا تفصيليًا للجنة، ومع هذا الوصف التفصيلي؛ إلا أنه لم يُحاط بكل ما في الجنة، وفي الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر

(1) رواه البخاري: (2/ 113) برقم: (1432)، ومسلم: (4/ 2026) برقم: (2627)، عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على قلب بشر"[1].

وقولـه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، البـاء هنـا سـببية، أي: بـسبب أعمـالهم الصالحة، ومنها ما سبق من وصفهم به، فأعطاهم الله هذا النعيم جزاءً لهم.

ثم قال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾، سبق أن ذكر لنا حال أهل النار ومصيرهم، وذكر لنا صفات أهل الجنة وجزاءهم، ومن خلال المقارنة بين الحالين يتضح لنا الفرق بينهما وأنهما لا يستويان في المصير والجزاء، فلا يستوي حال المؤمن في الدنيا في راحته وسعادته وانشراح صدره وإيمانه، ولا حاله في القبر ولا حاله في الجنة بحال الكافر الذي يعيش في الدنيا في ضنك وقلق واضطراب، وفي البرزخ في عذاب وتعب، وفي المحشر في فزع وخوف، وفي النار في عذاب وسعير، نسأل الله السلامة والعافية.

المقصود بالفاسق هنا هو الكافر؛ لأن الفسق على نوعين: فسق أصغر، هذا ممكن أن يقع فيه بعض المؤمنين، وفسق أكبر وهو الكفر المخرج من الملة، ثم بيّن جزاء كل فريق، فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩﴾، فجزاء المؤمنين الصالحين الجنة التي سبق بيانُها إجمالاً، وسماها: جنة المأوى، لأن المؤمنين يأوون إليها، أي: يسكنون فيها، وتكون منزلاً لهم، وهذا الجزاء لهم كان بسبب أعمالهم الصالحة.

---

(1) رواه البخاري: (4/ 118) برقم: (3244)، ومسلم: (4/ 2174) برقم: (2824)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، **والمقصود بالفسق هنا**، الفسق الأكبر؛ لأن النار لا يخلُد فيها إلا الكافر، أما العاصي الذي عمل بعض الفسوق والعصيان، ولم يتب منها فلا يخلد في النار.

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، إرادة الخروج منها موجودة من أول يوم، ولكن لا يحصل لهم ذلك، ومن صور الإرادة عندهم أنهم يشعرون أنهم إذا ماتت أجسامُهم وجلودهم من شدة العذاب؛ ظنوا أن بموتهم ينتهي العذاب عنهم، وكأنهم خرجوا من النار، ولكن ذلك لا يحصل لهم، **بل قال الله:** ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[النساء: 56]، فهذه صورة من صور الإعادة، **وقيل:** أنهم كلما رفعتهم النار إلى أعلى، فكروا أنهم سيخرجون، فتُعيدهم إلى أسفل[1]، فيبقون بين صعود ونزول.

وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ويُقال لهم من باب التبكيت **والتقريع:** ذوقوا عذاب النار، لأن **العذاب في الآخرة، نوعان: عذاب حسي** يصيب الأجساد بالحريق والسعير، **وعذاب معنوي**، وهو ما يسمعُه أهلُ النار من تقريع الله والملائكة لهم بالكلام الذي يُوجعهم من الناحية النفسية، ومنه هذا القول، فالإنسان لو أصيب بمصيبة، وجاءه شخص، **وقال له:** ذُق العذاب، لازداد ألماً وتعباً، وهو في هذه اللحظة أحوج ما يكون إلى أن يقال له كلمة طيبة تُهيء نفسه للصبر، فأهل النار -بجوار العذاب الأليم الذي يحصل لهم- يُقال لهم: كلمات التبكيت والتقريع مزيداً في العذاب النفسي لهم.

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 107).

وقوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾، تذكيرٌ لهم بفعلهم في الدنيا، فقد كانوا لا يُؤمنون بالآخرة ولا بالبعث ولا بالنار، وقد أصبحت الآن حقيقة، فذوقوا عذابها.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- يحصل اليقين للكفار بما كانوا ينكرونه من أمور في الدنيا؛ حين يبُعثون بين يدي الله ويشاهدونها حقيقة، بعد أن كانوا في حالة الشك المطلق منها في الدنيا.!!

2- أن السجود لله هو الهيئة التي تدل على كمال خضوع العبد واستسلامه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

3- أن العذاب في الآخرة، نوعان: عذاب حسي يصيب الأجساد بالحريق والسعير، وعذاب معنوي، وهو ما يسمعُه أهلُ النار من تقريع الله والملائكة لهم بالكلام الذي يُوجعهم من الناحية النفسية.

تفسير المقطع الثالث من سورة السجدة

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾، **الخطاب هنا** موجه للكفار عمومًا، ومن ضمنهم كفار قريش الذين كذّبوا برسالة محمد ﷺ، فقد هددهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوعّدهم بأنه سيُذيقُهم من العذاب الأدنى، والمقصود به هنا عذاب الدنيا، **وقد اختلف**

المفسرون في نوع هذا العذاب، هل هو القحط والسنون[1]، **أم** المصائب والابتلاءات[2]، **أم** الهزيمة والقتل الذي حصل لهم في بدر[3]، **أم** غير ذلك؟ والراجح أنه عام، فيشمل كل أنواع العذاب التي أصابت الكفار في الدنيا، من مصائب، وابتلاءات وحروب، وزلازل، ومِحن، وقتلٍ، وجوعٍ، وغير ذلك، **وقيل:** إن المقصود بالعذاب الأدنى هنا عذاب القبر[4]، لكن هذا القول ضعيف، ويرده السياق، **في قوله:** ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لأنه لا رجعة بعد الموت إلى الدنيا، **وفي قوله:** ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، **المقصود بالعذاب الأكبر هو** عذاب النار في الآخرة، **ودون لها تفسيران، الأول:** بمعنى غير، **والثاني:** بمعنى أقل، وكِلا المعنيين يصلُح هنا، فعذاب الآخرة غير عذاب الدنيا، وعذاب الدنيا أقل في الرتبة من عذاب الآخرة.

ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا تعليل لإصابة الكفار بشيء من العذاب في الدنيا، فالهدف والحكمة منه لعلهم يرجعون إلى الحق، فيؤمنوا، ويعرفوا الصواب ويهتدوا إليه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، **أي:** لا أحد أشد ظلماً من الذي وعظ بآيات الله فكذب بها أو ردها، و(مَن) هنا ليس

(1) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (4/ 363).

(2) ينظر: جامع البيان، للطبري: (20/ 188).

(3) ينظر: جامع البيان للطبري: (20/ 190).

(4) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (4/ 364).

المقصود بها سؤال الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب، وإنما المقصود بها سؤال استنكاري تعجبي استغرابي، فيستغرب ويتعجب ممن هذا حاله، والآيات هنا إما أن تكون الآيات الشرعية أنزلها الله في القرآن الكريم، أو في كتب الله عمومـًا، أو الآيات الكونية، أو هما معـًا، وهذا أبلغ، فإن الإنسان قد يتّعظ بالآيات الكونية أكثر مما يتّعظ بالآيات الشرعية؛ لأن الآيات الكونية يُشاهدها ويراها ويحسها كل الناس، بينما الآيات الشرعية لا يفهمها ولا يعيها إلا من وفّقه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لفهمها، وأضاف الآيات إلى الرب؛ لأن معنى الرب فيه معنى الرعاية والعناية بهذا العبد، **والمعنى** هذه آيات ربك الذي أوجدك ورباك.

وفي ذلك تحفيز لشعور العبد نحو خالقه ومولاه، وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾، بـ(ثم)، **وفي قوله:** ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾[الكهف:57] بـ(فاء التعقيب)، فما الفرق بين هذه وتلك؟ الجواب: هذا إخبار عن حال الناس وموقفهم مع الآيات، فبعض الناس يُعرض عن الآية بمجرد سماعها، وبعض الناس يمكن أن يستمع ويُفكر ثم بعد التفكير بوقت يُعرض، وكِلا الأمرين دليل على قلة الفقه، ذاك أعرض بدون تدبُّر وذاك أعرض بعد التأمل، والنتيجة واحدة وهي عدم الاستجابة للآيات.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾، هذا الأسلوب خبري لكنه يُفيد التهديد، **والمعنى** إن هذا الذي ظلم نفسه بتكذيبه بآيات الله وإعراضه عنها، لن يُترك بدون عقوبة، فهو مجرم ولا بد أن يعاقِبه الله وينتقم منه، **وفي قوله:** ﴿إِنَّا﴾، المقصود بها هنا نون العظمة، فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إذا حدّث عن نفسه

قد يُحدّث بالإفراد وقد يُحدّث بالجمع، فهنا الجمع للتعظيم، فهو إلهٌ واحد لا شريك له، **وفي قوله:** ﴿مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وصفٌ يُبيّن سبب الانتقام منهم، وهذا يدلنا على أن صفة الانتقام لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ليست مطلقة، وإنما هي من الصفات المقيدة، أو التي يُسمونها صفة المقابلة، مثل: المكر والخِداع والاستهزاء، فالله لا يُوصف مطلقاً بها بل تقيّد بمن يستحق ذلك، وهذه مثلها فلا يُسمى الله بالمنتقم؛ لأن المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى، ولكن إن قلته من باب الإخبار؛ فيجوز، لأن باب الإخبار يجوز فيه ما لا يجوز في باب التسمية، والصواب أن يطلق هذا الوصف عليه مقيداً فيقال: المنتقم من المجرمين، بمعنى أن صفة الانتقام مرتبطة بالمجرمين، كما يقال: أنه يمكر بمن يستحق المكر، ويخدع من يستحق الخديعة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، **الواو هنا** إما استئنافية أو عاطفة، **فإذا قلنا:** عاطفة، فعلى ما سبق من إعراض كفار قريش عن الإيمان وتكذيبهم بالرسول ﷺ، **وإن قلنا:** استئنافية، فمعناها ذكر قصة جديدة، وموسى هو ابن عمران عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وهو نبيٌ أُرسل في بني إسرائيل، والمقصود بالكتاب هنا التوراة.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، **والخطاب فيها لمحمد** ﷺ، **والمِرية:** الشك، **وقد ذكر المفسرون عدة أقوال في عودة الضمير، الأول:** أنه يعود إلى موسى، **والمعنى** فلا تكن يا محمد في شكٍ من لقاء موسى، وهذه بشارة لمحمد ﷺ، وقد لقيه في ليلة الإسراء والمعراج، وجرى بينهم الحديث

والحوار بخصوص تخفيف الصلاة، كما هو مشهور في حديث الإسراء والمعراج[1]، ورجّح هذا القول ابن جرير[2].

والقول الثاني: أنه يعود إلى الله، **أي**: فلا تكن في شك من لقائه في الآخرة، وضعّف هذا القول ابن عطية[3]، وعلى هذا المعنى يكون قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، جملة معترضة، **والمعنى** فلا تكن يا محمد في شك من لقاء الله، وجاءت على سبيل الوعظ والإرشاد للنبي ﷺ، ولأمته، وهذا يأتي كثيراً في القرآن، وليس لأن محمداً ﷺ في شك، وإنما من باب التوكيد والتعليم لأمته، أن لا تشك في لقاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وهو الوقوف بين يديه.

والقول الثالث: أنه يعود على الكتاب[4]، **أي**: فلا تكن في شك من لقاء الكتاب، والمقصود أثره، فالرسول إذا أُعطي الكتاب كان ذلك عنوانًا للرسالة والبعثة، ثم حصول المشقة له في تبليغه والأذية من المخالفين له، **والمعنى** فلا تكن في شك مما قد سيصيبُك بعد إنزال الكتاب عليك من مشقة التبليغ وأذية المخالفين من قومك.

والقول الرابع: أن الضمير يعود إلى ما لاقاه موسى من أذيةٍ من قومه،

---

(1) رواه البخاري برقم: (3239)، (4/ 116)، ومسلم برقم: (165)، (1/ 151)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(2) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري: (20/ 193-194).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (4/ 364).

(4) ينظر: المصدر السابق.

والمعنى فلا تكن في شكٍ مما لاقى موسى من قومه من أذية، فإنك ستحصل على مثلها من قومك، ورجح هذا القول ابن عاشور[1]، فهذه أربعة معانٍ في عودة الضمير، وهذا يدل على سعة لغة العرب، ويدل على مكانة العلماء وتبحرهم في فهمها، حتى تنتبه اليوم إلى البضاعة المزجاة لأولئك القوم الذين يُفسرون القرآن وهم جهلة بلغة العرب، ولا يعرفون شيئًا من بلاغة القرآن، ولا يعرفون أصول النحو ولا قواعد الإعراب، ولا مفردات المعاجم والاشتقاق، فإذا بهذا المفسّر يناقض كلامه بعضُه بعضاً ويضرب بعضه بعضاً، ويظهر القرآن على أنه مختلف ومتناقض!!، وليس كتاب هداية وإعجاز وبيان للأمة!!، فانتبهوا يا طلبة العلم!! وتعلّموا أصول التفسير وقواعده، وتعلّموا لغة العرب وبلاغتها، فإن الله أنزل القرآن بلغة العرب.!!

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾، الضمير يعود إما إلى موسى، **أي:** وجعلنا موسى هاديًا لبني إسرائيل، وإما إلى الكتاب وهو التوراة، **أي:** وجعلنا التوراة هادية لبني إسرائيل، وكلا المعنيين صحيح، **فإن قلت:** الكتاب؛ فالمبلّغ له موسى، فالهداية تكون بموسى عن طريق الكتاب، **وإن قلت:** موسى؛ فموسى سيهدي بني إسرائيل بما أوحي إليه من الكتاب، واللام لام الاختصاص، فموسى أو التوراة خاصة بهداية بني إسرائيل، بينما جعل اللهُ القرآنَ ومحمداً هدىً للناس أجمعين، ورحمة للعالمين، وبنو إسرائيل هم: أولاد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن تناسل منهم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (21/ 235-236).

ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾، **أي:** وصيّرنا من بني إسرائيل رؤساء يُقتدى بهم في الخير، ومِن هنا تبعيضية، بدليل أنه يوجد من بني إسرائيل من ليسوا أئمة في الخير، بل هم أئمة في الشر.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾، **أي:** يعملون بشريعتنا، ويدعون إليها، ويقتدي بهم غيرهم في ذلك، لأن الإمام لا يُسمى إماماً إلا إذا اقتدى به غيره، **والمقصود بالأمر هنا** الأمر الشرعي الذي أنزله الله في الوحي، وهو فعل الطاعات وترك المحرمات.

وقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾، **(لـمّا):** بالتخفيف والتشديد، **قراءتان، أي:** حينما تحقق صبرُهم، فربط بلوغهم إلى رتبة الإمامة **بشرطين:** بحصول الصبر واليقين منهم، والصبر يشمل جميع أنواع الصبر.

وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾، أتى بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار، فاليقين أمرٌ لا بد منه في كل لحظة، وهو من أعمال القلوب، وأطلق لفظ الصبر؛ ليشمل أنواع الصبر الواجبة الثلاثة، **وهي:** الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على الابتلاء، وأطلق لفظ اليقين؛ ليشمل كل أنواعه: اليقين بالله وبكتابه وبرسله وباليوم الآخر، واليقين بوعده ووعيده، ونحوها.

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾، السياق يتحدث عن بني إسرائيل، وفيهم المؤمنون الصالحون، وفيهم الكافرون المجرمون، وقد حصل بينهم اختلاف في أمور الدين، وماتوا

وهم على هذا الاختلاف، **فأجّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** الفصل بينهم إلى يوم القيامة، **والمقصود بالفصل هنا** ليس مجرد الحكم بأن يُقال: هذا مؤمن وهذا كافر، فقد قيل هذا في الدنيا، وإنما المقصود يجازي الكافر على كفره في جهنم، ويجازي المؤمن على إيمانه في الجنة، وبيّن أن يوم الفصل الكامل الحقيقي المنتهي الذي لا مراجعة فيه ولا استئناف سيكون في يوم القيامة.

وقوله: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، **أي:** في الأمر الشرعي والأفعال الاختيارية التي يفعلها العبد فيما يتعلق بالدين، وليس الاختلاف الكوني الذي جبلوا عليه ولا اختيار لهم فيه كاللون والجنس واللسان ونحوه، فهذا من آيات الله في الخلق، **كما قال:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[الروم:22]، فهذا اختلاف مشروع لتنوع الحياة.!!

فائدة: ما الحكمة من ذكر قصة موسى وقومه في وسط حديثه عن المكذبين لمحمد ﷺ من أهل مكة؟!

الجواب: والله أعلم، أن الله تعالى أراد أن يُسلّي محمداً ﷺ فيما يحصل له من تكذيب وأذية من قومه، **وكأنه يقول له:** لست أول من كُذّب، ولست أول من أُوذي، فقد حصل لموسى التكذيب والأذية، ووُجد من قومه من كان إماماً في الحق صابراً عليه، وسيكون من أمتك أيضاً أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، فهذه سنة الله تعالى في الذين خلوا من قبلك من الرسل، فلا تحزن ولا تيأس ولا تبتئس، وهذا فيه تسلية وتصبير للنبي ﷺ، خاصة أن السورة مكية، وكان المؤمنون في مرحلة استضعاف وأذية، فاحتاجوا إلى التصبير بمثل هذه الآيات.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾، عاد الخطاب مرة أخرى لكفار قريش، **والمعنى** أَوَلم يتبيّن لهم من خلال الواقع والأخبار، كم هي الأمم التي أهلكها الله قبلهم؟!!، **(كم) هنا** تعجبية للتكثير، فالأمم المكذبة لرسلها التي أهلكها الله قبل بعثة محمد ﷺ كثيرة جداً، والقرون جمع قرن، وهو الطبقة من الناس الذين يعيشون في زمن واحد[1]، **كما قال** ﷺ: **"خير القرون قرني"**[2]، **أي:** الذين عاشوا معي، وهم الصحابة، **"ثم الذين يلونهم"**، وهم التابعون، **"ثم الذين يلونهم"**، وهم أتباع التابعين، **وذهب أهل الحساب من أهل اللغة** إلى أن القرن مائة سنة[3]، وهذا الذي مشى عليه أهل الاصطلاح، فيُقال الآن: نحن في القرن الخامس عشر الهجري، يعني: قد مرّ ألف وأربعمائة وأربع وأربعون سنة، فالقرن الخامس عشر قد مرّ منه أربع وأربعون سنة، **لكن القرن المقصود به هنا** هو الأمة التي تعيش مع بعض.

ثم قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾، **يعني:** أن الكفار المخاطبين يمرّون في رحلاتهم إلى اليمن وإلى الشام على قرى عاد وقرى ثمود وقرى قوم لوط؛ فيرون بقايا مساكنهم التي بقيت بعد هلاك أجسادهم بالعذاب، **وهذا مثل قوله:** ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[الحجر:79]، **أي:** إن هذه المساكن في طريق واضح لكم في ذهابكم وعودتكم.

---

(1) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: (13/ 334).

(2) رواه البخاري: (5/ 2) برقم: (3650)، ومسلم: (4/ 1963) برقم: (2533).

(3) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: (13/ 334).

ثـــم قـــال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾، **أي:** في هلاكهـــم، وفي سماعكم لأخبارهم وقصصهم آية، أفلا تسمعون سماع اتعاظ وتذكر، وإنما عقّب هنا بالسمع، لأنهم لم يُشاهدوا بأعينهم هلاك الأمم، وإنما شاهدوا المساكن، أما هلاك الأمم فسمعوها عن طريق الأخبار، فكل أمة تروي هلاك من سبقها، ثم جاء القرآن فأسمعهم أخبارهم كاملة.

ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾، **الرؤية هنا** بصرية أم قلبية؟ **يمكن أن تكون** بصرية لبعض الناس، **ويمكن أن تكون** قلبية للبعض الآخر، فمن يُشاهد السحاب ونزول المطر ونبات الأرض، فهذه رؤية بصرية، ومن لا يُشاهد ذلك وإنما يعلم ذلك من خلال السماع والأدلة، فهذه رؤية قلبية، والسَّوق هو الزجرُ من الخلف، فتسوق الجمل **أي:** تزجره من خلفه، وهذا يعني أن الملائكة الموكلة بالسحب التي تحتوي على الماء، تزجرها من الخلف، فتنطلق من مكان إلى مكان، هذا إن كانت في السماء، أما إن كان الماء في الأرض؛ **فالمقصود** بسوق الماء؛ جعله يجري من مكان إلى آخر كما في الأنهار والعيون، **والأرض الجُرُز هي:** الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، فإذا ساق الله إليها الماء، أو أنزل إليها المطر نبت بهذا الماء الزرع.

وقوله: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾، **بيّن** أن الزرع الذي يُنبَت يستفيدُ منه صنفان: الإنسان، والحيوان، فما كان فيه ثمر وحبوب فيأكله الإنسان، وما لا يستطيع الإنسان أن يأكله أو لا يوجد فيه ثمر، فهو طعام للأنعام، وقدّم الأنعام على الإنسان هنا، لأن سياق الحديث هنا عن إنبات الأرض بالمطر، وأكثر

الزرع الذي ينبت منه يكون طعاماً للأنعام، **وأخّر ذكر الأنعام في قوله:** ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[النازعات:33]، لأن السياق هنا عن بيان نعم الله على الإنسان.

وقوله: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾، عقّب هنا بحاسة البصر؛ لأن إنبات الزرع وظهور الثمرة تراها العيون، فالعبرة بالبصر، **والمقصود هنا:** بصر اتعاظ وتذكر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾، **أي:** يقول مشركو مكة لمحمد: أنت قلت: إن بيننا وبينك معركة، وإن العذاب سينزل بنا، وإنك ستنتصر علينا، فمتى يكون ذلك؟! يسألون على سبيل الاستبعاد والاستنكار، **كما في قوله:** ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[المعارج:1] وهذا يدل على خفة عقولهم.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨﴾، الخطاب لمحمد ومن معه من المؤمنين، لأن النبي ﷺ أخبرهم أن من لم يُؤمن سيُعذب وسيُعاقب، وقال لهم أصحابه ممن آمن به مثل ذلك، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن لا يُجيبهم على سؤالهم هذا، لأنه سؤال استخفاف، وسؤال من قومٍ لا يفقهون، بل أمره أن يُجيبهم إجابة الحكيم، وهو أن ينقل السائل من السؤال الخطأ إلى السؤال الصحيح، أو يُعطيهم إجابة سؤال صحيح مُفترض، **فقال له:** ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾، يوم الفتح ليس هو الوقت الذي ينزل فيه عذابُكم، سواءً كان عذاب الأسْرِ أو القتل أو القحط أو غيرها من العقوبات الدنيوية، بل يوم الفتح الحقيقي، هو يوم القيامة، وليس ما تستعجلونه من العذاب الدنيوي، فالصحيح أن تسألوني عن يوم القيامة وما ينجيكم من العذاب فيه، فهو يوم الفتح الحقيقي لأن الفوز فيه لا خسارة بعده، **كما قال:** ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[آل عمران:185]، ولذلك من الخطأ في التفسير: أن يُفسّر يوم الفتح بأنه فتح مكة، **كما ذهب إليه به بعض المفسرين**(1)، بحجة أن الفتح الثاني هو الفتح الأول بدليل إعادته معرفًا، ولكن السياق لا يستقيم مع هذا التفسير، **والصواب** أن يُقال هذا من أسلوب الحكيم: فالفتح الذي سألتم عنه ليس جوابه مناسب لكم، وأن الفتح الحقيقي بيننا وبينكم سيأتي يوم القيامة بدليل ما بعده، **وهو قوله**: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾، وهذا لا يكون إلا حينما تقوم الساعة، **ولو قلنا** إن المقصود بهذا الفتح فتح مكة: لكان التفسير باطلاً؛ لأن مكة فتحت، وآمن آلاف الناس، وقُبل منهم الإيمان.

وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾، **أي**: ولا هم يُمهلون.

ثم أمر الله نبيه ﷺ في آخر هذه السورة أن يُعرض عن هؤلاء الكفار كثيري الجدال والخصومة، فلا فائدة من مجادلتهم، فلا تضيّع وقتك معهم، ولا تتعب نفسك بهم، وأعرض عنهم بمعنى أهملهم، وليس معنى ذلك ألا تدعوهم، أو لا تبلغهم الدعوة، فالنبي ﷺ مع هذه الآيات التي فيها إعراض عنهم، كان بين الحين والآخر يعرض عليهم الدعوة.

وقوله: ﴿وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾، **أي**: انتظر إيمانهم وهداية الله لهم، أو ما يفعل الله بهم، كما حصل لهم في فتح مكة، وهم منتظرون مثلك ما يفعل الله بك، ولكن شتان بين انتظار الشفيق الذي ينتظر إيمانهم وهدايتهم، وبين انتظارهم، فقد كانوا ينتظرون هلاكه أو موته، فشتان بين نوعي الانتظار:

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 111).

الداعية ينتظر من المجرم أن يُسلم، والمجرم ينتظر من الداعية أن يهلك ويبتعد من طريقه ليستمر في كفره وإعراضه، فشتان بين انتظار هؤلاء وانتظار هؤلاء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن صفة الانتقام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست مطلقة، وإنما هي من الصفات المقيّدة، أو التي تسمى بصفة المقابلة، مثل: المكر والخِداع والاستهزاء، فالله لا يُوصف بها مطلقًا، بل تقيّد بمن يستحق ذلك.

2- أن الإمامة في الدين لا تنال إلا بشرطين: الصبر واليقين.

3- أن يوم الفتح الحقيقي؛ هو يوم القيامة، وليس ما يستعجل به الكفار من العذاب الدنيوي، لأن الفوز فيه لا تعقبه خسارة..

تفسير جزء الأحزاب

(22)

تفسير سورة الأحزاب

تفسير المقطع الأول من سورة الأحزاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢
وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا
جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم
بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ
ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ
فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ
بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي
كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ
كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ
وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ
ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾.

شخصية السورة:

سورة الأحزاب؛ سورة مدنية(1)، نزلت بعد الهجرة في المدينة، **والمقصد العام للسورة، هو:** بيان مكانة النبي ﷺ عند ربه، وعناية الله به، وحماية جنابه وأهل بيته، فقد ناداه الله في هذه السورة خمس مرات بلفظ: (يا أيها النبي)، **ومعلوم** أن من تكريم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسوله ﷺ أنه ما ناداه في القرآن باسمه مُجرداً، وسُميت بسورة الأحزاب لحديثِها عن الأحزاب، وهم مجموعة من القبائل الذين تجمعوا لغزو المدينة فيما يُسمى بغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب.

وافتُتحت بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾، نادى الله رسوله ﷺ هنا بصفة النبوة، وفي موضع آخر بصفة الرسالة، **كما في قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[المائدة:67]، فجمع له بين الوصفين تشريفاً له، والخطاب بالوصف دون الاسم يدل على التكريم والتشريف له، وأمره في هذا النداء بالاستمرار على التقوى والازدياد منها، وفيه إشارة إلى أهمية الوصية بالتقوى لعموم الخلق، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر رسوله بالتقوى وهو إمام المتقين؛ فمن باب أولى أن يؤمر بها غيره من الخلق، فلا تأخذك العزة بالإثم حينما تُنصح ويُقال لك: اتق الله!، فتشعر بأنه قد اعتُديَ على جَنابك وأُخطئَ في حقك!!، **كما قال الله:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[البقرة:206]، فهذا الشخص الذي يدور حول ذاته، ولا يقبل النصح

---

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 375).

والتوجيه، فلا يلزم أن يُقال لك: اتق الله، أنك لست من المتقين، بل المقصود: استمر على التقوى واحرص عليها حتى لا تنقص، وقد كان النبي ﷺ أكمل الخلق في التقوى، وقد أخبر عن نفسه بذلك رداً على من ظن أن عباداته قليلة، فقال: **"أما إني أتقاكم له وأخشاكم له"**[1]، فهذا محمد ﷺ أكثر الناس تقوى، ومع ذلك يأمره الله بالتقوى، فكيف بحالنا نحن؟!، ثم نهاه عن طاعة المنافقين والكافرين، فلا يقبل كلامهم ولا يسير في طريقهم، ولا يخضع لخططهم، فأصناف الناس في المدينة كانوا ثلاثة: مؤمن صادق في إيمانه ظاهراً وباطناً، وكافر ظاهرٌ كفره، ومنافق يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، **فنهاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أن يُطيع الصنف الثاني والثالث، وأطلق الطاعة ولم يقيدها بشيء؛ لتشمل كل شيء، وإن كان الأصل أنها في جوانب الدين والإيمان وأمور الآخرة، ولكن أيضاً حتى في أمور الدنيا يمكن أن يستغني عنهم لفساد دنياهم وفساد أخلاقِهم، فقد يدسّون السم في العسل، فكن على حذر منهم، وأمره أن يشاور المؤمنين الصادقين، وطاعة المنافقين والكفار والسير في طريقهم من أخطر ما أصيبت به أمة الإسلام اليوم، والمنافقون هم العلمانيون المارقون من الدين، العُملاء لليهود والنصارى والكفار باطناً، الذين يعيشون مع المسلمين ظاهراً، فقد أفسدت المسلمين ديناً ودنيا، ولو تتبعنا مصائب المسلمين اليوم لوجدناها نتيجة وثمرة لطاعة الكافرين وطاعة المنافقين، **فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قد نهى رسوله ﷺ، وهو المؤيد بالوحي عن أن يُطيع هؤلاء، فكيف بحالنا؟! وكان

(1) صحيح مسلم: (2/ 779) برقم: (1108).

النهي بالوصف ليشمل الخطاب كل كافر ومنافق في كل زمان ومكان، فكل من اتصف بهاتين الصفتين فاحذر منه، وعلّل هذا الأمر والنهي بأن أمره ونهيه صادر عن عليم، أحاط بكل شيءٍ علماً، وحكيم، ليس في حكمه خللٌ ولا خطأ، فالخطأ ومخالفة الصواب غالباً ناتج عن أحد أمرين أو هما معاً: إما الجهل وقلة العلم، وإما قلة الحكمة أو فقدانها، والله منزه عن ذلك.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾، **أمر الله نبيه ﷺ**، باتباع ما أنزله إليه من الوحي، بواسطة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو القرآن الكريم، **والسنة النبوية وحي كما قال:** ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾[النجم: 3-4]، فأنت في غنى من أن تأخذ بمشورة كافر أو منافق، ففي الوحي غُنية عن ذلك كله فاتبعه، والخطاب للنبي ﷺ وهو أمر لأمته، **ولفظ:** (إليك)، إشعار بالاختصاص، وهذا يدل على أن ما أوحى الله به من الوحي والأحكام والعبادات وغيرها إلى الرسول ﷺ أنها ناسخة للأحكام السابقة في شرائع الأنبياء قبله، **وكلمة:** (من ربك)، إشعار بالعناية والرعاية له، فالذي خلقك وأوجدك وربّاك هو الذي أنزل عليك الوحي الذي فيه خيرٌ لك في دينِك ودنياك، **وعلّل ذلك بقوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢﴾؛ لأن الاتباع للوحي عمل، ويحتاج إلى إتقان ونية صادقة، فنبّهنا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى أنه مطّلع على كل عمل نعمله، ليكون خالصاً صواباً يقبله الله منا.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾، **وأمر الله رسوله ﷺ**، بالتوكل، **وهو:** تفويض الأمور إلى الله والاعتماد المطلق عليه في جميع الأمور

والأحوال، **كما قال:** ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[غافر:44]، والتوكل لا يكون على مخلوق أبداً، وإنما يكون على الخالق الحي، **كما قال الله:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:58]، **والتوكل** لا يكون إلا على الحيّ الذي لا يموت، وهو الله، وكفى بالله وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه، فإنه يكفيه في شؤونه كلها فلا يحتاج إلى غيره، فما أجملها من توجيهات ربانية لو عمل بها المسلم لصلُحت له دنياه وآخرته!!.

وقولـــــــه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾، هذه حقيقة معروفة بالحس والواقع، وذكْر الرجل هنا فيه احتراز عن المرأة الحامل، فيوجد في جوفها أكثر من قلب!! وسُمي القلب قلباً؛ لكثرة تقلب أحواله، بسبب الشبهات والشهوات، وعدم ثباته على حالة واحدة، **وفي الحديث:** "كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك"(1)، فهذه الحقيقة الأولى في الآية، ذكرها الله تمهيداً لما بعدها، فكما لا يوجد قلبان في جوف رجل سليم معافى، فكذلك لا يُمكن أن تصير زوجتك مقام أمك في الحرمة والمكانة، بمجرد أن تقول لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكذلك لا يمكن أن يصير من نسبته إليك من الولد ولم يكن من صلبك ولداً لك لا حُكماً ولا حقيقةً، بل هي مُجرد دعوى، **والمعنى** فكما لا يكون لواحد قلبان كذلك لا يكون للشخص المظاهر أُمّان، ولا للولد

(1) مسند أحمد: (19/ 160) برقم: (12107)، وإسناده صحيح.

المنسوب إلى غيره!! واسم الإشارة عائد إلى ما سبق، وأنها ليست حقائق واقعية، بل مجرد أقوال صدرت من أفواه القوم دون تبصر وتأمل في معانيها ولوازمها، والله وحده هو من يقول الحق الذي لا مرية فيه، وفي هذا إشارة إلى بطلان ما سبق من أقوال، وهو سبحانه من يوفق لسلوك الطريق الصحيح، وأرشدكم بهذه الحقائق ليُبعدكم عن الظنون والخزعبلات والخرافات، ويدلكم على الحقائق السليمة والطريق الصحيح.

ثم أرشدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لطريقة التعامل مع الأدعياء من الأولاد، فقال: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ ﴾، **أي**: انسبوا الشخص إلى أبيه، **وقولوا**: فلان بن فلان، فهذا الفعل أعدل، ومُوافق للحقيقة والواقع، فإن لم تعلموا من هو أبوه كحال بعض اللقطاء الذين لا يُعرف آباؤهم، وهو مسلم فاستخدموا معهم أُخوة الدين بحيث تكون العلاقة بينكم وبينهم علاقة الأخوة في الإسلام، فإن كان لا اسم له؛ سمِّه ما شئت من الأسماء الحسنة وانسبه إلى عبد الله، **مثلاً قل**: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الجبار؛ لأن الخلق كلهم عبيدٌ لله، ثم انسبه إلى البلد الذي يسكن فيه، **فتقول**: الإبِّي، أو الصنعاني، أو المكي، أو المدني، ونحوها، فإن كان طفلاً صغيراً فأرضعه من أحد محارمك ليصير محرماً لنسائك إذا كبر، والمولى من الولاء، وهي النصرة، ويُنسب إليك الشخص بالولاء لو أعتقته أو أسلم على يديك أو تحالف معك، فهذه أنواع الولاء الثلاثة.

وقوله: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾، وهي قاعدة عامة في كل خطأ، والسياق هنا يفيد الخطأ الخاص بمخاطبة الأدعياء بخلاف ما سبق، فقد تُنادي الشخص تنسبه إلى غير أبيه خطئًا، ولم تقصد المخالفة لأمر الله، ومن تعمد المخالفة بالقصد والإرادة إليه، فإن الله سيؤاخذه على ذلك إن لم يتب إلى الله، ثم حثهم وطمعهم بالتوبة والمغفرة لذنوبهم بالإخبار عن الله أنه غفور رحيم، يغفر ويرحم من تاب ورجع إليه سبحانه.

ثم قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، وهذه أيضًا قاعدة شرعية، فالنبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا حكم بشيء نفذ حكمه، ووجبت طاعته عليهم، ويجب أن يكون حبهم للنبي ﷺ مقدمًا على حبهم لأنفسهم وأهليهم وأموالهم وأولادهم، **وفي الحديث:** **"لا يُؤمن أحدُكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"**[(1)]، **وفي رواية**[(2)]: فقال عمر: يا رسول الله! -وكان عندهم ما يسمى اليوم بالشفافية- والله إنك لأحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال له النبي ﷺ: **"لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك"**، فقال عمر: والله لأنت أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال: **"الآن يا عمر"**، **أي:** الآن اكتمل إيمانك وقمت بما أوجب الله عليك من تعظيم وتوقير وحب محمد ﷺ، فهذه القاعدة تُبيّن أن على المسلم أن يُعظم رسول الله ﷺ وأن يُحبه وأن يكون له من الولاية والتعظيم والحب أكثر ما للنفس، **وفي**

---

(1) صحيح البخاري: (1/ 12) برقم: (14).

(2) صحيح البخاري: (8/ 129) برقم: (6632).

الحديث: "أنا أولى بكل مؤمن، من ترك دَيْنًا فعليّ، ومن ترك مالاً فلأهله"[1]، وقد كان النبي ﷺ أميراً للمؤمنين، فمن تُوفي من المسلمين وعليه دَيْنٌ لزم ولي أمر المسلمين أن يقضي دينه من بيت مال المسلمين

وقوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، **أي**: إن زوجات النبي ﷺ في تحريم النكاح لهن والمكانة والاحترام لهن بمثابة الأم، وهذه الأمومة تعود إلى حرمة نكاحهن لا غير؛ لأنه لم يثبت شيء من أحكام الأمومة بين المؤمنين وبينهن سوى هذه الواحدة، ألا ترى أنه لا يحل رؤيتهن، ولا يرثن المؤمنين ولا يرثونهن[2]، والخطاب للصحابة الذين كانوا معاصرين له، ويشمل جميع الأمة بعدهم، وفي هذه الآية إشارة إلى تحريم الطعن في زوجاته، فإذا كنت من المؤمنين؛ فزوجات النبي ﷺ بمثابة أمك، فهل ترضى أن يُطعن في عرض أمك أو يتكلم على أمك أحد؟

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾، هذه الآية ناسخة لأحكام التوارث السابقة، وكان النبي ﷺ قد آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وكانوا يتوارثون على ذلك[3]، وجعلت التوارث خاصاً بالأقارب، قربوا أو بعدوا، فيرث بعضهم بعضاً، سواء

---

(1) صحيح مسلم: (2/ 591) برقم: (866).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 176).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 210).

كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وذلك بعد أن فتح الله على المهاجرين وأغناهم من فضله، وصار بعضهم من كبار التجار، مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما، وكتاب الله هو اللوح المحفوظ، فهذا الحكم مكتوب فيه ومخصص بفترة من الفترات ثم جاء النسخ وفقاً لانتهاء تلك الفترة المحددة للحكم السابق، والكل بعلمه وإحاطته، واستثنى من هذا الحكم العطاء لهم بالوصية أو بالصدقة، كأن تقول: أوصي بكذا من التركة لأخي في الله وفي الإسلام فلان، ولا تنس أولياءك من الذين آخى بينكم النبي ﷺ من أن تُوصي لهم قبل الموت بشيء فهذا جائز، ثم أكد نسخ الميراث بالهجرة ونحوها، ورده إلى ذوي الأرحام من القرابات، قد كُتب وقدّره الله في اللوح المحفوظ.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾، هذا إخبارٌ من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للناس بأنه قد أخذ الميثاق من كل الأنبياء عموماً ومن أولي العزم منهم خصوصاً، **وهم** محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وخصهم بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم على غيرهم، وقدّم ذِكر نبينا محمد ﷺ مع تأخر زمانه؛ إشعاراً بتقدم رتبته ومكانته عليهم، فهو أعظم الخلق وسيد ولد آدم من الأنبياء والمرسلين، **والميثاق، هو**: اليمين[1] على إخلاص العبادة لله سبحانه، وإبلاغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد، والجهاد في سبيله، وأن يصدّق

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 304).

بعضهم بعضًا، ويتبع بعضهم بعضًا، وهل هذا الميثاق خاص بالأنبياء، أو كان ضمن الميثاق الذي أخذ الله على ذرية آدم في عالم الذر؟ محتمل هذا ومحتمل هذا، والسياق يدل على الأول، لأنه وصف بالغليظ، ولأنهم مطالبون بمهام إضافية غير عامة الخلق، وذكر الأربعة الأولين ولم يذكر أسماء آبائهم، وذكر عيسى مع أمه؛ إشارة إلى مكانة أمه وأنه وُلد منها بمُعجزة، والميثاق الغليظ، هو المؤكد الشديد الذي يجب الوفاء به.

وقوله: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، اللام للتعليل، أي: أخذنا ميثاقهم لكي نسأل الأنبياء عن صدقهم في تبليغ الرسالة، وذلك تبكيتًا للكافرين، ولكي يُظهر مكانة الرسل عند أقوامهم المكذبين بهم، وإلا فالله يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ومطلعٌ على ما قام به الأنبياء والرسل في الدنيا، وسيتم السؤال يوم القيامة بين يدي الله، والسؤال لهم سؤال عرض، وليس سؤال حساب.

وفي الحديث: "**من نُوقش الحساب عُذب**"[1]، ولم يذكر ثمرة وجزاء صدقهم، وهي واضحة من خلال ذكر جزاء الكافرين بهم، فقد أعد الله لهم عذابًا مؤلمًا في جهنم، عبّر بالكفر؛ لأن الكفر أوسع من الكذب، فيدخل فيه الكاذبون وغيرهم.

(1) صحيح البخاري: (1/ 32) برقم: (103).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من تكريم الله لرسوله ﷺ أنه ما ناداه في القرآن باسمه مُجرداً.

2- أن الوصية بالتقوى مشروعه مهما بلغ الإنسان من الصلاح.

3- النهي المطلق عن طاعة المنافقين والكافرين، وخاصة في أمور الدين.

4- أهمية التوكل على الله، وأن من توكل على الله كفاه.

5- بطلان ما كانت عليه الجاهلية من عادات وخرافات تخالف الواقع وتصادم الحق.

6- بيان كيفية التعامل مع العبيد واللقطاء.

7- بيان مقام النبي وزوجاته وحقه وحق زوجاته على أمته.

8- بيان نسخ التوارث بين أخوة الدين وردها إلى الأقارب.

9- مزية أولي العزم من الرسل، ومكانة رسولنا محمد بينهم.

10- أن البلاغ للدعوة ميثاق شديد يجب على الرسل وأتباعهم تنفيذه.

تفسير المقطع الثاني من سورة الأحزاب

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ
ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا
وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ
وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا (١٤)
وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا (١٥) قُل لَّن
يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا
ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا (١٧) ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ
إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى
يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾، **بدأت بهذه الآية** قصة غزوة الأحزاب وبيان شيء من أحوالها، حيث خاطب الله عباده باسم الإيمان، وأمرهم أن يذكروا نعمه عليهم، باسترجاع واستشعار ما حصل لهم في ذلك الموقف من نعم، وأضاف النعمة إلى الله؛ ليُشعرنا أن كل النعم منه، **كما قال:** ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:53]، فهو موجدُها ومُعطيها، والمتفضل بها على خلقه، وخصّهم بالنعمة دون غيرهم، رغم أن المنافقين كانوا يعيشون معهم الموقف، لكنهم ليسوا داخلين في هذا الامتنان، ثم ذكر موضع النعمة، فقد قدم جنود الأحزاب وهم قُريش ومن معها من الأعراب ومن انضم إليهم من اليهود وذلك لحصار المدينة واقتحامها، وقد بلغوا أكثر من عشرة آلاف مقاتل حول المدينة، بالإضافة إلى من بداخلها من المنافقين واليهود الذين نقضوا العهود مع رسول الله، ولم يذكر ما فعلوا بالمسلمين من حصار وأذية لهم قرابة شهر، وإنما ذكر موضع النعمة من الله عليهم، حيث أرسل الله على هؤلاء الجنود الريح الشديدة، وهي ريح الصبا وكانت باردة، ففرقت جمعهم وشتت شملهم، وخلعت أوتاد خيامهم وقلبت قدورهم، **وفي الحديث:** **"نُصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور"**(1)، **والصبا:** هي الريح التي تهب من

---

(1) صحيح البخاري: (2/ 33) برقم: (1035)

مشرق الشمس، والدبور: هي الريح التي تهب من مغرب الشمس، وأرسل عليهم جنوداً من الملائكة لم يرها المؤمنون، قذفت الرعب في قلوبهم، فانهزم المشركون من غير قتال، وكان الله بصيراً بما يعمله الناس من إيمان وجهاد ومشاركة في الخير ونحوها، أو نفاق وشك ومشاركة في الشر والباطل ونحوها، وسيجازي كلاً منهم على عمله.

ثم وصف الحال، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾، **أي:** جاءتكم جنود الأحزاب من جهة الشرق، ومن جهة الغرب، وجاء بنو قريظة من أعالي المدينة وكانوا هم العدو الداخلي المخفي الذين تعاضدوا وتحالفوا مع قريش ومن معهم لمحاربة النبي ﷺ، ثم وصف حال المؤمنين أثناء الحصار، فأبصار المؤمنين من شدة الفزع والهلع تضطرب وتتحرك يميناً وشمالاً، وهي إشارة إلى الحال التي وصلوا إليها من الخوف والذعر، حيث بلغت قلوب المؤمنين الحناجر من شدة ذلك، **وهل هذا الوصف حقيقي أم مجازي؟!، قولان**[1]**، قيل:** حقيقي، لأن الإنسان الخائف إذا اشتد خوفُه تنتفخ الرئة، فإذا انتفخت الرئة ضايقت القلب، فيرتفع إلى الحنجرة، فيسد النَفَس، **وقيل:** بل هو مجازي يدل على شدة الرعب، فمن شدة الخوف ينقطع التنفس وكأن القلب قد سد الحنجرة التي منها يخرج النفس، وتعددت ظنون المحاصرين بالله وتنوعت ظنونهم؛ فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: (ص: 1528).

ثـم قـال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، **هنالـك، أي:** في مكان الحصار وأثنائه حصل الاختبار للمؤمنين، فظهر ضعيف الإيمان وقوي الإيمان، وحصلت لهم شدة، حتى اضطربت القلوب والنفوس وتعرضت لفتنة عظيمة، وهذا يدل على أن الموقف كان شديداً وخطيراً عليهم.

وقولـــــه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، وأثناء وقوع الابتلاء الشديد للمؤمنين نطق بعض المنافقين الخالص نفاقهم ومن في قلوبهم مرض الشك والريب والشبهة، فقالوا: إن محمداً يعدنا أن نفتح مدائن كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله! هذا والله هو الغرور، وأي كفر بعد هذا القول القبيح، واتهام الله ورسوله بالكذب، **وقد كان النبي** ﷺ أمر أصحابه بحفر الخندق فاعترضتهم صخرة كبيرة، فحاولوا كسرها فلم يستطيعوا، **فجاء النبي** ﷺ وأخذ المِعول وضرب الصخرة بالفأس ضربة طار منها الشرار وقطع منها الثلث، **وقال:** **"الله أكبر فتحت قيصر، والله إني لأرى القصور الحمر"**، ثم ضرب الثانية فقطع منها الثلث الثاني، **وقال:** **"الله أكبر فتحت كسرى، والله إني لأرى القصور البيض"**، ثم ضرب الثالثة فقطع الثلث الباقي، **وقال:** **"الله أكبر فتحت اليمن، والله إني لأرى باب صنعاء"**(1)، **قال النبي** ﷺ هذا الكلام لأصحابه وهم في بردٍ شديد وجوعٍ شديد وخوفٍ شديد، فصدّق المؤمنون بهذا الوعد، وكذب به المنافقون وقالوا: لا يستطيع أحدُنا أن يخرج ليبول من شدة الخوف ومحمد يعدُ أصحابه بقصور

(1) الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر: (ص: 170).

كسرى وقيصر واليمن، والغُرور: الوعد الذي لا حقيقة له.

قـــــال الله: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾، الطائفة تقع على الواحد فما فوقه[1]، فالطائفة الأولى من المنافقين ثبّطت الناس، بأن وعد الله بالنصر لن يتحقق، والطائفة الثانية طلبت من أهل المدينة أن يرجعوا من المعسكر إلى ديارهم، وعبّروا عن المدينة بيثرب؛ أنفًا من اسمها الجديد في الإسلام، لكن القوم لم يعترفوا به وظلوا يتخاطبون بالاسم القومي للمدينة، معللين هذا الطلب بقولهم: لا مكان لإقامتكم واستمراركم في الحراسة في جبل سلع، فاتركوا هذا المكان، وارجعوا إلى بيوتكم حفاظًا على رِقابكم، فربما يأتي الأحزاب فيقتلونكم، وهو تحريض واضح لترك الجهاد والمرابطة مع رسول الله ﷺ في الخندق، والطائفة الثالثة كانت أقل جُرأة ممن قبلها، فكانوا يأتون إلى النبي ﷺ يطلبون منه الإذن للهروب والعودة إلى بيوتهم بأعذار باطلة، **منها**: أن بيوتهم مكشوفة للعدو وغير مُحصنة، فنفى الله صحة هذا العذر وأبطله، وأثبت أن بُيوتهم مُحصّنة ولا تحتاج إلى من يحرسها، وأن الهدف من استئذانهم هو إرادة الهروب من الرباط والحراسة معك، بأعذار كاذبة.

ثم قال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾، **أي**: ولو دَخلتْ عليهم الأحزاب الموجودون خارج المدينة من الكفار من أطراف ونواحي المدينة، وتمكنوا من الوصول إلى بيوت هؤلاء

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 306).

المنافقين داخل المدينة، ثم طُلب منهم الكفر والشرك والردة والعودة عن الإسلام وإعلان الكفر؛ لاستجابوا لذلك دون تردد، وما تأخروا عن تنفيذا هذا الطلب إلا لحظات قليلة، وفي هذا إشارة إلى إبطال السبب الذي يبحثون عنه للحفاظ على حياتهم، وأن الهروب من الجهاد والكفر بالله خوفاً من القتل لن يزيد في الأعمار ولن يجعلهم مُخلدين في الدنيا، فأجلهم مهما طال فهو يسير بالنسبة للآخرة، وفيه إشارة إلى طبيعة الكافر في المحافظة والحرص على الحياة الدنيا، **كما قال:** ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[البقرة:96]، ولذلك يهربون من الجهاد خوفاً من الموت ويتركون الإسلام حرصاً على الحياة.

ثم قال الله تعالى عنهم أي: المنافقين: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾، وقد سبق للمنافقين أن هربوا من المعركة في غزوة أُحد في السنة الثالثة من الهجرة، ثم عاهد الله بعض من رجع من المنافقين أن لا يهربوا من معركة قادمة، فجاءت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة، فحصل منهم الهروب والتلكُؤ عن المرابطة والحراسة مع الرسول ﷺ، فذكّرهم الله بذلك وأنهم سيُسألون عن عهدهم في الآخرة، لماذا لم يوفوا به، وسوف يُحاسبون على ذلك.

ثم قال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾، **قل يا محمد لهؤلاء المنافقين:** إن الهروب من الجهاد والمرابطة في سبيل الله خشية الموت؛ لا يزيدُ في أجلكم، فالأجل مكتوب والموت إذا نزل لا

مناص منه، ففراركم هذا لن يزيد في آجالكم ولن يمنع انتهاء حياتكم، وفي حالة فراركم وكان أجلكم لم يَحِنْ فاستمتاعكم بالحياة سيكون زمناً قليلاً، لأن الدنيا كلها متاع قليل بالنسبة للآخرة.

ثم قال الله: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾، وقل أيضاً: إن الخلق كلهم يعيشون تحت سلطة الله وقهره، ولا يستطيع أحد أن يخرج من مُلك الله ويفر من بطشه، فالأرض أرضه والسماء سماؤه، والكون كله له، فأين المهرب؟! ومن يمنعكم من الله إن أراد بكم السوء بالهزيمة أو بالقتل أو بالتشريد أو بنحوها من الأسباب، أو أراد بكم الرحمة بالسلامة من الشرور والقتل ونحوها، فالأمر كله بيده، فهو الذي بيده النفع وبيده الضُر، وأينما ذهبوا فلن يجدوا لهم وليّاً غير الله يتولى أمرهم، ولا نصيراً غير الله يمنع العقاب عنهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾، قد للتحقيق، والمعوقون، هم: المنافقون المُثبطون والمخذلون للناس عن الجهاد والرباط في سبيل الله، وقد سبق شيء من أفعالهم، والمعنى أن الله قد علم حالهم وسوف يجازيهم على فعلهم، وعلم أيضاً قول من دعا غيره إلى اللحاق به وترك نُصرة رسول الله ﷺ، ثم وصف حال هؤلاء المنافقين بأنهم ليس من مشاريعهم الخروج إلى الجهاد ولا الرباط في سبيل الله، ولا ممارسة الحرب والقتال، ولا الاستعداد لها، فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، وقِلّة منهم من يخرج رياءً ويبقون في هلَع وخوف؛ يبحثون عن أي عذر

للهروب، بسبب جبنهم ونفاقهم وسخافة عقولهم وقلة تفكيرهم.

وقولـه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾، ثـم ذكـر وصـفًا آخـر لهم، وهو: أنهم بخيلون في النفقة في سبيل الله، فلا يشاركون في النفقة في سبيل الله، وهم أيضًا جبناء لا يخرجون للقتال، والبخل والجبن خُلقان سيئان يتصف بهما المنافقون، **وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله منهما، كما في الحديث: "اللهم إني أعوذ بك من الجُبن والبُخل"**[1]، ثم ذكر من أوصافهم أنهم إذا قامت الحرب وجاء الغُزاة وأصاب الناس الخوف، وجدتهم في حالة ترقبٍ ونظرٍ بحثًا عن مخرج من هذا الخوف، وحالتهم سيئة من الرعب والخوف الذي أصابهم، فأبصارُهم مضطربة وكثيرة الدوران كحال الذي يُعاني سكرات الموت، فإذا انتهت المعركة وذهب الخوف وأمن الناس، آذوْكم بألسنتهم الحادة بالكلام السيء والألفاظ القبيحة، ورفعوا أصواتهم بالملامة لكم، لماذا لم تأخذوا بمشورتنا وتسمعوا كلامنا، ونحوها من العبارات، وإن كان هناك غنائم ألحوا عليكم بأحقيتهم فيها، وهم في الحقيقة بخلاء على المال والغنيمة، فهذا حالهم في وقت الحرب بلعوا ألسنتهم من شدة الخوف، وفي وقت الأمن يُكثرون من

(1) صحيح البخاري: (4/ 36) برقم: (2893).

الكلام السيء ويؤذون المؤمنين بألفاظهم القبيحة، فأفعالُهم هذه دليل على عدم إيمانهم بالله حقيقة، وما عملوا من أعمال صالحة في الظاهر، فلا أجر لهم ولا ثواب؛ بل يبطل الله ثوابهم فيها؛ لأن العمل الصالح لا يُقبل إلا بالإيمان الصادق، والضمير في ذلك يعود إلى إحباط أعمالهم الظاهرة، فهو يسير على الله أن يُحوله إلى هباءٍ منثور، عقوبة لهم بسبب كفرهم ونفاقهم.

ثم قال: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾، بعد أن انتهت الغزوة وذهب الأحزاب ورجع المؤمنون فرحين مسرورين إلى أهليهم، لم يقتنع المنافقون أن الأحزاب قد ذهبوا، بل كانوا يظنون أنهم سيرجعون مرة ثانية ويدخلون المدينة، ولو جاء الأحزاب مرة ثانية وحاصروا المدينة أو دخلوها لتمنى المنافقون أنهم ليسوا من أهلها وأنهم كانوا يسكنون في البادية مع الأعراب بعيدين عن المدينة، حتى لا يُشاركوا في القتال ولا يصيبهم أذى، ويظلون يسألون عن أخباركم مع عدوكم وينتظرون الهزيمة لكم، ولو كانوا مشاركين لكم في الغزو فليس عندهم من الإيمان ما يدفعهم إلى القتال، فهم يخافون الموت، فلن تستفيدوا منهم إلا التثبيط والتشكيك، وقد تأتي الهزيمة لكم بسببهم، كما قال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾[التوبة:47].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- استحباب تذكّر نعم الله على العبد بين الحين والآخر، ليدفعه ذلك إلى شكرها.

2- بيان شدة الابتلاء الذي وقع للمؤمنين في غزوة الخندق.

3- بيان حال المنافقين ومواقفهم المثبطة للمؤمنين في تلك الغزوة.

4- طبيعة الكافرين والمنافقين في حرصهم على الحياة الدنيا وجهلهم بأقدار الله.

5- بيان حقارة الدنيا وأنها يسيرة إلى الدار الآخرة.

6- خطورة المنافقين على المجتمع المسلم، وخاصة وقت الحروب والفتن.

7- من صفات المنافقين المطردة طعنهم في أهل العلم والإيمان قديمًا وحديثًا.

8- بطلان أجور أعمالهم الصالحة الظاهرة في الدنيا لعدم صدق إيمانهم.

تفسير المقطع الثالث من سورة الأحزاب

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ
كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾
وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا
تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾، هذه الآية جاءت بعد قصة سورة الأحزاب، وبيان حال المؤمنين فيها وحال المنافقين المتخلفين عنها، وقد كان الرسول ﷺ، وهو أشرف الخلق وأفضلهم، مرابطاً في الخندق ومشاركاً لأصحابه في حفره، ولم يترك مكانه ولم يرجع إلى بيته وتعرض للخوف والبرد والأذى،

والأسوة هي القدوة حسنة أو سيئة، وقيدت هنا بحسنة، والسياق هنا سياق قتال وجهاد، فكيف يليقُ بأصحابه أن يتركوا المرابطة والجهاد ويرجعوا إلى ديارهم، يتركوا التأسي والبقاء مع رسول الله ﷺ ؟!!، فظاهر الآية عتاب لمن تخلف بالمدينة عن رسول الله ﷺ(1)، ومعناها على العموم، وهو مشروعية التأسي بكل أحواله وأفعاله ﷺ، إلا ما كان خاصاً به مثل أن يتزوج أكثر من أربع، ونحوها من الخصائص.

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾، **فذكر هنا ثلاثة عوامل يستعين بها المسلم على حسن الاقتداء بالنبي ﷺ:**

الأول: عظم الرجاء بالله، وهو لا يأتي إلا بعد الإيمان بالله ﷺ، فمن استيقن إيمانه كان راجياً ما عند ربه من الثوابَ والأجر.

والثاني: رجاء الفوز والنجاة يوم القيامة.

والثالث: ذكر الله كثيراً بلسانه وقلبه، فمن تحققت فيه هذه الصفات الثلاث؛ كان أكثر تأسياً واقتداء برسول الله ﷺ، لأن النفوس المؤمنة الزاكية تُحب الله وتحب رسول الله ﷺ، وإذا أحبت رسوله اتبعته، وسارت وفق هديه وشرعه، وإذا فسدت النفوس وقست القلوب وغفلت الألسن عن ذكر الله؛ حصلت القطيعة بينها وبين الاتباع والتأسي لرسول الله ﷺ.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 213).

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾، **هذا بيان** لحال المؤمنين الصادقين لمّا رأوا الأحزاب يحاصرون المدينة، قالوا في أنفسهم: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ وصدق الله فيما أخبرنا به من سنة الابتلاء في القرآن الكريم، **مثل قوله**: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[البقرة:214]، أو أخبروا به رسوله في الحديث الصحيح، مثل حديث خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟! فقال: **"كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"**(1)، وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانـًا بالله، وانقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله ﷺ، وهذه الآية دليل على أن الإيمان يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأن المؤمن إذا استسلم لأمر الله وشرعه ورضي بأقدار الله وأخذ بالأسباب لدفعها؛ ثبته الله وجاءه النصر والفرج القريب من الله.

ثم قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ

(1) صحيح البخاري: (4/ 201) برقم: (3612).

﴿نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، مِن تبعيضية، **أي**: إن بعض الرجال من المؤمنين عاهدوا الله وصدقوا في عهدهم مع الله، والرجولة وصف مدح في القرآن الكريم، لا يذكرها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلا لمن يستحق أن يتصف بها، **كما قال سبحانه**: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾[النور:37]، **وقوله**: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾[التوبة:108]، وهذه الآية نزلت في بعض الصحابة الذين تخلّفوا عن غزوة أُحد لسببٍ ما، كما في حديث أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: "يا رسول الله غبت عن أول قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع"، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: "اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: "يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، نزلت فيه وفي أشباهه"[1].

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، **أي**: فمن هؤلاء الرجال من قضى نحبه، وفي **معنى نحبه عدة أقوال**[2]: عهده، أو نذره، أو

(1) صحيح البخاري: (4/ 19) برقم: (2805).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 457).

أجله فمات، وهي معاني متقاربة ولا تعارض بينها، وأصل النحب بذل الجهد، ومنه النحيب، وهو رفع الصوت بالبكاء[1]، **والمعنى** أنهم بذلوا وسعهم للوفاء بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت، فمنهم من قاتل حتى قتل، فوفى بنذره ووعده، ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد، وما بدلوا نيتهم فيما قالوا من عهدٍ أو وعدٍ أو نذرٍ بل ماتوا وقد استكملوا ما وعد به، كمثل هذا الذي حصل لأنس بن النضر، وفي هذه الآية نعي لحال المنافقين الذين بدلوا وغيروا وأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وقالوا أقوالاً ثم تخلّفوا عنها، ووعدوا ثم كذبوا، وحلفوا ثم أخلفوا، وفي الآية إشارة إلى أهمية وضرورة الثبات على المبدأ، وخطورة تبديل المبادئ والقيم تبعًا للأهواء والمصالح الشخصية، فالأصل في المسلم أن يكون صادقًا في تدينه، وأن يستمر المسلم عليه، وأن يدفع من أجل المحافظة عليه الغالي والنفيس، ويصبر على الأذى حتى لو طُرد أو سُجن ولا يبيعه بعرض من الدنيا، كحال بعض المنتسبين اليوم إلى الإسلام يتنقل بين الملل والأهواء، ويدور مع المذاهب والأفكار بناءً على المصالح والأهواء، ويغيرها بناءً على السياسات والأحوال، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾، ذُكرت تعقيبًا على الموقف السليم الذي كان عليه المؤمنون الصادقون في الدنيا، فهو موقف يُشكر لهم، واللام للتعليل، والباء سببية، **أي**: ليجزيهم بسبب صدقهم، وأطلق الجزاء ولم يُحدده ليشمل الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يجازيهم بالحياة

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (1/ 222).

السعيدة وقبول الناس لهم وحُسن سمعتهم، ونحوها من ثمار الصدق، وفي الآخرة الأجر العظيم وجنات عرضُها السموات والأرض أعدها الله لعباده الصادقين في إيمانهم وأقوالهم.

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾، هذا بيان لجزاء المنافقين الذين تركوا الصدق في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم في الدنيا، وأطلق العذاب ليشمل كل أشكال العذاب في الدنيا والآخرة، وجعل عذابه لهم تحت مشيئته، **أي:** إن استمروا على نفاقهم عذبهم أو يُوفقهم بالتوبة؛ فيرفع عنهم العذاب بها، وهذا الحكم ليس خاصاً بالمنافق بل بكل كافرٍ ومشركٍ وعاصٍ إذا تاب، تاب الله عليه ورفع عنه العذاب، وعلّل ذلك بأن الله غفور لمن أذنب وتاب، ورحيم بالخلق حيث هيأ لهم أسباب العودة إليه، فلا ييأس ولا يقنط من وقع في النفاق والشرك والمعصية، فرحمة الله واسعة، فمن أقبل على الله بالتوبة الصادقة؛ قبله وغفر له ورحمه.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾، هذا بيان لنهاية معركة غزوة الأحزاب، فبعد خمسين ليلة من الحصار والخوف والتعب للمؤمنين، جاء الفرج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم، فأرسل على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة زلزلت أقدامهم وقذفت الرعب في قلوبهم، فولوا هاربين منهزمين وعادوا خائبين خاسرين مصحوبين بحقدهم وقهرهم وشدة غضبهم لفشل خطتهم وعدم تحقق هدفهم، والخير بالنسبة لهم هو النصر على المسلمين،

وهو شر بالنسبة للمسلمين، فلم ينالوا شيئًا مما أرادوه للمسلمين من الشر، وكفى الله المؤمنين القتال الكامل والمواجهة العامة مع عشرة آلاف مُقاتل من الكفار، فقد كفاهم الله بالريح والملائكة، وهذا لا ينفي وقوع مناوشات بينهم أحيانًا، وقُتل فيها بعض الصحابة وأُصيب البعض في أطراف الخندق، وعلّل الله ذلك بقوته وعزته فما حصل للمؤمنين من نصر هو أثر من آثارها، فالقوي العزيز لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾، ثم بيّن ما فعله الله باليهود من أهل المدينة الذي نقضوا العهد وشاركوا الأحزاب في حصار المدينة، بعد رده للغُزاة من الأحزاب القادمين من خارج المدينة من قريش وغطفان وغيرها من القبائل دون أن يُحققوا أهدافهم، والمقصود بهم هنا يهود بني قريظة[1]، فقد نقضوا العهد وتواطئوا مع الأحزاب على حصار المدينة، وناصروهم على المؤمنين، **والصياصي هي** الحصون المرتفعة، وكان عادات اليهود أن يبنوا بيوتهم في الأماكن المرتفعة، ليحموا أنفسهم بسبب جبنهم فأخرجهم الله من حصونهم، بعد أن قذف الله الرعب في قلوبهم، وأخّر الله ذكر الرعب في اللفظ للإشارة إلى أنه استمر معهم حتى بعد النزول، فظلوا يرتجفون من الخوف إلى أن سلّموا أنفسهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد كان أُصيب بأكحُله في الخندق فقُطعت إبهام رجله وانتقضت، فأخذه النبي ﷺ إلى خيمةٍ في

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 397).

المسجد وكان يعودُه، فكان سعد يقول: اللهم لا تُمتني حتى تُريني في قُريظة ما تقر به عيني؛ لأنهم كانوا حُلفاءه وكانوا قد خانوا الله ورسول الله ﷺ، فحاصرهم النبي ﷺ قرابة خمسٍ وعشرين ليلة، ثم استسلموا ورضوا بُحكم سعد بن معاذ فيهم، فجاء سعد بن معاذ وهو مريض من قدمه التي أصابها سهم في الخندق راكبًا على حمار إلى المكان الذي كان يجلس فيه النبي ﷺ، فقال للأنصار: **"قوموا إلى سيدكم فأنزلوه"**، **وقال النبي ﷺ لسعد: "أحكم بهم بما شئت"**، فقال: وحُكمي سار عليهم أجمعين؟ قال: **"نعم"**، قال: وعليكم؟ قال: **"نعم"**، فقام فحمد الله ثم أثنى عليه، ثم قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي ﷺ: **"لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله"**[(1)]، ثم أخرجوا إلى أحجار الزيت التي بالسوق، فضربت أعناقهم، وكانوا قرابة سبعمائة رجل، ثم انتقض جُرحُ سعد فمات بعد ذلك، وقد قرت عينه بما فُعل بهم.

ثم قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾، فصارت وآلت أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم للمؤمنين، وبشّر الله المؤمنين بأنهم سيفتحون أرضًا غير أراضي اليهود لم يسبق لهم فتحها من قبل، **قيل**[(2)]: هي مكة، أو خيبر، أو فارس والروم، أو اليمن، وهذه الأقوال

(1) صحيح ابن حبان: (15/ 498) برقم: (7028)، ورواه البخاري: (5/ 35) برقم: (3804)، مختصراً.

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 459).

كلها ذكرت على سبيل المثال، والصحيح أن كل أرضٍ فُتحت بعد غزوة الأحزاب فهي داخلة في وعد الله هذا؛ لعموم اللفظ الذي يشمل كل أرض لم تكن أقدامُ المؤمنين آنذاك قد وصلت إليها، وعلّل ذلك بإحاطة قدرته بكل شيءٍ، فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- مشروعية التأسي بكل أحوال النبي ﷺ وأفعاله، إلا ما كان خاصاً به.

2- بيان أن الابتلاء والاختبار سنّة في حق المؤمنين يعقبها النصر والتمكين لهم.

3- أن الثقة بالله وبنصره ووعده ووعيده والانقياد لأمره من أهم صفات المؤمنين الصادقين.

4- بيان تزكية الله لأصحاب رسوله ﷺ وأنهم صدقوا في إيمانهم وجهادهم، وهي شهادة وتزكية لهم بأنهم سيموتون على الإيمان.

5- أن نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأتي للمؤمنين من حيثُ لا يحتسبون.

6- خطورة نقض الوعود وسوء عاقبة من فعل ذلك في الدنيا والآخرة.

تفسير المقطع الرابع من سورة الأحزاب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ
أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ
مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ
مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى
بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، نزلت هذه الآيات في أزواج رسول الله ﷺ حين طلبن منه زيادة في النفقة، وألححن عليه بذلك حتى غضب منهن وحلف ألا يقربهن شهراً، فاعتزلهن في غرفة مُرتفعة فوق إحدى

حجراته، ومكث فيها تسعاً وعشرين ليلة ثم نزل، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنك دخلت من تسع وعشرين أعدهن، فقال: **"إن الشهر تسعٌ وعشرون"**، ثم قال: **"يا عائشة، إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك"**، ثم قرأ عليها هذه الآيات(1)، ثم خيّر بعد ذلك باقي زوجاته بين أن يخترن الدنيا وزينتها، فيُطلقهن رسول الله ﷺ ثم يعطيهن المتعة المفروضة للمطلقة، وهي نفقة العدة وما يتعلق بها، وهو أمرٌ يقدّر بحسب حال الإنسان من حيث غناه وفقره، **كما قال:** ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[البقرة:236]، **والتسريح:** هو فك ميثاق الزواج بالطلاق، والسراح الجميل: هو الفراق الذي ليس فيه غِلظة في القول ولا بذاءة في اللسان، ولا حقد في القلب، ونحوها من الأشياء التي تحصل غالبًا عند الخصام والفراق، فالنبي ﷺ لا يصدر منه إليهن إلا الشيء الطيب، أو أن يخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ويرضين بما أعطاهن الرسول ﷺ من النفقة، ويصبرن على الجوع والفاقة ويبقين في عصمته، ومن اختارتِ الله ورسوله والدار الآخرة على الدنيا وزينتها فهذا يدل على حسن اختيارها وإخلاصها، والله قد أعد لها الأجر العظيم يوم القيامة، ونكّر الأجر حتى يعم كل ما يتصوره الإنسان من أجرٍ عظيم في الآخرة، وقد وصف الله العظيم أجره بالعظيم، فلا يمكن أن تتخيل عظمة هذا الأجر، **وقد اختارت جميع زوجاته:** الله ورسوله والدار الآخرة، وبقين في عصمته على ما معه من النفقة، وحصل لهن

---

(1) صحيح مسلم: (2/ 1113) برقم: (1475).

بذلك الأجر العظيم في الدنيا والآخرة، ولو اختارت إحداهن الطلاق فمعنى ذلك أنها خرجت من الأحكام المتعلقة بزوجاته في الدنيا والآخرة، فلم تعد أُمّـًا للمؤمنين، ولا زوجةً له في الآخرة، ولما وفقهن الله لهذا الاختيار فقد زكّاهن الله بذلك، والآية بيان لطبيعة الحياة الأسرية وأنها لا تسلم من المنغصات والمشكلات الزوجية حتى في بيت النبوة، وهو أعظم البيوت وأشرفها، وفيها بيان لحالة الفقر والفاقة التي كان المسلون يعيشون عليها، وقد ذكرت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنه كان لا يُوقد في بيت رسول الله ﷺ نار الشهر والشهرين، وإنما كان طعامُه الماء والتمر، وكانوا لا يشبعون من خبز الشعير[1]، ولو أراد النبي ﷺ الدنيا لجاءته، ولكنه اختار أن يكون عبداً رسولاً، وقصة زُهده في الحياة الدنيا واضحة في سيرته ﷺ، وقد جاءه المال بعد ذلك من الغنائم فكان يُنفقُه دون تردد.

ثم قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾، **هذا الخطاب موجّه إلى زوجات النبي** ﷺ، وخاطبهن بإضافتهن إلى النبي ﷺ تكريمـًا لهن، وحذرهن من العصيان البيّن كالنشوز وسوء الخلق ونحوها[2]، فإذا فعلن ذلك عُذبن في الآخرة ضعفي ما يعذب به غيرهن من النساء؛ لأنهن زوجات رسول الله ﷺ، وهن قُدوة لغيرهن ولقربهن من رسول الله ﷺ، فالوحي بزواجره ونواهيه ينزل عليه في بيوتهن، وهو خطاب افتراضي وليس بالضرورة أن يحصل منهن بعد اختيارهن

---

(1) ينظر: صحيح البخاري: (3/ 153) برقم: (2567) بنحوه.

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 228).

لله ورسوله والدار الآخرة، ولم يُؤثر في السيرة ولا السنة تكرار النشوز والعصيان من إحداهن بعد ذلك، ومضاعفة العذاب على الله يسير؛ لإحاطة علمه بجزئيات الأشياء، فالمضاعفة عليه يسيرة، وفي الآية إشارة إلى أن الحجة على من علم الحق أشد منها على غيره، والمعصية من العالم أقبح.

ثم قال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾، القنوت: مداومة الطاعة والامتثال وعدم الانقطاع عنها، وذكر العمل الصالح بعد القنوت من باب ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على أهميته، وكما ضاعف لهن العقوبة على المخالفة؛ ضاعف لهن الأجر على الطاعة، وهذا من عدل الله وفضله، فقد رفع منزلتهن وأظهر فضيلتهن على سائر النساء في الدنيا، وأعد لهن في الآخرة الجنة[1]، وأكرمهن بإنزالهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق.

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾، بيّن في هذا الآية سبب مضاعفة العقوبة والأجر لزوجات النبي ﷺ، فإنهن لسن كسائر النساء في الفضل والشرف، فقد اختصهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ببعض الخصائص وفضلهن على غيرهن بكونهن ملتصقات برسول الله ﷺ ويعشن معه، وقيّد هذا الشرف العظيم بملازمتهن للتقوى، لا لمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ، والتقوى، هي: امتثال ما أمر الله واجتناب ما نهى الله عنه، فجعل التقوى هنا مانعاً وحاجزاً عن

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1544).

فعل ما لا يجوز فعله، ثم ذكر مجموعة من التوجيهات التي لا تختص بزوجات النبي ﷺ بل تشمل عموم النساء، وإنما كان الخطاب لزوجات النبي ﷺ من باب التشريف لهن بالذكر، وإذا طلب منهن ذلك، فغيرهن من باب أولى، والخضوع بالقول: هو لين المرأة وترقيقها لصوتها بكلام يحرّك مشاعر الرجل فيطمع فيها من في قلبه مرض شهوة الزنا والفجور من الرجال، لأن الله خلق في الرجال والنساء خاصية الانجذاب إلى بعضهما، فكلٌّ منهما يشتهي الآخر، فأمر المرأة أن تبتعد عن الإثارة للرجل بكل وسيلة كالصوت الفاتن أو إبداء زينتها وجمالها أو رائحتها، ونحو ذلك من المغريات التي تُهيج الشهوة لدى الرجل؛ فيندفع إلى الحرام ويقع فيما لا يجوز له، وطلب منهن القول المعروف وهو الصحيح العفيف الذي ليس فيه خضوع من ناحية اللفظ ولا يحتوي على ألفاظ تحرك المشاعر وتخدش الحياء وتفتن الرجل، وهذا يدل على أن صوت المرأة من حيث الإطلاق ليس بعورة، وأنه عورة في حالات محددة فقط.

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، ثم أمرهن بالقرار في البيوت ونهاهن عن كثرة الخروج متطيبات أو متبرجات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ لأن البيت هو مملكة المرأة الخاصة ومحل عنايتها بزوجها وأولادها، ففيه السكن والراحة للأسرة، وهذه الثمار قلّ أن تتوفر اليوم مع كثرة خروج النساء من البيوت للعمل خارج المنزل، فتعود آخر النهار متعبة منهكة، ويعود الرجل أيضاً مُتعباً منهكاً، ويلتقيان في البيت يبحثان عن السعادة والراحة والاطمئنان المفقودات، فلا يجدان ذلك بسهولة؛

فتبدأ المشكلات العائلية بينهما وتتفاقم، وتعيش الأسرة في قلق مستمر، فضلاً عن فساد الأولاد لإهمال العناية بهم وتربيتهم، وهذا هو الهدف من المشروع العالمي لتحرير المرأة وإخراجها من بيتها؛ بحثًا عن المتعة المحرمة، وتسهيلاً للفواحش، فلم تغتنِ الأُسر بتشغيل النساء، وإنما تعطَّل الرجال، وأُبعدت المرأة عن تربية الأولاد والعناية بالزوج، وحصلت مشاكل أسرية كثيرة!، وهذا لا يعني أنه يحرم على المرأة أن تخرج أو تعمل إذا كانت محتاجة بضوابط شرعية، لكننا نحن نتحدث هنا عن الإطار العام للأسرة المسلمة، وهو أن الرجل هو المسؤول عن العمل والنفقة، وأن المرأة هي المسؤولة عن البيت والتربية من أجل أن تكتمل الوظيفتان وتحصل السعادة والاستقرار بين الزوجين.

وكانت الجاهلية الأولى تنتهك حقوق المرأة وتمتهنها بكشف عورتها، فلما جاء الإسلام عزز مكانة المرأة وجعلها جوهرةً مصونة لا ينظر إليها إلا من يحل له النظر، وطلب منها أن تحتجب عن الأجانب، واليوم جاءت جاهلية القرن الحادي والعشرين، فكانت أكثر سوءاً من جاهلية القرون الأولى، فصار التبرج أسوأ من التبرج السابق، وصار موضة تتنافس عليه الشركات وتدعو له القنوات وتنفق من أجل نشره المليارات!!.

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، ثم أمرهن بالصلاة والزكاة لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية، ثم عمّم فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما شرع، من أجل بناء الإيمان وتقويته في النفوس، والشيطان إنما يتسلط على ضعفاء الإيمان؛ فيغويهم ويوقعهم في الحرام، وهذا أمر مهم

جداً في التربية، فالتحذير والتنفير من الشر والباطل وحده لا يكفي، بل لا بد من تأسيس وبناء الإيمان في النفوس بالأعمال الصالحة حتى تقف أمام المغريات.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾، **أي:** يريد الله لكم بهذه التشريعات والتوجيهات أن يذهب عنكم بامتثالها والعمل بها الإثم والذنب المدنسين للأعراض الحاصلين بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، حتى تكونوا طاهرين مطهرين، وأهل البيت المقصود بهم: آله الذين حرموا الصدقة، وزوجاته يدخلن فيهم دخولاً أوليـاً؛ لأن سياق الآية ونزولها فيهن[(1)]، فلم يرد الله بهذه التشريعات أن يجعل عليكم حرجاً ولا مشقة، بل شرعها لكم لتتزكى بها نفوسكم، وتتطهر بها أخلاقكم، وتحسن بها أعمالكم، ويعظم بها أجركم.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾، وهذا فضل عظيم خُصت به زوجات رسول الله ﷺ، أن آيات القرآن الكريم تتلى في بيوتهن حين تنزل على رسوله ﷺ، وكذلك يستمعن إلى الحكمة وهي كلام رسول ﷺ، وهو وحي من الله إليه، فأمرهن أن يشغلن أوقاتهن بقراءة القرآن وحفظه وتلاوته ومدارسة السنة النبوية وحفظها، واللطيف والخبير من أسماء الله الحسنى، فهو عالم بدقائق الأمور، وخبير بجزئيات وتفاصيل الأشياء، وفي أحكامه وتشريعاته من اللطف بالخلق ما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 415).

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

1- أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ اختار لنبيه ﷺ الزوجات الطيبات، حيث ظهر طيبُهن باختيارهن لرسول الله ﷺ والدار الآخرة.

2- أن صوت المرأة لا يكون عورة إلا بالرقة والخضوع أو يحتوي على ما يخدش الحياء.

3- أن الأصل أن تبقى المرأة في البيت لكي تستقر الأسرة ويسعد الزوج وتتربى الناشئة التربية الصحيحة.

4- أن ما يعانيه العالم اليوم من فساد المجتمعات وانحرافها كان سببه إفساد المرأة وإخراجها من بيتها.

5- فضل أهل بيت رسول الله ﷺ، ويشمل أهلُ بيته أقاربه وأزواجَه.

تفسير المقطع الخامس من سورة الأحزاب

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ
وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ
وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا
كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ
عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن
تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ
أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا
فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ
رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾، **جاء في سبب نزول هذه الآية:** أن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسول الله، ما لي أسمع في كتاب الله تعالى ذكر الرجال ولا أسمع ذكر النساء؟ فأنزل الله تعالى هذه الآيات[1]، ليُبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الرجال والنساء على حدٍ سواء في أحكام الشرع، إلا ما اختصته النساء واختصه الرجال باستثناءات محددة، وهنا فرّق بين الإسلام والإيمان، فالإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة، والإسلام أدنى مرتبة من الإيمان **كما قال الله:** ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات:14]، **يعني**: ما زال الإيمان في طور النمو في دخوله إلى قلوبكم وثباتِه فيها، وأركان الإسلام تتعلق بأعمال الجوارح الظاهرة كالصلاة والزكاة والصيام والحج والشهادتين وهما نطق باللسان، وأركان الإيمان الستة تتعلق بأعمال القلب الباطنة، وهي التصديق القلبي بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والقنوت هو دوام الطاعة لله سبحانه، والصدق هو الإخبار عن الشيء مطابقاً للواقع، ويشمل صدق اللسان وصدق القلب وصدق العمل، والصبر هو حبس النفس عن كل ما يُسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويشمل الصبر على طاعة الله بامتثالها، والصبر عن المعاصي باجتنابها، والصبر على أقدار الله وابتلاءاته بعدم السخط منها، والمتصدق هو الذي يبذل ماله للمحتاجين ابتغاء وجه الله، ويشمل الصدقة الواجبة كالزكاة،

---

(1) السنن الكبرى للنسائي: (10/ 219) برقم: (11340)، وأخرجه أحمد: (44/ 199) برقم: (26575) بنحوه، وإسناده صحيح.

والصدقة النافلة، والصيام هو الامتناع عن كل المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بقصد التقرب إلى الله، ويشمل صيام الفرض وصيام النافلة وحفظ الفرج المقصود به استخدامه في الحرام، ويشمل الزنا واللواط والسحاق والعادة السرية، وكشفه لمن لا يجوز له رؤيته، وختم هذه الأعمال الصالحة بذكر الله كثيراً من الرجال والنساء على حد سواء، فعبادة الذكر عبادة سهلة وخفيفة، يستطيع العبد فعلها في كل أحواله، فمن حافظ على أذكار اليوم والليلة المسنونة فقد أصبح من الذاكرين الله كثيراً، ثم بيّن أن من اتصف بهذه الصفات وإن حصل منه ذنب فالله قد أعد له المغفرة سلفًا، وأعد له أجراً عظيمـًا في الآخرة جزاء له، وهو الجنة بما فيها من نعيم مُقيم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، **الواو** استئنافية **أي:** ولا يصح لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله بحكم أن يكون لهم الاختيار في الفعل أو الترك، وإنما يلزمهم الطاعة والامتثال، **وجاء لفظ:** مؤمن ومؤمنة، نكرة في سياق النفي ليفيد العموم لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وقد **ورد في سبب نزول هذه الآية** أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها النبي ﷺ لفتاه زيد بن حارثة، فوقع في نفسها شيء من الرفض، لأنه مولى، فقال لها النبي ﷺ: **"بل انكحيه"**، قالت: أؤمر في نفسي؟! قال: **"نعم"**، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآية[1]، فوافقت وقبلت به، فزوجها النبي ﷺ زيد بن حارثة مولاه، ومن ثمار خضوع زينب لأمر الله أن

(1) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 271).

صارت زوجةً للنبي ﷺ، وزوجها الله من فوق سبع سموات.

وقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾، هذا تهديد ووعيد لمن رفض وخالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ، فهو متوعد بالضلال عن الحق والهداية، فالإسلام يقوم على كمال الخضوع والاستسلام لأمر الله ورسوله ﷺ.

ثم قال الله: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن ما قاله رسوله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وهو الذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بالعتق والمحبة، وخيّره بين أن يجلس عنده أو أن يذهب مع أبيه عندما جاء يبحث عنه، فاختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ، وذلك القول أن زيداً جاء إلى رسول الله ﷺ يشتكي زينبًا ويستأذنُه في طلاقها، فنصحه النبي ﷺ ووعظه بأن يمسكها ولا يطلقها، ونصحه بتقوى الله ومراقبته في علاقته بها.

وقوله: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾، والذي كان يُخفيه النبي ﷺ في نفسه؛ هو أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كان قد أوحى إليه أن زيداً سيتزوج هذه المرأة، وأنها ستبقى معه فترة ثم يُطلقها، وأنها ستكون زوجة لك(1)، فخشي النبي ﷺ أن يُخرج هذا الكلام إلى الناس فيطعنوا في عرضه؛ ويقولون أمر رجلاً بطلاق امرأته ونكحها حين طلقها، أو يقولون: تزوج الرسول زوجة ابنه، لأنه كان يُدعى ابن محمد، وهذه الخشية من باب مُراعاة أحوال الناس، والتفكير في كيفية إخراج الأمر بما لا يُؤدي إلى فتنة للناس، خاصة في ظل وجود المنافقين في

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1550).

المدينة الذين كانوا يتربصون بالمؤمنين، وهذا من حرصه ﷺ أن لا يقع في موطن التهمة في دينه أو عرضه، ومن ذلك ما جاء عن صفية بنت حيي، قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ؛ أسرعا، فقال النبي ﷺ: **"على رسلكما إنها صفية بنت حيي"**، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!!، قال: **"إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً"**(1).

وفي الآية دليل على أن النبي ﷺ لم يكتم شيئًا من الوحي، **وقد قال الحسن** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما أنزلت آية كانت أشد عليه منها، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتمها(2).

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾، **أي:** فلما قضى زيد منها حاجته، ولم يعد له رغبة فيها؛ طلقها وانتهت عدتُها، فزوجها الله برسوله ﷺ، ولم يبحث النبي ﷺ عن وليها ليعقد له بها ولا شاهدين للعقد، واكتفى بنص الآية ودخل عليها مباشرةً، وكانت زينب تفتخر على باقي نسائه بقولها: **"زوجني الله بنبيه من فوق سبع سموات"**(3).

---

(1) صحيح البخاري: (4/ 124) برقم: (3281).

(2) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (6/ 614).

(3) المعجم الكبير للطبراني: (24/ 44) برقم: (122) والمستدرك للحاكم: (4/ 106) برقم: (6853).

ثم ذكر الحكمة من هذا الحكم فقال: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾، فأبطل الإسلام التبني وما يتعلق به من أحكام، ومنها جواز الزواج بزوجة من تبنّاه وانتسب إليه وليس من صلبه، بعد طلاقها أو وفاته عنها وانتهاء عدتها.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾، **أي:** إذا قدره وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا بد أن يقع ولا يتخلف، والمقصود به هنا زواجُ زيدٍ من زينب ثم طلاقُه لها، ثم زواج الرسول ﷺ منها.

ثم قال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾، **هذا بيانٌ لجواز ما فعله الرسول** ﷺ، وردٌّ على استشكال حصل من بعض المنافقين حوله، فرد الله عليهم بأنه لا حرج عليه فيما أحل الله له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها زيد بن حارثة، وكان يقال له زيد بن محمد، وهذا الأمر ليس خاصاً به بل هو سنة جارية في الرسل من قبله، فلم يكن الله ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾، **المقصود بالأمر هنا** الأمر القدري الكوني الذي لا يتخلف، فما قدره وقضاه فهو كائن لا محالة.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾، **هذا وصف للرسل،** فهم مأمورون بإبلاغ الرسالات المنزلة عليهم من الله إلى أُممهم، وأنهم يخشون الله ولا يخافون غيره، والخشية

هي خوفٌ مع تعظيم، فهم يُبلغون رسالات الله بما تحتوي عليه من الأحكام الشرعية ولا يخافون في الله لومة لائم، فكفاهم الله أذية الخلق ومنحهم الله الحفظ والعصمة من شرور الناس، **كما قال** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة:67]، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو الناصر والمُعين والحافظ للرسل، وهو الحافظ لأعمال العباد ومحصيها لهم، وهو المُحاسب للعباد يوم القيامة على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾، **والمقصود بالنفي من السياق** هو زيد بن حارثة، فلم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فلم يعش للنبي ﷺ ولدٌ ذكرٌ حتى بلغ الحلم[1]، بل ماتوا كلهم صغاراً، وهم ثلاثة من خديجة، وواحد من مارية القبطية، والخطاب مُوجه للمؤمنين في عصره، ومعناه أنه لن يعقُبه ذريةٌ من الرجال من بعده، ثم بيّن أن مكانة الرسالة وثمرتها وأثرها عليكم أعظم من مكانة الأبوة وثمرتها، فيلزمكم طاعته أكثر من طاعة الآباء، وطاعته مُقدمة على طاعة الآباء، وهو الذي ختمت به النبوة، فلا نبي بعده، والنبوة أدنى مرتبة من الرسالة، فإذا خُتمت به النبوة فمن باب أولى أن الرسالة قد خُتمت به فلا يوجد بعده نبي ولا رسول!، وكل من ادعى النبوة بعده فهو كذاب في دعواه، ثم ذيّل الآية ببيان علم الله المحيط بالخلق، فالله لا يخفى عليه شيء من أمر العباد، ولحكمة أرادها الله

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 428).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يجعل له ذرية ترثه من الرجال، وأنتم تُشاهدون اليوم ما يحصل بين المسلمين من خلاف بسبب الانتساب إليه بواسطة ابنته، فكيف لو كان الانتساب إلى ابنٍ من أبنائه؟!!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - بيان أن الرجال والنساء متساوون في أحكام الشرع، إلا ما اختصته النساء من أحكام محددة.

2 - أن من أراد أن يكون من الذاكرين الله كثيراً، فليحافظ على أذكار اليوم والليلة المسنونة.

3 - بيان حرص النبي ﷺ على أن لا يقع في موطن التهمة في دينه أو عرضه.

4 - بيان فضل زينب بن جحش وتزويج الله لها.

5 - بيان فضل الرسل وخشيتهم لله وأنهم لا يخافون في الله لومة لائم.

6 - أن مكانة الرسالة وثمرتها وأثرها عليكم أعظم من مكانة الأبوة وثمرتها عليكم.

تفسير المقطع السادس من سورة الأحزاب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ
ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى
ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن
قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا
﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ
أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ
مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن
دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ
لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾، **يأمر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عباده المؤمنين الذين صدقوا به أن يذكروا الله ذكراً كثيراً، وذكر الله

المأمور به هنا هو ذكره باللسان في كل الأحوال الموافق للقلب، بحيث يكون الله حاضراً في قلبِك، ومُعظماً في صدرك، وظاهراً أثره على جوارِحك بالطاعة والامتثال والبعد عن غضب الله ومعصيته، **والمشروع في حق الإنسان** أن يستكثر من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن لا يُفرط في هذه العبادة العظيمة التي هي من أسهل العبادات وأعظمها أجراً، **قال النبي** ﷺ: "**سبق المفردون**"، قالوا: من المفردون يا رسول الله؟ قال: "**الذاكرين الله كثيراً والذاكرات**"[1]، **أي**: استحوذوا على الأجر الكبير بسبب كثرة ذكرهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **وفي الحديث الآخر أن النبي** ﷺ **قال**: "**ألا أُخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "**ذكر الله**"[2]، فذكر الله عبادة عظيمة يغفل عنها الناس كثيراً مع سهولتها، فتستطيع أن تذكر الله على كل الأحوال، **كما قال**: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[آل عمران:191].

وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، وأمرهم أيضاً بتسبيح الله، وهو تنزيهه وتقديسه عن ما لا يليق به سبحانه، وتسبيحه سبحانه مشروع في كل الأوقات، ولكنه خص البكرة والأصيل وهما الصباح والمساء، لشرف هذه الأوقات وسهولة العمل فيها، ولكي يبدأ يومه بذكر الله، ويُنهي يومَه بذكر الله، وفيه فضل

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 2062) برقم: (2676).

(2) مسند أحمد: (36/ 33) برقم: (21702)، وسنن الترمذي: (5/ 320) برقم: (3377)، وإسناده صحيح.

الذكر والتسبيح صباحًا ومساءً، فكأنه غطاء لعمل اليوم كله.

وقولـــــه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾، وهذا أسلوب من أساليب التحفيز لهم إلى ذكر الله، **أي:** إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم أيضًا، والصلاة لها معنى بحسب إضافتها إلى المصلي، فالصلاة من الله على العباد، ثناؤه عليهم، فالله يُثني على عباده بذكرهم بالوصف الجميل في الملكوت الأعلى، **وفي الحديث القدسي:** **"من ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير منهم"**(1).

وصلاة الملائكة عليهم الدعاء والاستغفار لهم، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾[غافر:7] وبيّن لنا الغاية من ثناء الله على العباد واستغفار الملائكة لهم، وهي إخراجهم من ظلمات الشرك والكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والإيمان والعلم والمعرفة والهداية والاستقامة، وجمع الظلمات لكثرة أنواعها وتعددها، وأفرد النور لأنه واحد، وما فعله بالمؤمنين من الثناء عليهم، وإخراجُهم من الظلمات إلى النور بدعاء الملائكة لهم وإرسال الرسل إليهم، وتوفيقهم للهداية وقبول الحق ونحوها من النعم، هو أثر من آثار رحمة الله بهم في الدنيا، ثم بيّن سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب، بل هي عامة لهم ولمن بعدهم، ورحمته بالمؤمنين أعم من صلاته عليهم؛ لأنها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم.

(1) صحيح البخاري: (9/ 121) برقم: (7405).

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾، **الضمير يعود إلى المؤمنين،** فتحية المؤمنين يوم يلقون الله جَلَّ وَعَلَا في الآخرة سلامٌ من الله، وسلام من الملائكة، وسلام بعضهم على بعض، والسلام اسمٌ من أسماء الله تعالى، ومعناه: الذي يسلمهم من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخاوف، فالناس يوم الحشر في فزعٍ وخوف إلا المؤمنين فقد رفع الله عنهم الخوف والفزع، **كما قال:** ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النمل:89]، المؤمن يشعر بالأمن والأمان والسلام، حينما يلقى الله في الحشر، ثم يدخله الله الجنة التي فيها الأجر الكريم له، فيناله مُعززاً مُكرماً غير مُهان.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾، ناداه باسم النبوة وأخبره بوصف الرسالة، لأن من بلاغة القرآن البعد عن التكرار، وجمع له بينهما تشريفاً له، وذكر مهمته والغاية من إرساله وهو أن يكون شاهداً على وحدانية الله وأنه المعبود الحق دون سواه، وشاهداً على أمته بالبلاغ، وأن الله لم يتركها هملاً بل قد أرسل إليها رسولاً وأنزل إليها كتاباً، حتى لا تأتي يوم القيامة **تقول:** ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[طه:134]، وجعله مُبشراً ونذيراً، والتبشير هو الوعد بالخير، **والنذارة هي** الوعد بالشر، **والمعنى** أن النبي ﷺ مُبشر للمؤمنين به، ومُنذر للكافرين به، فمن اتبعه فقد بشّره بالجنة، ومن عصاه فقد أنذره بالنار.

وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾، ومن مُهمته أيضاً الدعوة إلى الله، وهي الدعوة إلى توحيد الله وطاعته وما يقرب منه، **كما قال الله له:**

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾[النحل:125]، **وأمة محمد ﷺ تنقسم إلى قسمين: أمة الدعوة:** وهم كل من عاش في زمنه أو بعد زمنه إلى قيام الساعة، فدعوته موجهة إليهم كلهم، **كما في الحديث: "والله لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار"**(1)، **وأمة الإجابة:** وهم من آمن به وامتثل أمره ودخل في دينه، وهو مأمور بدعوتهم وتعليمهم الإسلام وأحكامه، والإذن هنا بمعنى الأمر، فمحمد ﷺ ما جاء من عند نفسه، وإنما بعثه الله وأمره أن يدعو إلى دينه، ووصفه بالسراج المنير، وهو المصباح، الذي يستنير به كل من يريد الهداية، والناس قبل بعثة محمد ﷺ كانوا في ضلال مبين، والمقصود هنا بالإنارة المعنوية وهو ما جاء به النبيء ﷺ من الهدى والنور.

وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ ﴾، بشِّر من آمن بك واتبعك وسار في طريقك بالفضل العظيم الكبير الذي أعده الله لهم في الآخرة، وهو الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وقد يجدون شيئاً من هذا الفضل الكبير في الدنيا كالنصر والتمكين والحياة السعيدة، وفي الآية إشارة إلى تحفيزهم إلى الإيمان وبيان حقارة الدنيا، مقابل ما أعد الله لهم من الفضل الكبير في الآخرة.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾، نهاه الله عن طاعة الكفار والمنافقين في ما يقترحون عليه من أمر الدين، وأمره بالإعراض عنهم، والصبر على الأذى الذي يأتيك منهم، فلعلَّ ذلك أدعى لتأليف قلوبهم وأن يقبلوا بالإسلام؛ لأن التعامل

(1) صحيح مسلم: (1/ 134) برقم: (153).

الحسن له أثر على الإنسان ولو كان كافراً، بخلاف التعامل الشديد والغلظة عليه فقد تُنفره عن الحق، **والمعنى** لا تُجاملهم في الدين، وامنحهم شيئًا من أخلاقك، ولا حرج عليك في ذلك، وأمره بالتوكل على الله، وهو تفويض أمره إلى الله، وهو من أعظم الوسائل لدفع أذيتهم؛ لأن من توكل على الله كفاه، فكفى بالله وكيلاً يعتمد عليه العباد في جميع أمورهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾، يأتي لفظ النكاح في القرآن ويُقصد به الجماع بعد العقد، ويُقصد به العقد فقط، ويتم التفريق بين المعنيين من خلال السياق، والمقصود به هنا العقد، لذكر عدم المس بعده، وهو الجماع، فمن عقد على امرأة بشروط العقد المعروفة، ثم لسبب أو لآخر طلّقها قبل أن يُجامِعها، فلا عِدَّة لها، **أي:** لا يلزمها الانتظار فترة من الزمن لكي يخطبها أو يعقد عليها شخص آخر، فرحمها بريئة من الحمل لعدم الجماع؛ لأن العدة شرعت من أجل استبراء الرحم، ولا يحل لزوجها مراجعتها لأنها قد بانت بينونة صغرى، **وذكر لفظ:** (المؤمنات) خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في هذا الحكم بين المؤمنة والكتابية، وفيه إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فإنها أشد تحصيناً لدينه[1]، **والآية تدل على** أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه عقد النكاح، وهو مذهب الجمهور[2]، **وهو الراجح**

(1) ينظر: تفسير الرازي: (25/ 175).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 440).

لحديث: "**لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك**"[1]، ثم ذكر ما لهذه المطلقة من حق على زوجها، وهو المتعة، فإن كان قد سمى لها صداقًا؛ فليس لها إلا نصفه كما قال: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾[البقرة:237]، وإن لم يكن سمى لها صداقًا؛ فيمتّعها بشيء من المال على قدر عسره ويسره، كما قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[البقرة:236]، يُطّيب به نفسها، وأمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الأزواج أن تكون المفارقة لزوجاتهم بطريقة مهذبة ليس فيها ظلم ولا إغلاظ بالقول، بل يُودِّعْها توديعًا حسنًا، وهو السراح الجميل، فكل واحد منهما يذهب في حال سبيله بنفسٍ طيبة بدون شقاق ونزاع، كما قال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾[النساء:130]، حرصًا على بقاء العلاقات الحسنة بين الأسر، خاصة إذا كان الرجل متزوجًا من أقاربه.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾، أخبر الله سبحانه نبيه ﷺ أن قد أباح له أن يتزوج كل امرأة أعطاها مهرها، وأباح الله له مع الزوجات التسرّي بملك اليمين مما غنمه من الكفار بدون مهر ولا عقد نكاح، وهذه أحكام يشترك فيها معه عموم المؤمنين، والفيء يشمل الغنيمة، وإن كان الفيء يطلق على المال الذي يتم الحصول عليه من الكفار بدون قِتال، والغنيمة هي المال الذي يتم الحصول عليه بعد قتالٍ وانتصار على الكفار.

---

(1) سنن أبي داود: (2/ 258) برقم: (2190)، وسنن ابن ماجة: (3/ 202) برقم: (2047)، وإسناده حسن.

وقولــه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، وأباح له أيضـًا هؤلاء الأصناف القريبين والبعيدين منه، وهذا حصر المحللات، وما عداهن من الأقارب غير محلل، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقـًا والأصول مطلقـًا وفروع الأب والأم وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح له[1]، وهذا حكم عام يشترك فيه النبي ﷺ مع باقي المؤمنين، إلا أنه قيّد هذا الحكم في حقه بالمهاجرات، فلا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء، وأما غيره لا يلزمه هذا القيد، وليس المقصود مرافقته في الهجرة، وإنما حصل منهن الهجرة من مكة إلى المدينة سواءً تقدّمْنَ أو تأخر عنهن.

وقولــه: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا حكـمٌ خاص برسول الله ﷺ، وهو أن يتزوج امرأة مؤمنة وهبت نفسها له بدون عقد ولا مهرٍ ولا ولي، وليس بواجب على النبي ﷺ قبول الواهبة نفسها له، بل الأمر يرجع إليه إن شاء قبلها وإن لم يشأ ردها وزوجها غيره، وذلك لأن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس مروءةً وأخلاقـًا، وكان شديد الحياء في التعامل مع أمته، فصرح له هنا بأن الأمر يعود إلى إرادته وعدمها رفعـًا للحرج عنه، **وفي الحديث**: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ، فقال: **"ما لي في النساء من حاجة"**، فقال رجل: زوجنيها، قال: **"أعطها ثوبـًا"**، قال: لا أجد، قال: **"أعطها**

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 669).

ولو خاتمًا من حديد"، فاعتل له، **أي**: تعلّل أنه لم يجده، فقال: "**ما معك من القرآن؟**"، قال: كذا وكذا، قال: "**فقد زوجتكها بما معك من القرآن**"[1]، فزوّجه بها وأنهى مشكلة الواهبة، وأنهى مشكلة هذا الشاب الذي طمع بالزواج منها.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾، **الضمير في عليهم يعود إلى المؤمنين**، **والمعنى** أن الله تعالى قد علم ما ينبغي من حيث الحكمة فيما أوجبه عليهم من أحكام تتعلق بالزواج، **مثل**: أن لا يزيدوا على أربع، وأنه يلزمُهم تسمية المهر، والشهود، والولي، ونحوها من الأحكام، ولا يقيسون حالهم على حالك، **والحكمة من هذا البيان والشرح** رفع الحرج عنك، ولكي لا يظن بأنك قد فعلت ما لا يجوز لك فعله، وهذا من عناية الله تعالى برسوله ﷺ، وختم الآية ببيان أنه غفور لمن أذنب، ورحيم بالمؤمنين، وجمع بينهما: لأن الإنسان يخافُ ذنبَه فيحتاج إلى مغفرة الله، وينقُص أجرُه فيحتاج إلى رحمة الله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - فضيلة ذكر الله سبحانه، وأثره في صلاح العبد واستقامته.

2 - بيان كرامة العباد عند الله ورحمته بهم وتسخير الملائكة للدعاء لهم.

3 - بيان أهمية التوكل على الله في الدعوة إلى الله ومواجهة أذى المخالفين.

(1) صحيح البخاري: (6/ 192) برقم: (5029).

4- أن المؤمن يشعر بالأمن والأمان والسلام، حينما يلقى الله في الحشر، ثم يدخله الله الجنة التي فيها الأجر الكريم له.

5- أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه عقد النكاح.

6- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ برفع الحرج عنه فيما شرع له من أحكام خاصة به دون أمته.

تفسير المقطع السابع من سورة الأحزاب

﴿ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ
نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا
سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ
لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ
عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ
عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ
وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، هذه الآية نزلت في إباحة مصاحبة النبي ﷺ لنسائه ومعاشرتهن كيف شاء من غير حرج عليه في ذلك تخصيصًا له وتفضيلاً، فأبيح له لمن أحب منهن يومًا أو أكثر، ويعضل من شاء منهن فلا يأتيها[1]، والإرجاء، هو تأخير الشيء، ومنه قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[الشعراء:36]، والمعنى إن الله قد رفع عنك يا محمد العدل والقسمة مع زوجاتِك في المبيت، وجعل الأمر إليك في ذلك، وذلك تخفيفًا عنك ورفعًا للحرج والمشقة عليك، وحتى لا يكون ذلك حقًا لزوجاته، فيطالبنه به؛ نظراً لما بين الضرائر من الغيرة، ولمّا نزلت هذه الآية، قالت عائشة: "يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"[2]، فأباح الله له أن يؤخِّر من أراد من نِسائه، وأن يردَّ من أحب إلى فراشه، وهذا من خصائصه، وليس ذلك لغيره من أمته.

وكان من النساء اللاتي آواهن النبي ﷺ: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، وكانت قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن.

وكان من النساء اللاتي أرجأهن النبي ﷺ: سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية، وكان يقسم لهن ما شاء، وكان قد أراد أن يفارقهن؛ فقلن له: اقسم لنا من نفسك ما شئت ودعنا على حالنا[3].

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 277).

(2) صحيح البخاري: (7/ 12) برقم: (5113).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 292).

وقولـــه: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، ذلك التخفيف والتوسعة عليك في إسقاط وجوب القسمة عليك أقرب لرضى زوجاتك عنك؛ لعلمهن أنك لم تترك واجبًا، ولم تفرط في حق لازم، فلا يُصيبُهن حزن بسبب تقديمك بعضهن دون بعض، ويرضين جميعًا بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء، وعزل وإيواء.

وقولـــه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾، **أي**: من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، **وفي الحديث**: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: "**اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**"(1)، **وأتى بلفظ الجمع**؛ ليعم قلوب كل الرجال المعددين بالزوجات، ليحذروا من الظلم، **وفي الحديث**: "**من كان له أكثر من زوجة ثم لم يعدل إلا جاء يوم القيامة وشقُّه مائل**"(2)، **والمقصود بالعدل هنا**: العدل الحسي بالنفقة والمسكن والمبيت، ولا يلزمُ من ذلك المبيت أن يُجامِعَها؛ لأن الرغبة في الجماع مبنيٌ على الهوى والميل القلبي، فقد يوجد في إحداهن ما يدفعُه إليها أكثر من غيرها، وذيّل الآية بإحاطة علم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالخفي والجلي، فلا يخفى عليه شيء من أمور الناس وأعمالهم، والحليم هو الذي يحلم على عباده حينما يقعوا في الذنوب، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، بل يُمهلهم لعلهم يتوبون إليه.

---

(1) سنن الدارمي: (3/ 1416) برقم: (2253)، وسنن أبي داود: (2/ 242) برقم: (2134)، وإسناده صحيح.

(2) سنن الدارمي: (3/ 1415) برقم: (2252)، وسنن أبي داود: (3/ 469) برقم: (2133)، وإسناده صحيح.

ثم قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾، هذه الآية منطوقها يدل على أن الرسول ﷺ يحرُم عليه أن يتزوج فوق زوجاتِه الموجودات، ويحرم عليه طلاقهن واستبدالهن بغيرهن من النساء[1]، ولو أعجبه حُسن غيرهن، واستثنى من ذلك ملك اليمين، فلو أرد أن يتمتع بملك اليمين غير ما عنده فهذا جائزٌ له، ورقيب بمعنى حفيظ، **أي**: يحفظُ العبد ويرقبه، وفيه معنى التخويف للإنسان فإنه يعيش تحت رقابة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا يعصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويقع فيما يُسخطُه، وهل هذه الآية مُحكمة أم منسوخة، **قولان للعلماء**[2]: **الأول**: إنها منسوخة، ثم اختلفوا في الناسخ لها، فمنهم من قال: نسختها السنة، **كما في حديث عائشة**: "أن النبي ﷺ ما مات حتى أُبيح له أن يتزوج ما شاء من النساء"[3]، **ومنهم من قال**: نسختها الآية التي قبلها.

والقول الثاني: إنها غير منسوخة، وإن معناها مقصور على تحريم الكافرات عليه فقط، واختار هذا القول الطبري[4]، والراجح الأول، ولكنه أيضاً مع الإباحة لم يتزوج عليهن ولم يطلق امرأة منهن.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 449).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 299).

(3) مسند أحمد: (40/ 165) برقم: (24137)، وسنن الترمذي: (5/ 356) برقم: (3216)، وإسناده صحيح.

(4) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 300).

ثـــم قـــال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، تتحدث هذه الآية عن بعض الأحكام المتعلقة بدخول بيت النبي ﷺ، وهو حكم عام لكل البيوت، وقد جاء سبب نزول الآية من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله هذه الآية، **وقد نزلت هذه الآية في حادثة خاصة بالنبي** ﷺ، وقد جاء سبب نزول الآية، وقد سبق معنا أن النبي ﷺ كان كثير الحياء وخاصة في القضايا الشخصية، فاستحى أن يقول لهم: اخرجوا، فنزل القرآن لرفع الحرج عنه وتعليم الأمة الآداب اللازمة للتعامل معه، **ومنها:** عدم دخول بيوت الرسول ﷺ إلا بإذن منه، وأن لا تأتي إلى طعام ما لم تُدعى إليه حتى لا تكون مُتطفّلاً، ولا تأتي قبل وقت الطعام بوقتٍ كثير، فتنتظر وقت نضج الطعام، ثم إذا انتهيت من الطعام، فاذهب واترك البيت لأهله، ولا تمكث في البيت مع غيرك من المدعوين تتجاذبان الحديث ويستأنس بعضكم بكلام بعض، فليس هذا وقته ولا مكانه، فإنما دعيت للطعام فقط فلا تتجاوزه إلى غيره من المصالح الأخرى، فلا تقول: هذه فرصة قد وجدتُ فيها فلانًا للحديث معه، فهذا التصرف يؤذي رسول الله ﷺ؛ لأن رسول الله ﷺ لديه أعمال ومشاغل أخرى، ومن كرم أخلاقه وحيائه فيما يتعلق بشؤونه الخاصة، أنه كان يستحي من التصريح لهم بما يرغب به،

بخلاف الأحكام الشرعية التي أُمر ببلاغها، فإنه كان لا يسكت عنها، فتولى الله سبحانه البلاغ عنه فيما يخصه، فالله لا يستحيي أن يبيّن لكم ما هو الحق فتعرفوه وتعملوا به، وهذا الحكم عام يشمل كل من دعاك من الناس، فلا تدخل بيتاً إلا بإذن صاحبه، ولا تذهب إلى زيارة شخصٍ في موعد أكله، لأنك ستُحرجه، ولا تحضر وليمة إلا بدعوة، ولا تكن طُفيلياً، **وفي الحديث:** "أن رجلاً من الأنصار رأى رسول الله ﷺ، فعرف في وجهه الجوع، فقال لغلامه: اصنع لنا طعاماً لخمسة، فإني أريد أن أدعو النبي ﷺ خامس خمسة، فجاء النبي ﷺ خامس خمسة وتبعهم رجل، فلما بلغ الباب، قال النبي ﷺ: "**إن هذا تبعنا، فإن شئت أن تأذن له، وإن شئت رجع، قال: بل آذن له يا رسول الله**"[1]، فالنبي ﷺ لم يسمح له أن يدخل بدون دعوة من الرجل، وإن كان جاء برُفقته، لأن هذه صورة من صور التطفل التي لا يفعلها أهل المروءة، فكن فطناً وانظر في ملامح وجه الداعي لك وحركاته وافهم رغبته، فالناس ما زال عندهم مروءة وكرم، ولا يمكن أن يقول أحدهم لضيفه: اخرج، انتهى الوقت لجلوسك!!.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، هذه آية الحجاب، **وفيها أحكام وآداب شرعية**، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟! فأنزل الله آية الحجاب"[2]،

---

(1) صحيح ابن حبان: (12/ 111) برقم: (5300).

(2) صحيح البخاري: (6/ 118) برقم: (4790).

والمعنى إذا احتجتم أن تسألوا إحدى زوجات النبي ﷺ شيئًا، سواء من أمتعة البيت أو سؤال استعلام عن شيء من علم أو فقه، ونحوه، فاسألوهن من وراء ستار بحيث يحجب المرأة عن السائل، ذلكم، **أي**: السؤال لهن من وراء حجاب، أزكى وأطهر لقلوب الرجال والنساء؛ لأن النظر إلى النساء وأجسادهن مباشرة، سبب للفتنة؛ لأن كلاً منهما مفطور على الانجذاب والميل إلى الآخر، والخطاب لزوجات النبي ﷺ لشرفهن، ولكن الحكم يشمل كل النساء، وفي هذا تحذيرٌ لكل مؤمنٍ من الخلوة مع من لا تحل له، أو الحديث من دون حجابٍ مع من تحرم عليه، اعتماداً على الثقة بالنفس، فكلما بَعُد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾، **جاء في سبب نزولها** أن رجلاً قال: لو مات رسول الله لتزوجت عائشة، فنزلت الآية[1]، **والمعنى** ما صح لكم ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء، ومن ذلك الخوض في الحديث عن زوجاته خصوصًا، ويحرم عليكم الزواج بهن بعد وفاته؛ لأنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، وقد صرن في المحرمية مثل أمهاتكم، **كما قال**: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: 6]، وهذا الحكم يعم كل من مات النبي ﷺ عنها من زوجاته وقد دخل بها، أما التي تزوجها وفارقها قبل الدخول بها، فليست من أزواجه، كما حصل مع ابنة الجون التي زُفت إليه، فلما جاء رسول الله ﷺ ليدخل عليها، قالت: أعوذ بالله منك،

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (10/ 3150).

فقال لها: "**لقد عُذتِ بعظيم، فالحقي بأهلك**"[1]، فهذه لا تعتبر من زوجاته، واسم الإشارة (ذلكم) يعود على ما سبق ذكره من أفعال منهي عنها، فهو ذنب عظيم عند الله، وإثمُه كبير، والعقوبة عليه شديدة.

ثم قال الله: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾، **أي:** قد أحاط الله بكل أعمالكم الظاهرة والباطنة أخفيتموها أو أظهرتموها وسيُجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وفي ذلك إشارة إلى ما سبق من أحكام فبعضها يتعلق بالظاهر، وبعضها يتعلق بالباطن، والعبد قد يكون صادقًا فيها ظاهراً وباطنًا، وقد يكون صادقًا في الظاهر وعنده خلل في الباطن، فوعظهم الله بإصلاح بواطنهم كظواهرهم وحذرهم من إخفاء ما لا يحبه الله ولا يرضاه منها.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾، الخطاب في سياق الحديث عن زوجات النبي ﷺ، حيث أُمر الناس أن يسألوهن من وراء حجاب فالحُكم عام، فلا بد أن يُخص هذا العموم بالأجانب، أما المحارم فمستثنون من هذا الحكم، فلا حرج على المرأة أن تتخاطب وتظهر بدون حجاب مع المحارم، وهم الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات، وهؤلاء المحارم من الرجال، لم يُذكر الخال ولا العم؛ لأنهم قد ذُكروا في آيات سابقة، ولا حرج عليهن أن يظهرن دون حجاب على النساء المؤمنات، أو على النساء من جنسهن إذا كن موثوقات، ولا

(1) صحيح البخاري: (7/ 41) برقم: (5254).

حرج عليهن كذلك من الظهور بدون حجاب على عبيدها وإمائها، وكل ذلك مصحوب بتقوى الله في السر والعلن؛ لأن هذه الأمور تحتاج إلى مراقبة الله سبحانه، وكلها أمور خفية تحتاج إلى تقوى الله والخوف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذيّل الآية بأن الله شهيد على الخلق يعلم ظواهر أعمالهم وبواطنها، وما يدور في سرهم وعلانيتهم من خيرٍ أو شر، ثم يجازيهم على ذلك.

وخُتمت هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، أخبر الله عن مكانة محمد ﷺ عنده ومحبته له، وأن الله يثني عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى، وأن الملائكة المقربون يثنون عليه، ويتضرعون إلى الله بالدعاء والاستغفار له، فبيّن أنه مُكرّم عند الله وملائكته يثنون عليه الثناء الحسن في الملكوت الأعلى، ثم طلب من المؤمنين أن يقتدوا بالله وملائكته في ذلك، وهو أسلوب من أساليب التحفيز والتشويق؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا، ويحصل للمؤمنين الأجر والثواب بفعلهم هذا، **ففي الحديث: "من صلّى علي واحدة صلّى الله عليه عشراً"**[1]، وبيّن لهم كيفية الصلاة عليه، فقال: **"قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد"**[2]، ويستحب الإكثار من الصلاة عليه، **فعن** أُبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟، أي من دعائي، فقال: **"ما**

(1) صحيح مسلم: (1/ 306) برقم: (408).
(2) صحيح البخاري: (4/ 146) برقم: (3369).

شئت"، قلت: الربع؟، قال: **"ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"**، قلت: النصف؟، قال: **"ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"**، قلت: فالثلثين؟، قال: **"ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"**، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟، قال: **"إذاً تكفى همك، ويغفر لك ذنبك"**[1]، فالصلاة على رسول الله ﷺ مشروعة في أي وقت، وعند ذكر اسمه، **كما في الحديث**: **"البخيل من ذُكرت عنده ولم يُصل عليّ"**[2]، ﷺ وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابِه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن مقام النبي ﷺ عند ربه عظيم، ومكانته لديه عالية.

2 – بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الخُلق العظيم، وشدة الحياء والمروءة.

3 – بيان مقام زوجات النبي ﷺ ومكانتهن، ووجوب حفظ حقهن وحُرمتُهن في حياته وبعد مماته.

4- لا حرج على المرأة في الظهور بدون حجاب أمام محارمها والحديث معهم.

5 – بيان فضيلة الصلاة علي النبي ﷺ، وأجر من صلى عليه من أمته.

---

(1) مسند أحمد: (35/ 166) برقم: (21242)، وسنن الترمذي: (4/ 218) برقم: (2457). وإسناده حسن.

(2) مسند أحمد: (3/ 257) برقم: (1736)، وسنن الترمذي: (5/ 551) برقم: (3546). وإسناده صحيح.

تفسير المقطع الثامن من سورة الأحزاب

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا
﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا
وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن
جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾
سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾، ذكر في الآية السابقة ثناء الله والملائكة على رسوله ﷺ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وذلك تعظيمًا لشأنه، ثم ذكر بعدها حكم من يُؤذونه، ليُعرف الفرق بين الصنفين، **والأذية لذات الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير متحققة؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يلحقه أذى من أحد، **والمعنى** يخالفون الله ويعصون أمره ويقولون في ذاته ما هو منزه عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كقول اليهود: عزير ابن الله، ويد الله مغلولة، وإن الله فقير، **وكقول النصارى:** المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وكقول المشركين: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه، ونحوها من الأقوال

الباطلة، فسمى مخالفتهم وأقوالهم الباطلة أذية لله بناءً على ما تعارف عليه الناس فيما بينهم، والواو للعطف، فحُكم أذية الله كحُكم أذية رسوله ﷺ، وأذيته ﷺ حقيقية، **كقول قريش**: إنه ساحر وكاهن وشاعر وكذّاب، ونحوها من الألفاظ، وكأذية المنافقين له حين طعنوا في عرضه، ونشروا حديث الإفك في زوجته، حتى قام ﷺ خطيباً فقال: "**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي والله ما علمت على أهلي إلا خيراً**"(1)، ونحوها من أنوع الأذى الذي وقع له من المخالفين، فمن وقع منه الأذية لله ورسوله فهو ملعون في الدنيا والآخرة، **واللعن**: هو الطرد والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة؛ لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم، وحكم من آذى الرسول ﷺ بالسب والشتم ونحوه، أنه يُقتل حداً إن تاب، وردةً إن لم يتب، بخلاف من سب الله، فإنه يستتاب؛ فإن تاب لم يُقتل، وإلا قُتل ردة، وذلك لأن حق الله مبني على العفو، وحق الرسول حق لآدامي مبني على المشاحة(2)، وكل من تعرّض لرسول الله ﷺ بنقيصة أو أذية؛ جاءته عاقبة فعله في أهله أو ماله أو نفسه أو بها جميعاً في الدنيا قبل الآخرة، وفي هذا عِظة وعِبرة للمُعتبرين، وقد وردت بعض القصص لمن تعرّض لرسول الله ﷺ بالأذية، **منها: عن** أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رجلٌ نصرانيٌ فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانياً، فكان يقول: لا يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله

(1) صحيح مسلم: (4/ 2129) برقم: (2770).

(2) ينظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص: 551).

فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له وأعمقوا في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه"[1]، فهذا الملعون قصمه الله وفضحه وأخرجه من القبر بعد أن دُفن مراراً، وهذا أمر خارج عن العادة يدل على أن هذا عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذباً إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا[2].

ومنها: أن بعض أمراء المغول تنصر، فحضر عنده جماعة من كبار النصارى والمغول، فجعل واحد منهم ينتقص النبي ﷺ، وهناك كلب صيد مربوط، فلما أكثر من ذلك وثب عليه الكلب فخمشه، فخلصوه منه، وقال بعض من حضر: هذا بكلامك في محمد ﷺ، فقال: كلا، بل هذا الكلب عزيز النفس لأني أشير بيدي إليه، ثم عاد إلى ما كان فيه من السب، فوثب الكلب عليه مرة أخرى فقبض على حنجرته فقلعها، فمات في الحال، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفاً من المغول[3]، وكان عِبرة للحاضرين!!، وغيرها من القصص في هذا الباب، فالتاريخ مليء بالقصص والنهايات السيئة لكل من تعرض للرسول ﷺ بالأذية، وأن مصيره الهلاك وعاقبته وخيمة، وإن حصل له شيء من التلميع من قِبل الأعداء؛ فسرعان ما يقصمه الله!، وأما عذابهم في الآخرة فقد أعد الله لهم عذاباً مهيناً في جهنم، والعياذ بالله.

(1) صحيح البخاري: (4/ 202) برقم: (3617).

(2) ينظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص: 116).

(3) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (4/ 153).

ثـــم قـــال الله تعـــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾، قيّـد أذيـة المـؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وفي أذية الله ورسوله لـم يقيّـدها بشيء، فهـي ممنوعـة مُطلقـًا، بينما أذية المؤمنين والمؤمنات أحيانـًا قد تكـون جائزة، بسبب فعله، فيعاقب عليه، مثل: السارق يـؤذى بقطـع يده، والـزاني البكـر يـؤذى بجلـدِه مائة جلْدة، ونحوها من الحدود والتعزيرات، أو تكون الأذية هي رد السيئة بمثلها، فتكـون جوابـًا على أذيةٍ صدرت منه لغيره، فهذا لا حرج فيه، لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[الشورى:40]، وإن كان الأفضل العفو والصفح عمن أساء إليك، أما أن تـؤذي مؤمنـًا أو مؤمنة بـدون حق فهـذا لا يجوز، ومن فعـل ذلـك فقد وقـع في البهتان، وهو ذكر الإنسان بما ليس فيه، وهو أشد من الغيبة، لأنهم آذوهـم بـدون سبب، ووقعوا في الإثـم الواضـح؛ لأنهـم انتهكـوا حقـوقهم وتعـدوا عليهـا بـدون حق، وجزاء البهتـان والإثـم المُبين، هـو العـذاب الألـيم في الآخـرة إن لـم يتـب صاحبه قبل موته، ولا شك أن أذية الله ورسوله أعظم وأخطر من أذية المـؤمنين، فأذية الله ورسوله كفر مخرج من الملة، ولذلك تُبحث في مسائل الاعتقـاد، بينمـا أذية المؤمنين معصية وذنب، وتُبحث في مسائل الفقه.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾، **تُسمى هذه الآية بآية الحجاب**، وكان من عادات العرب ألا تحتجب المرأة من الرجال الأجانب، وكان يمتازون بالعفة والحياء، ولما استقر النبي ﷺ في المدينة نزلت الأحكام

التفصيلية، ومنها حكم الحجاب للنساء عامه، وأمره الله بإبلاغ زوجاته وبناته ونساء المؤمنين بهذا الحكم، وبدأ بزوجاته وبناته، لأنهن أولى من غيرهن، ولأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله، وبناتِك: جمع بنت، وكنّ أربعًا، وهن بالترتيب: زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية، وأمهنّ كلهن خديجة، رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُنَّ جميعًا، **وفي هذا ردٌّ واضح على بعض الرافضة المعاصرين الذين يقولون:** إنه لا يوجد لرسول الله ﷺ إلا بنتًا واحدة، وهي فاطمة، **والجلباب:** هو الثوب الذي يُلبس فوق الثياب من خمار ونحوه، وهو في العادة الذي يُلبس من الرأس فيُغطي الوجه والصدر، **والإدناء:** أن تُسدِله من رأسها على وجهها وصدرها؛ لأن الوجه مكان الزينة، ثم يأتي بعد الوجه العُنق والجيب الذي يكون مفتوحًا في أعلى الثوب، ثم يأتي الصدر بعد ذلك وهو مكان الثديين وفيهما تكون الفتنة، ذلك **أي:** الحجاب، وأدنى: بمعنى أقرب، ويُعرفن، **معناها**[1]: أن يعرفن أنهن حرائر فلا يؤذيهن أحد بالتعرض لهن، فالحرة آنذاك كان لا يتعرض لها أحد من الناس لعفتها وبعدها عن الزنا، خلافًا للإماء، ولذلك لما بايع النبي ﷺ النساء، **وذكر من بنود البيعة:** ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾[الممتحنة:12]، قالت هند: أو تزني الحرة؟!![2]، سؤال استنكار واستغراب، وهذا الوصف ينطبق على ذلك العصر، أما الآن فالجميع أحرار، **ويمكن أن يدخل في معناه اليوم، أن يقال:** ذلك أدنى أن تُعرف العفيفة بحجابِها من غير العفيفة بتبرجها، وهذا الأمر مُلاحظ في الواقع، فالمرأة المُحجبة الساترة لجميع مفاتنها؛ يتهيب أن يتعرض لها أحد، بخلاف المتبرجة،

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 482).

(2) مسند أبي يعلى الموصلي: (8/ 194) برقم: (4754).

فغالبًا ما يتعرضن للأذية من السيئين من الناس، فإذا أرادت المرأة أن لا تُؤذى من الفاسدين في الشوارع؛ فلتخرج محجبة الحجاب الشرعي الكامل؛ ليكون ذلك عنوانًا على عفتها ودينها، فيبتعد عنها شياطين الإنس، فإن قصّرت في الحجاب وأوذيت منهم فهي السبب، لأن التبرج وعدم الحجاب سبب من أسباب أذية الرجال للنساء، وختمت آية الحجاب بأن الله غفورٌ رحيم، فهو غفور لما قد يحصل من بعضهن من تقصير بعد نزول آية الحجاب، ورحيمٌ بهن حيث أعطاهن الفرصة للتوبة والإنابة والرجوع إليه سبحانه.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾، هذه صفات لصنف واحد[1]، وهم المنافقون، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ومنهم الزناة الذين كانوا يتعرضون للنساء إذا خرجن لقضاء حاجتهن في الليل فيُؤذونهن، ومنهم المرجفون الذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تُؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار بين أهل المدينة، حيث حذرهم من الاستمرار في هذه الأفعال القبيحة، وإن لم ينتهوا عنها؛ لنأمرنّك بقتالهم، ونُسلِّطك عليهم، فتطردهم من المدينة وتخرجهم منها، ولا يبقون فيها إلا فترةً قليلة هي مدة تجهيز متاعهم للخروج منها، وفي الآية إشارة إلى جواز طرد المفسدين في البلد منها، وهذا يرجع إلى الحاكم المسلم وبحسب المصلحة العامة للأمة.

وقوله: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾، أي: تحل

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 245).

عليهم اللعنة أثناء طردهم وخروجهم وأين ما حلوا، وفي أي مكانٍ نزلوا فيه أو زمان ظُفر بهم فيه فحكمهم القتل، بسبب كفرهم ونفاقهم، وفسادهم في الأرض.

وقولــه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾، أي: سنة ماضية في حق أمثالهم ممن سبقهم من الأمم السابقة، فمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه يقتل أو يطرد من بلده تخلصاً من شره، ولن تجد لهذه السنة تغييراً ولا تبديلاً، فهي تسير وفق أمر الله وحكمه وشرعه، وهو الذي لا مُعقب لحكمه ولا راد لقضائه جَلَّ وَعَلَا.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان خطورة أذية الله ورسوله، وأن من فعل ذلك فهو كافر مرتد عن الإسلام.

2- بيان خطورة أذية المؤمنين والمؤمنات بدون حق، وأن ذلك من كبائر الذنوب.

3- أن الحجاب صون وأمان للمرأة، فالمُحجبة الساترة لجميع مفاتنها؛ يتهيب أن يتعرض لها أحد، بخلاف المتبرجة، فغالبًا ما يتعرض للأذية من فساق الناس.

4- جواز طرد المفسدين في البلد منها، وهذا يرجع إلى الحاكم المسلم وبحسب المصلحة العامة للأمة.

5- أن سنة الله فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه القتل أو الطرد من بلده تخلصاً من شره.

تفسير المقطع التاسع من سورة الأحزاب

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ
قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾
وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ
ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا
قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا
عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾، **الخطاب للنبي محمد ﷺ، والمقصود بالناس** المشركين والمنافقين ونحوهم من الكفار الذين كانوا يكثرون من السؤال عن موعد قيام الساعة الكبرى، على سبيل الاستهزاء والاستعجال؛ لأنهم كانوا

يُكذِّبون بالبعث والنشور، وكان اليهود يسألونه امتحانـًا؛ لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة، فأخبرهم جميعـًا أن موعد قيام الساعة من الغيب المحصور والمقصور علمه على الله وحده، وما يعلمك ويخبرك يا محمد لعل الساعة قريب، فإذا كانت محجوبة عن النبي ﷺ لا يعلم وقتها، وهو رسول الله، فكيف بغيره من الناس؟!، وفيه تهديد للمستعجلين، وإسكات للممتحنين.!

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤﴾، **والمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها**، أن السؤال عن موعد الساعة غير مطلوب منك البحث عنه، فلا تشغل نفسك أيها الكافر به، بل استعد لها بالإيمان والعمل الصالح، فإن عقوبة الكافرين عند قيامها عظيمة، وقد أرشد النبي ﷺ من سأله من المؤمنين سؤال استعلامٍ إلى الاستعداد لها، **كما في الحديث**: أن رجلاً قال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: "**وماذا أعددت لها؟**"[1]، ثم وصف الله جزاء الكافرين بالله المكذبين بالساعة، **واللعن معناه**: الطرد من رحمة الله، فالكافرون مطرودون من رحمته، وبعيدون عن نعمته، وقد هيأ الله لهم نار السعير في جهنم يحترقون فيها.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾، **أي**: ملازمين لجهنم لا يخرجون منها أبداً، ولا يجدون وليـًا يشفع لهم ولا ناصراً ينقذهم منها، بل قد قطعت عنهم أسباب الرحمة والنجاة كلها، وفي الآية دليل على أن نار الكفار لا تفنى ولا تنتهي.

وقولــه: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾،

(1) صحيح البخاري: (5/ 12) برقم: (3688).

أي: أنهم لا يتقلبون بأنفسهم فيها وإنما يُقلّبون من قبل الملائكة، فتقلّبهم ظهراً لبطن حتى يشمل العذاب كل أجسادهم، أو يطرحون في النار مقلوبين منكوسين[1]، وخص الوجوه بالذكر؛ لأنها أشرف ما فيهم، وفي الوجه الحواس التي بها يسمع ويرى الحق فلم يستفد منها في الدنيا، بل استخدمها في الكفر والمعاصي، وإذا قُلّب الوجه فسيُقلّب في النار معه باقي الجسد، وأثناء التقليب يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وآمنا به، وأطعنا الرسل فيما كانوا يأمروننا به من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، على سبيل التمني والندم، ولكن في غير وقته، والألف واللام في الرسول للعهد الذهني، فكل أمة تذكر رسولها وتتمنى لو أنها أطاعته.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾، **قالوا أيضًا:** يا ربنا، إن سبب كفرنا هو طاعتنا لسادتنا وكبرائنا، فجمع بين السادة والكبراء؛ ليشملَ كل أنواع المتبوعين في الدنيا، فأوقعونا في طريق الضلال وأبعدونا عن طريق الهداية والحق.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾، يا ربنا، نسألك أن تعذبهم ضعفي عذابنا لأنهم سبب كفرنا، واطردهم من رحمتك، وأخزهم خزيًا كبيراً، **وفي قراءة عامة القراء:** (كثيراً)[2]، **أي:** يلعنون مرة بعد مرة حتى يكون اللعن عليهم كثيراً، وهذا الدعاء من المتبوعين على الذين اتبعوهم لا فائدة منه آنذاك؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل، بل كان الواجب

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 562).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 331).

عليكم أن تبتعدوا عنهم في الدنيا وتفارقوا طريقتهم، فأنتم من جعلتم من أنفسكم تابعين لغيركم بدون علم وفهم، **وفي الحديث:** **"لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"**[(1)]، ودعاؤهم تحصيل حاصل؛ لأن ما دعوا به قد حكم الله به **كما قال:** ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[النحل:25]، **وفي الحديث:** **"من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها"**[(2)]، فمن ضل الناس عن الحق تحمل أوزارهم وعذب عليها، لأنه كان سبباً في فعلها.

ثم قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾، هذا الخطاب وجّهه الله للمؤمنين وحذرهم أن يقعوا في أذية النبي محمد ﷺ، بل يُعظموه ويعزروه ويوقروه، لأن له مكانة عند الله، وحذرهم من مشابهة اليهود الذين حصل منهم الأذية لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي أذية خاصة حيث اتهموه بما ليس فيه، **فقد جاء في الحديث:** "إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى

(1) سنن الترمذي: (3/ 432) برقم: (2007)، وقال: حسن غريب.

(2) صحيح مسلم: (4/ 2059) برقم: (1017).

عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر!، ثوبي حجر!، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، **فذلك قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾"(1).

والندب: هو آثار الضرب على الحجر، فأظهر الله براءته عيانًا لهم؛ لأن موسى كان بريئًا مما قالوه من قبل أن يؤذوه، وكانت براءته بشيء خارق للعادة؛ لمكانته عند الله، وكان موسى مرضي عنه مقبول مستجاب الدعوة، ما إن يطلب من الله طلبًا إلا واستجاب الله له، وفي هذه الآية إشارة إلى وجوب توقير النبي محمد ﷺ، وتجنب ما يؤذيه، وتلك سنة الصحابة والمسلمين بعدهم، إلا حوادث يسيرة وقعت من بعض المنافقين وضعاف الإيمان في عهده، **فكان** ﷺ يتسلى بذكر أذية اليهود لموسى وصبره عليهم، كما حصل له يوم قسمة غنائم حنين حيث قسم النبي ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: "**يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**"(2).

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾، **هذا وعظ للمؤمنين،**

---

(1) صحيح البخاري: (4/ 156) برقم: (3404).

(2) صحيح البخاري: (4/ 157) برقم: (3405).

بأن يراقبوا الله في سرهم وعلانيتهم، ويضبطوا ألسنتهم فلا يقولون غير الحق والصواب، وفيه إشارة إلى أن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبي ﷺ عمداً أنهم ليسوا مؤمنين في باطن الأمر، ووعدهم على ذلك بصلاح أعمالهم وقبولها ورفع درجاتهم وثوابهم بها، فإن الإنسان إذا أخلص في عمله وصدَق في قوله؛ ضاعف الله له أجر العمل وغفر له الذنب؛ لأن كثرة الحسنات يذهبن بالسيئات، **كما قال:** ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[هود:114]، كما أن الطاعة المطلقة لله ولرسوله عاقبتُها الفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

ثم ختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾، **والأمانة:** هي أمانة التكاليف الشرعية[1]، كالطاعة والتوحيد، والقيام بما أمر الله والابتعاد عما نهى الله، ويدخل فيها أمانات الخلق وحفظ حقوقهم، وعرض حملها على السموات والأرض والجبال؛ عرض تخيير لا عرض أمر وإلزام، فأشفقت منها، وامتنعت من حملها، والإباء منهن، ليس رفضاً لأمر الله كما فعل إبليس، وإنما هو اختيار الترك على القبول، خوفاً أن لا يقمن بها كما أراد الله، وعرضها على الإنسان، وهو آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: وما لي؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قال: فأنا أتحملها بما فيها، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين الأولى والعصر حتى أخرجه الشيطان منها[2]، فالتزم القيام بها، وكان ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة ما تحمل من تكاليف.

(1) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 337).
(2) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 304).

وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾، **ثم بيّن** موقف الناس من الأمانة وأصنافهم في حملها، فذكر ثلاثة أصناف: صنفٌ قَبِلَ بها ظاهراً وكفر بها باطنًا، وهم المنافقون ذكوراً وإناثًا، وصنفٌ رفضها ظاهراً وباطنًا، وهم المشركون ذكوراً وإناثًا، وصنفٌ قَبِلَ بها ظاهراً وباطنًا وأداها ظاهراً وباطنًا، وهم المؤمنون ذكوراً وإناثًا، وبحمل الأمانة أو تضييعها يظهر نفاق المنافقين وشرك المشركين فيعذبهم الله في النار، ويظهر إيمان المؤمنين الذين أحسنوا في حمل الأمانة وأدوها كما أمرهم الله، ويتوب عليهم ويغفر لهم تقصيرهم إن وجد، والله غفورٌ للمذنبين التائبين، ورحيمٌ بالمؤمنين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- اختصاص الله تعالى بعلم قيام الساعة.

2- خطورة إضلال الناس وسنّ الباطل لهم.

3- بيان أن أذية الله ورسله كفر مخرج من الملة.

4- ببيان أن أذية المؤمنين بغير حق كبيرة من كبائر الذنوب.

5- عِظَم مكانة أمانة التكاليف الشرعية، واعتذار السموات والأرض والجبال من حملها.

6- انقسام الناس إلى ثلاثة أصناف في تحملهم لأمانة التكاليف، وهم: المنافقون، والمشركون، والمؤمنون.

تفسير سورة سبأ

تفسير المقطع الأول من سورة سبأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ
ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ
وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ
عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ
وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ
وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا
مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩﴾.

شخصية السورة:

سورة سبأ؛ سورةٌ مكية[1]، **ومن مقاصدها** بيان نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خلقه، وإبطال إنكار المشركين للبعث والنشور[2].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾، حَمِدَ اللهُ نفسَه حمداً مُطلقاً مستغرقاً للحمد كله، فهو واهب النعم وموجدها، وهو مالكُ السموات والأرض وما بينهما، وكما اختص بالحمد في الدنيا فهو مختصٌ بالحمد في الآخرة، فلا حمد في الآخرة إلا له سبحانه؛ لأنه المنعم المتفضّل على أهل الدنيا والآخرة بنعمه الكثيرة، وهو الحكيم في أفعاله وأحكامه وشرعه، وهو الخبير بأحوال عباده دقيقها وجليلها، ولا يخفى عليه من أمرهم شيءٌ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، أحاط علمُه المطلق بما يدخل في الأرض من ماءٍ، ونباتٍ، وحيوانٍ، وكنوزٍ، وأمواتٍ، ونحوها من الأشياء، وما يخرج منها من ماءٍ، ونباتٍ، وحيوانٍ، ومعادن، وثرواتٍ، وسائر ما يخفى في باطنها، فهو يعلم ذلك على وجه التفصيل، ويعلم ما ينزل من السماء من أمرٍ، ونهيٍ، وملائكةٍ، ومطرٍ، وخيرٍ، وشرٍ، ورزقٍ، وعذابٍ، وغير ذلك، ويعلم ما يصعد إليها من

---

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 494).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 138).

أفعال العباد وأرواحهم، والملائكة، وغير ذلك، فشمل علمه المطلق كل ما يكون في الأرض والسماء، وهو الرحيم بعباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة بسبب ذنوبهم، بل يمهلهم رحمةً بهم ليتوبوا، وهو الغفور لذنوبهم إن تابوا منها، وفي ذلك حثٌّ للناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما، فإن من رغب في تحصيل شيءٍ بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليه[1].

ثم قال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ ﴾، والذين كفروا هم كل من كفر بالبعث والنشور، وإن كان المقصود بهم هنا أهل مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ، وأنكروا قيام الساعة والبعث والنشور يوم القيامة، فأمر الله رسوله ﷺ أن يبطل قولهم هذا ويخبرهم بمجيئها، وأكد ذلك بالقسم للدلالة على ثقته بأنها آتية لا محالة، **وهذا أحد المواضع الذي أقسم فيها النبي ﷺ بربه على البعث والنشور، وهي ثلاث آيات لا رابع لها: فالأولى:** في سورة يونس، **والثانية:** هنا، **والثالثة:** في سورة التغابن، فربّي الذي أقسمتُ به هو عالم الغيب والشهادة، **والغيب:** ما خفي عن الناس مُطلقًا أو جزئيًا، والشهادة: ما علموه ورأوه، **والمقصود بذلك** عموم إحاطة علم الله بكل شيء، **والمثقال:** مقدر وزن الذرة[2]، وهي تلك الحشرة الصغيرة التي هي من فصيل النمل، وهي أصغر حشرةٍ يراها الإنسان حين نزل

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 138).

(2) تفسير ابن عطية: (4/ 405).

فيهم القرآن، فلا يغيب عن علم الله جَلَّ وَعَلَا مثقال ذرة في الكون كله، ولا أصغر من مثقال الذرة، ويدخل في هذا المعنى مفهوم الذرّة المعاصر؛ وهو الذي لا يُرى بالعين المجرّدة، ولا أكبر منها، وهو احترازٌ حتى لا يظن ظانٌّ أن علم الله وكتابته للأشياء الصغيرة دون الكبيرة، فهو يعلم الصغيرة والكبيرة على حدٍ سواءٍ، وكلاهما مدوّن ومكتوب في اللوح المحفوظ.

ثم قال سبحانه: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾، **اللام** للتعليل[1]، فمجيء الساعة والبعث والنشور للجزاء، لأن الخلق في الدنيا لا يحصلون على حقوقهم كاملة، ولا يتم لهم العدل المطلق، ولا يتحقق عدل الله المطلق إلا بعد قيام الساعة بالبعث والنشور، فيُوفي المؤمنين أجرهم بعد المغفرة لذنوبهم، فيدخلهم الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، ويزيدهم من فضله إكراماً لهم.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾، السعي هنا هو الجد والنشاط في العمل السيّء، فإن الكافر يؤزّه الشيطان أزّاً لمحاربة الحق، ومن ذلك السعي في إبطال القرآن الكريم وأحكامه، وتثبيط الناس عن اتباعها والإيمان بها، وهم كذلك يسعون مسابقين من أتى بها وهو محمد ﷺ، لغرض تكذيبه[2]، فلهؤلاء الكافرين المكذبين عذابٌ شديدٌ يوم القيامة، بليغ الألم للأنفس والأجساد.

---

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 358).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 53).

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾، **الواو** استئنافية[1]، **والرؤية هنا** قلبية، **والمعنى** ويشهد الذين أوتوا العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن آمن من علماء أهل الكتاب، ومن جاء بعدهم ممن آمن بالله وقرأ القرآن وتعلم أحكامه، أنه حقٌ لا باطل فيه، ويرون أنه يرشد الخلق ويدلهم على طريق الإسلام، الذي به يدخلون الجنة، **وقيل**[2]: إن الواو عاطفة، وتكون هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كُتبِ الله في الدنيا؛ رأوه حينئذٍ عين اليقين.

والعزيز هو: منيع الجناب، الذي قهر كل شيء، والحميد: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وفي الآية منقبة لأهل العلم وفضيلة لهم[3].

ثم قال الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾، **وقال كفار قريش بعضهم لبعض:** لا بد أن نتفق على وصفٍ نصف به محمداً من أجل أن نُحذّر به من جاء من خارج مكة حتى لا نختلف ونتناقض، وقد كان الناس يأتون إلى الحج وإلى الأسواق المنتشرة حول مكة من مناطق مختلفة؛ فيخرج إليهم محمد ﷺ ليدعوهم إلى الله، فإذا

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 359).

(2) تفسير ابن كثير: (6/ 28).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 675).

بكفار مكة يذهبون وراءه **ويقولون**: لا تصدقوه، إنه ساحر، إنه كاذب، إنه كاهن، ثم اتفقوا أيضاً على أن يقولوا للناس هذه الشبهة حتى يُحذّروا من رسول الله ﷺ، وخلاصتها: أن هناك رجلاً، ويقصدون به محمداً ﷺ، وإنما لم يذكروا اسمه احتقاراً لشأنه، هذا الرجل يُخبركم أن هناك بعثاً ونشوراً لأجسادكم التي دُفنت وتمزقت أوصالها في التراب وصارت كل قطعة منها بعيدة عن الأخرى، وأنكم ستُبعثون في خلق جديد يُعيده الله كما كان قبل الموت، وهذا القول كان يصدر منهم على سبيل السخرية والتعجب والاستنكار له[1]!!

وقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾، وهذا الرجل الذي يقول هذا القول؛ إما أن يكون كذب على الله بهذا القول ونسبه إلى الله، والله لم يقله، أو أنه قاله بسبب الجنون الذي أصاب عقله فلا يعقل ما يقول، فرد الله على اتهامهم هذا لرسول الله ﷺ، بكلمة (بل)، وهي تأتي للإضراب وإبطال ما سبق، **والمعنى** ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق، فهم جاحدون للآخرة ومنكرون لما يجري فيها، ومصيرهم إلى العذاب الشديد يوم القيامة، بسبب ذلك، كما أنهم اليوم منغمسون في ضلال بعيد كل البعد عن الحق والصواب، وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به[2]، وقدم ذكر حالهم في الآخرة قبل ذكر حالهم في الدنيا؛ لأن

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 359).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 676).

حالهم في الآخرة ثمرة لحالهم في الدنيا، وأراد بالتقديم التنبيه لأمر الآخرة والاهتمام بها.

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾، **الاستفهام** للتعجب الإنكاري، **والرؤية** بصرية بقرينة ذكر (إلى) بعدها، والمقصود النظر والتأمل والتفكر فيما بين أيديهم وما خلفهم من المخلوقات العظيمة في السماء والأرض، وجعلهما بين أيديهم وخلفهم، لأنهما محيطتان بهم، فأينما نظروا في أي جهةٍ وجدوا آثار خلق الله سبحانه، ومن قدر على خلق تلك المخلوقات العظيمة من العدم قادر على بعثهم وإعادتهم بعد الموت، وقادر على إهلاكهم كما أهلك من سبقهم من الأمم المكذبة، والخسف هو انشقاق الأرض وابتلاع من على ظهرها، كمل حصل لقارون، فقد خسف الله به وبداره الأرض فما زال يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، **والكِسَف هي** القطع الضخمة من العذاب التي تنزل من السماء، كما حصل لقوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **وفيه إشارة** إلى أن الله قادر على أن يُعذبكم من تحتكم بالخسف أو من فوقكم بإسقاط قطع كبيرة من السماء عليكم، والآية هي الحجة البيّنة، **والمقصود بها هنا** عظمة خلق السموات والأرض، وقدرته سبحانه على هلاكهم، والعبد المنيب هو كثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله؛ كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن نظره للمخلوقات سيكون نظر فكرةٍ وعبرةٍ، فيتعظ بها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - بيان سعة علم الله المحيط بكل شيء.

2 - بيان فضل أهل العلم عند الله تعالى، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استشهد بهم على التوحيد وصدق القرآن وتحقق البعث والنشور.

3 - بيان جهل المشركين في إنكارهم قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على البعث، ولم يعتبروا بخلقه للسموات والأرض.

4 - بيان أن أصحاب القلوب المنيبة الراجعة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي التي تستفيد من التفكّر في الآيات الكونية.

تفسير المقطع الثاني من سورة سبأ

﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ
ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ
غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ
وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ
وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ
١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا
خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي
مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ
وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ
أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا
ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ
سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾،

والمناسبة في ذكر قصة داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد ذكر تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ، هو التلميح إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيمنح رسوله ﷺ النصر والتمكين بعد هذا الإيذاء والكفر من قومه، كما منح اللهُ داوودَ المُلكَ بعد أن كان شخصاً عادياً، ولم يكن في آبائه الملك، وأعطاه النبوة والكتاب فضلاً منه، وأمر الله الجبال بترجيع التسبيح معه[1]، فقد كان داوود يُسبّح بصوتٍ جميلٍ فتهتز طرباً له الجبال فتسبّح معه، وكذلك الطير تُرجِّع معه، ونصب الطير عطفاً على محل يا جبال، لأنه منصوب تقديراً، **إذ المعنى**: نادينا الجبال والطير[2]، **ومن الفضل الذي أعطاه الله لداوود** أن ألانَ له الحديد، وهو جسم صلب شديد الصلابة، إلا أن داوود كان يُشكّله بيده ليصنع منه ما يشاء[3]، وأذن له أن يصنع من هذا الحديد الدروع الواسعة التي تغطي الجسم، وعلّمه كيف يعمل لهذه الدروع حِلَقاً مناسبة لا صغيرة ولا كبيرة، وأن تكون هذه الدروع متناسبة مع الأجساد التي تلبس عليها، والسرد: نسج الدروع[4]، والحديد غالباً يُخاط بالمسامير التي يُضرب عليها ويُثبّت بها، ومعنى ذلك أن هذه المسامير تكون مناسبة في مكانها للحِلق التي تُربط إليها والقطع التي تلحق بها بحيث لا تسقط ولا تُؤذي من يلبسها، وأمرهم أن يعملوا عملاً صالحاً، وهو يشمل الإيمان والطاعات والقُربات وما ينفع الخلق من الأعمال، فكل ما ينفع الخلق فهو صالح، وكل ما

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 671).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 362).

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 355).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 362).

يضر الخلق فهو غير صالح، وما عملوا من عملٍ فلا يخفى على الله، والإخبار جاء على سبيل التهديد والوعيد، **أي**: احذروا أن تُخالفوا أمر الله؛ لأن الله مطّلع على أعمالكم وأحوالكم.

وقوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾، **أي**: وسخّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لسليمان الريح، فصارت طَوع أمره، وجعلها تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين، فتسير من الصباح إلى الظهر مسافة شهر، وتسير من الظهر إلى المغرب مسافة شهر، وهذا يعني أن ما كان يُنجزه سليمان في رحلته في شهرين ينجزه في يوم واحد، ومن النعم التي منحها الله لسليمان أن أَسَالَ له عين النحاس فصار يُذيبه دون الحاجة إلى أن يُوقد عليه النار[1]، وكان يستخدمه في صناعته، والصناعة التي يُدمَج فيها النحاس بالحديد تكون قوية وصلبة، وسخّر الله لسليمان من الجن من يخدمه ويعمل طَوع أمره بأمر ربه، ومن يخالف أمره منهم نذقه من عذاب السعير في الآخرة، **وقيل**: يُعذّب في الدنيا بعذاب الحريق الذي يُشبه عذاب النار في الآخرة[2].

وقوله: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾، **أي**: ويعمل الجن المسخّرون لسليمان ما يرغب ويطلب منهم من بناء المحاريب، وهي في الأصل القِلاع

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1586).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 673).

الحصينة التي يُحارب من خلالها، ثم بعد ذلك استُعيرت لكل مبنى قويٍّ مُشيد، ومنه مباني الصلاة، ففي عهد داوود كانت تُبنى مباني مُشيدة يُصلي فيها، أما ما يُطلق عليه اليوم في المساجد باسم المِحراب وهو القِبلة الخارجة قليلاً عن المسجد، فهذا اسمٌ حادثٌ لم يُعرف عند المسلمين إلا في القرن الثاني الهجري، والأصل فيها أن الناس لما كانوا يبنون المساجد كانوا يجعلون علامةً جهة القِبلة على شكل كوّة يُعرف بها اتجاه القِبلة للداخل إلى المسجد، ثم وسّعوها قليلاً ثم صارت مكاناً للإمام يُصلي فيه، وأول ما فُعِل ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك في مسجد دمشق، ولما وُسِّع المسجد النبوي في القرن الثاني الهجري وُضع له أول مِحراب، وذلك في مدة إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة [1]، **والتماثيل**: جمع تِمثالٍ، وهي الصور التي للحيوانات من النحاس أو الحديد، فقد كانت الجن تصنعها، وكانت التماثيل في عهد داوود وشريعته غير محرّمة، وإنما حُرّمت في شريعة الإسلام لما صارت ذريعة إلى الشرك، وكانوا أيضاً يصنعون له جِفاناً، وهي جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة التي تشبه البِركة العظيمة، وما زال اسم الجفنة مشهوراً إلى الآن، وهو وعاءٌ للطعام يُوضع فيه فيقترب الناس من حوله فيأكلون منه، والجواب جمعُ جابية، وهي البِركة العظيمة المنقورة في الجبال الصماء لحفظ الماء لسقي الحيوان والزرع، والقدور: هي التي يُطبخ فيها الطعام، وصفت بأنها راسية تبقى في مكان الطبخ لكبر حجمها وثقلها، مأخوذ من الجبال الرواسي لثبوتها وثبوت الأرض بها [2]،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 161).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 439).

فلا تتزحزح منه، بل يُغترف منها الطعام غرفًا، وأمر الله آل داوود، وهم أهله وذريته ويدخل في ذلك من آمن به، أن يعملوا أعمالاً صالحة شكراً على هذه النعم، فإن النعم لا تدوم إلا بشكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ثم وصف الشاكرين من الناس لربهم بأنهم قلة، وهذا هو واقع الناس في كل زمان ومكان، فقليل من الخلق من يشكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالطاعة والعمل الصالح.

قال: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾، فلما نزل الموت بسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لم تكتشف الجن موته، فحين جاء موعد قبض روحه أُعلم بذلك، **وفي الحديث: "ما من نبيٍ يمرض إلا خُيّر بين الدنيا والآخرة"**[1]، فالأنبياء لا يموتون مثل البشر فجأة، بل يُخبرون بالموت، فأخذ سليمان عصاه وتوكأ بها وجلس على كرسيّه الذي كان يحكم منه فقُبضت روحه، فظلّ على هذه الحالة فترة من الزمن، فكانت الجن تنظر إليه من بعيد وتهابه وتستمر في إنجاز أعمالها المُكلفة بها من سليمان وهم لا يدرون أنه قد مات، وما علموا بموته إلا بعد أن أكلت الأرضة لب عصاه الذي كان متوكأً عليها، فانكسرت فسقط على الأرض، فحينئذ تبيّن للجن أن سليمان قد مات، واكتشف الناس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ لأن المشهور عند العوام أن الجن تعلم الغيب، ولو كانوا يعلمون أن سليمان قد مات ما استمروا في تنفيذ الأعمال المذلة لهم والشاقة عليهم حولاً كاملاً، وهم يحسبون أنه حي[2].

(1) صحيح البخاري: (6/ 46)، برقم: (4586).
(2) ينظر: تفسير الطبري: (20/ 371).

ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾، ثم ذكر الله قصة قوم سبأ، وهي قصة تُبين أثر الكفر والمعصية في زوال النعم وحصول النقم، **وسبأ هو** عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وسُمّي سبأ؛ لأنه أول من سبأ في العرب[1]، وهذه القبيلة تنسب إليه، وكانوا يسكنون في مأرب، وهي مدينة معروفة الآن، والآية هي العلامة الواضحة البيِّنة، وهما الجنتان الموجودتان على يمين واديهم وشماله، وقد أحاطتا به من جهتيه، وكانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها المكتل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها[2]، فامتنّ الله عليهم بهذه الثمار، وأمرهم أن يأكلوا منها فهي رزق الله لهم، وأن يشكروا الله الذي أعطاهم ذلك بالإيمان به والعمل الصالح، فبلدهم أرض طيبة خِصبة ذات مناخ مناسب، وفيها الأمطار والمياه والثمار الحسنة البعيدة عن الأوبئة، وأودع فيها البركة، قد منحها لهم رب غفور يغفر زلاتهم وذنوبهم إن تابوا ورجعوا إليه.

قال: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾، **أي:** فابتعدوا عن الإيمان ولم يمتثلوا أمر الله ولم يشكروا نعمه، فأرسل الله عليهم سيل العَرِم، **والعرم** اسمٌ للوادي الذي ينزل منه السيل، أو وصفٌ للسيل، من العرامة وهي الشدة **أي:** سيل شديد

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 505).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 367).

القوة، أو اسم للسد الذي يجتمع فيه الماء[1]، وهو سد مأرب المشهور، ولا مانع أن يكون نزل بهم سيل الوادي الشديد القوة فخرب بسببه السد فطمَّ البُيوت والوديان والمزارع؛ فتمزقوا في البلدان، فخرجوا من اليمن باتجاه الشام والجزيرة ونحوها من البقاع، وهلكت تلك الجنتان، وأُبدلوا بجنتين ضد وصف السابقتين في الحسن والثمر، ولم يعد ينبت فيهما شيء من الأشجار المثمرة إلا أشجار قليلة الفائدة مثل **الخمط، وهو** شجر الأراك، **وقيل**: كل شجرة ذات شوك، **والأثل وهو** شجر لا ثمر له، وشيء من أشجار السدر التي فيها مَنفعة قليلة سواءً في ثمرتها أو في نوعها[2]، وما حصل لهم من تحويل النعمة إلى نقمة كان بسبب كفرهم بالله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وما نعاقب بهذا العقاب الشديد إلا كل جَحود مبالغ في الكفر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾، موضع هذه الآية من حيث الترتيب الزمني أنها قبل الهلاك، ولكنه ذكر النعمة الأولى وكفرهم بها والعقوبة لهم بحرمانهم منها، ثم ذكر النعمة الثانية وكفرهم بها والعقوبة لهم بحرمانهم منها، والنعمة هنا هي نعمة تقارب السير وأمن الطريق، حيث جعل بين بلادهم في مأرب وبين بلاد الشام قرىً كثيرة تظهر للعيان، ومتقاربة المسير؛ لأن هذه القرى بُنيت بتقدير الله بحيث يقطع المسافر المسافة بين القرية والتي تليها بمرحلة واحدة دون

(1) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 343).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1590).

مشقة وبيات في الأخرى، وهكذا، وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى في أيِّ وقت شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافون عدوّاً، ولا جوعاً ولا عطشاً[1]، وقدّم ليالي على الأيام إشارة إلى توفر الأمن والأمان في طريقهم في أي وقت.

قال: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾، فملّوا الراحة والأمن ورغد العيش، وبطروا نعمة الله عليهم بتقريب المسافات، فطلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة؛ ليمشوا في الصحراء المنقطعة ويتزوّدوا للأسفار البعيدة، ويذوقوا مشقة السفر، وهذا يدل على قلة فقههم وكثرة طغيانهم وبطرهم، وظلموا بذلك أنفسهم، فاستجاب الله لطلبهم فجعلهم الله عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم[2]، ففرّقهم في البلاد حتى ضرب المثل بفرقتهم، **فقيل**: تفرقوا أيدي سبأ[3]، فتركوا بلدهم وغادروها إلى أماكن مُتعددة من الأرض، وصاروا مُجرد أخبار في السيَر والتواريخ، يقرأ خبرهم من أتى بعدهم، وما حصل لقوم سبأ عظات متعددة، وعِبر متجددة لمن يعتبر وخص منهم كل صبّار وشكور، **الناس بين حالين**: **إما** ضراءٌ؛ فالواجب فيها الصبر عليها، **وإما** سراءٌ؛ فالواجب فيها الشكر، ولا يخرج العبد عن هذين الحالين، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.

(1) التفسير الميسر: (1/ 430).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 678).

(3) ينظر: المستقصى في أمثال العرب: (2/ 89).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- فضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على داوود وسليمان بالنبوة والملك.

2- بيان أن نعم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تستمر وتزداد بالشكر، وتذهب وتتحول إلى نقمة بالكفر.

3- أن الجن لا يعلمون الغيب كما يظن بعض العوام والمشعوذين والدجالين.

4- بيان العِظة والعبرة بما حصل لسبإٍ من تفرّق وذهاب النعم عنهم بسبب الإعراض عن شكرها.

5- أن الأمن نعمة عظيمة لا يعرف قيمتها إلا من فقدها.

تفسير المقطع الثالث من سورة سبأ

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ
لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ
ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟
ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ
إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ
أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً
وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾، يُبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات؛ أن من كفر بالله

سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وأشرك به فإنه قد وقع في شِراك إبليس، فإن إبليس غلب على ظنه أن المشركين والكفار سيتّبعونه، فاجتهد في إغوائهم، فلما أغواهم صدق فيهم ظنه، فإن الصدق موافقة الخبر للواقع، والمقصود بهم عموم من أطاعه وساروا في طريقه، ويدخل فيهم قوم سبأ[1]، **واستثنى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ** فريقًا من المؤمنين، وهم قِلة ممن لم يُطع إبليس ولم يسر في طريقه ويُشرك بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فخيّبوا رجاءه ولم يصدُق فيهم ظنُه.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ ﴾، ولم يكن لإبليس حجة يقنعهم بها ولا قهرهم ولا أكرههم حتى يتبعوه، وإنما أضلهم بالوسوسة والتزيين، ولو تفكّر الإنسان وتأمل في ذلك لما أطاع الشيطان، والاستثناء منقطع، **ومعناه** ولكن ابتليناهم بوسوسته[2]، وكان ذلك بعلم الله الأزلي أولاً، وأراد الله أن يتحقق هذا العلم في الواقع ثانيًا؛ ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسن عبادة ربه عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، ممن هو في شك منها[3]، وبهذا يزول الإشكال المتبادر إلى الذهن بأن الله لا يعلم بالشيء قبل حدوثه، وحدثنا بما نعقِل، فإننا لا نعلم بالشيء إلا بعد وقوعه، فإن وقع علمناه وحاسبنا الله عليه بعد وقوعه منا، وقد تحقق العلم واقعًا بإغواء الشيطان لمن اتبعه وعدم سلطانه

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 512).
(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 371).
(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 513).

على المؤمنين، فانقسم الناس إلى فريقين: فريق أطاع الشيطان وذهب في طريقه فكفر بالله وشك في البعث والنشور، وفريق خالفه وآمن بالله وباليوم الآخر، وربك يا محمد على كل شيءٍ حفيظ، يحصُر ويجمع الأعمال ليُجازي بها الخلق، وقد علم وأحاط بالأشياء كلها، فلا يخفى عليه من أمر الخلق خافية.

ثم قال سبحانه لنبيه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾، قل يا محمد للمشركين الذين اتخذوا أصنامًا وجعلوها آلهة كذبًا وادعاء، وهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعًا، ولا تملك مقدار وزن ذرة في السموات ولا في الأرض وهي صغار النمل، ولا يملكون شيئًا فيهما استقلالاً ولا على سبيل الاشتراك، وليس لله من معين على خلق شيء، بل الله هو المستقل بالأمر وحده، خلقًا وتدبيراً من غير مشارك ولا منازع ولا معارض له سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾، ولا تنفع شفاعة الشافع عند الله إلا لمن أذن الله له أن يشفع، ورضي عن المشفوع، **كما قال:** ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء:28]، فإذا لم يتحقق الشرطان فلا فائدة من الشفاعة، والذي يأذن لهم بالشفاعة هم المُقربون المحبوبون إليه من الملائكة والرسل والأنبياء والشهداء والصالحين، أما الكفار والأصنام فلا يؤذن لهم ولا تُقبل شفاعتهم، **وفي المقصود بالذين فُزّع عن قلوبهم قولان**[1]**، الأول:** أن المقصود بالذين فُزّع

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 373).

عن قلوبهم هم الملائكة، الذين تم الإشارة إليهم في الشفاعة، **والمعنى** أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا تكلم بالوحي وسمع أهل السموات كلامه، خضعوا لأمره وخشعوا له، وهذا الفزع الذي حصل لهم هو فزع تعظيم وخشية، فإذا زال الفزع عن قلوبهم، سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟!، فتقول الملائكة المقربون: قال الحق، **أي:** أنه قد أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين، **وفي الحديث:** **"إن الله إذا أمر بالأمر كأنه سلسلةٌ على صفوان فتفزع الملائكة حتى إذا انتهى الأمر أفاقوا، فإذا أفاقوا قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق"**[1].

والثاني: أنهم المشركون، **والمعنى** حتى إذا ذهب الفزع عن قلوب المشركين يوم القيامة، سألتهم الملائكة عن ما أرسله الله إليهم من الرسل وما جاءوا به، فأقروا أنهم جاءوا بالحق وهم كفروا به وجحدوه، بناءً على أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور في الآية هو المشركون، والصحيح القول الأول للحديث، ولأن القصد الردّ على الكفار الذين عبدوا الملائكة، فذكره شدّة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له[2].

و(العلي الكبير): اسمان من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو العلي بقهره، والكبير بعظمته، وذيّل الآية بهما؛ لأن الأمر عظيم والموقف رهيب.!

ثم أمر الله رسوله بمحاجة المشركين بالأدلة العقلية، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾،

(1) صحيح البخاري: (9/ 141)، برقم: (7481).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1596).

قل يا محمد للذين أشركوا بالله غيره من الذي يرزقكم ويرزق الخلق أجمعين؟! وذكر السماء لأن سبب الرزق هو المطر الذي ينزل منها، وذكر الأرض لأنها نبتت بالثمار والحبوب بعد نزول المطر إليها، ثم أبلغهم أن الذي يفعل ذلك هو الله وليست الأصنام التي اتخذتموها آلهة من دون الله، واستخدم معهم أسلوب التنزل مع الخصم على سبيل الافتراض، ثم تركهم يختارون الجواب الصحيح بعد تأمل وتفكر، وفائدته تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل، قل لهم: فأنتم تعبدون الأصنام التي لا تملك شيئًا، ونحن نعبد الله الخالق الرازق، من هو على هدىً نحن أو أنتم؟! ولا شك أن من يعبد الصنم هو صاحب الضلال المبين، أما من يعبد الله الخالق العظيم فهو صاحب الحق والهدى الواضح، وأتى بحرف "على" مع الهدى، وحرف "في" مع الضلال؛ لأن "على" معناها العلو والارتفاع، فالنفس التي تهتدي ترتفع عن الأرض وتخرج عن طور الانحباس في المعاصي والشهوات، وتكون عالية المكانة والشأن، و"في" معناها الظرفية، والانحباس في داخل الشيء، وهكذا هو حال الأنفس مع الضلال، والهدى واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان، بينما الضلال يحتاج إلى بيان لخفائه، فوصفه بالمبين.

وقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾، قل لهم يا محمد اتركونا وشأننا، فلا تُسألون عن ذنوبنا، ولا نحن نُسأل عن ذنوبكم، وسيجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا، وسيتضح لكم من هو المُحق ومن هو

المُبطل، وهو سبحانه الفتاح الذي يحكم بين عباده بالعدل، وهو العليم بحالهم، فلا يغيب عن علمه شيءٌ من أمورهم، وهذه الآية وأمثالها من الآيات تُسمّى بآيات الموادعة والإعراض عن المشركين، وكان ذلك زمن الضعف، ثم جاءت آيات الجهاد بعد ذلك لدفع أذى المشركين بالسيف والسنان.

وقوله: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾، وقل لهم يا محمد أخبروني بالحجة والدليل عن هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله في الألوهية، مع إقراركم بأنهم ليسوا شركاء لله في الخلق والرزق، (كلا) هذه كلمة ردع وزجر تُبطل ما سبق، فلا يوجد شريك لله، بل هو المنفرد سبحانه بالخلق والإيجاد والأمر والألوهية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو العزيز الذي لا يُغالبه شيء، والحكيم الذي ليس في فعله وأمره خلل ولا نقص، وهو بهذا من يستحق إفراده بالألوهية، وهذا من طريقة القرآن في الاستدلال بأفعاله وأسمائه سبحانه على استحقاقه للألوهية.

ثم قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، **الخطاب لرسول الله ﷺ، وكافّة:** بمعنى إلى جميع الناس، مأخوذ من كفّ الثوب إذا ضم طرفيه[1]، **وهذه من خصائص نبينا محمد ﷺ، كما في الحديث: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة"**[2]، فشملت رسالتُه البشرية كلها، ولذلك صار الخلق بعد بعثته كلهم

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 450).

(2) صحيح البخاري: (1/ 74)، برقم: (335).

يُسمون بأمة محمد ﷺ، فمن استجاب له وآمن به صار من أمة الاستجابة، ومن لم يستجب يبقى في أمة الدعوة إلى الإسلام، وأرسله الله بشيراً لمن أطاعه بالثواب والجنة، ونذيراً لمن عصاه بالعذاب والنار، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعده للطائعين والعصاة، والقليل منهم من علم ذلك فآمن به، ولو نظرت اليوم إلى أهل الأرض لوجدت أن أكثر الناس كفار بالله وبرسوله.

ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، **ويقول المشركون** المكذبون بالبعث والنشور للنبي ﷺ، متى موعد قيام الساعة على سبيل الاستهزاء والاستنكار، وإذا أردت أن نُصدقك فأخبرنا بموعده الآن، وهو شرطٌ باطل، لأن عدم معرفة موعد قيام الساعة لا يعني كذب من أخبر عنه، لأنه غيب لا يعلمه أحد، أخبر الله أنه سيأتي لا محالة، فلا يصح أن يُربط معرفته ذلك بصدق الأنبياء وكذبهم.

ثم قال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، **قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين بالعذاب:** لكم ميقات يومٍ محدّد سيأتي في موعده، لا تتأخرون عنه لحظة واحدة، ولا تتقدمون عنه لحظة واحدة، والسين والتاء للمبالغة، وهذا الميعاد هو يوم القيامة(1)، وهو من الغيب المطلق لم يخبر به نبي مرسل ولا ملك مُقرب، فلا تشغلوا أنفسكم بالسؤال عنه.

فإن العقلاء لا يبحثون عن موعد قيام الساعة، وإنما يستعدون لها بالإيمان

---

(1) تفسير ابن جزي: (2/ 167).

والعمل الصالح، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله متى الساعة؟! فقال له: **"ماذا أعددت لها"**[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الإيمان الصحيح يمنع من إغواء الشيطان للعبد.

2- أن الأدلة العقلية تُبطل الشرك وعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

3- إثبات الشفاعة يوم القيامة بشرطين: الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع.

4- أن صاحب الهدى مُستعلٍ بالهدى، وأن صاحب الضلال محبوس في ضلاله.

5- أن رسالة النبي ﷺ عامة للخلق أجمعين.

---

(1) صحيح ابن خزيمة: (3/ 149)، برقم: (1796).

تفسير المقطع الرابع من سورة سبأ

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ
لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ
يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ
أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ
رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ
أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا
عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ
مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن
شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن موقف كفار قريش من القرآن والكتب السماوية السابقة له كالتوراة والإنجيل، فإنهم صرّحوا بالكفر بها جميعًا، وكانوا في الواقع لا يُؤمنون بالكتب السماوية السابقة؛ لأنها لم تكن مُنزّلة إليهم، ولكنهم صرّحوا بعدم إيمانهم بها؛ لأنها من ضمن الأدلة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، فقد بشّر الله بمحمد ﷺ فيها، ولو ترى يا محمد كيف سيكون حال هؤلاء الكفار حينما يُبعثون ويُحشرون يوم القيامة، حين تُوقفهم الملائكة بين يدي الله للحساب والسؤال؛ لوجدت شيئًا مُهيبًا وعجيبًا، ومما يحصل في ذلك اليوم من المجادلة والخصومة والاتهامات المتبادلة بين الذين كانوا يُعدون ويُحسبون من الضعفاء، والذين كانوا يُعدون ويُحسبون من المتكبرين، والسين والتاء هنا للعد والحسبان(1)، **فيقول الضعفاء:** لولا أنتم أيها القادة المتكبرون استبدادكم بنا ومنعكم من يُريد الإيمان منه والوقوف في طريقه لكنا مصدقين بالله ورسله.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾، لم يقبل المتكبرون هذا الاتهام، بل ردوا عليه بسؤال استنكاري تعجبي من قولهم هذا، وهذا الإنكار كذب مخالف للواقع دفعهم إليه خوفهم تحمل المسؤولية في المحشر، وهذا تنصّل من المستكبرين

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 205).

عن إضلال المستضعفين، بل كان لهم دور كبير في إضلال الناس ومنعهم من الإيمان، وهو الحاصل اليوم في العالم كله، فإن من يملك القوة ووسائل التأثير والمال والإعلام، هو الذي يجعل الناس يسيرون في طريق الضلال إما ترهيباً وإما ترغيباً، ولكن المستكبرون يوم القيامة لا يريدون أن يعترفوا، بل قالوا للمستضعفين: إن إجرامكم كان هو سبب كفركم، وليس نحن.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾، فلم يقبل الضعفاء هذا التبرير من المتكبرين، **بل ردوا عليهم بقولهم:** بل أضلنا مكركم المستمر الذي لم يكن قليلاً، بل كنتم تستغرقون ليلكم ونهاركم في التفكير بالأساليب والوسائل التي تُغووننا وتُبعدوننا بها عن الهدى، وكان من ضمن مكركم بنا أنكم أمرتمونا بالكفر بالله وجعل الأصنام مساوية ومضاهية لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والمكر هو الاحتيال والخديعة للآخرين، وهو أسلوب من أساليب إبطال الحق الذي كان يستخدمه المستكبرون لتزيين الكفر والباطل للضعفاء والأتباع، فلما رأى الفريقان العذاب وأنه واقعٌ بهم لا محالة؛ أخفوا الحسرة في نفوسهم، واستشعروا الخيبة والخزي، ولم يظهروها حتى لا يشمت بهم غيرهم، **وقيل:** أسروا هنا بمعنى أظهروا، فتكون من الأضداد[1]، **أي:** وظهرت حسرتهم في وقت لا فائدة منها، فبادرتهم الملائكة فوضعت السلاسل في أيديهم وربطتها إلى

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1603).

أعناقهم وألقتهم في النار، ولن يُجزوا إلا بما يستحقون، وهو إشعار بعدل الله، فلا يظلم الله أحداً ولو كان كافراً، بل كل واحد سيُجزى بقدر عمله.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، ثم أخبر عن حال الأمم المكذبة بالرسل، وفي ذلك تسلية لنبيه محمد ﷺ، وعبّر عنهم بالنذير؛ لأنهم جاءوا يحذرونهم من الكفر والشرك، وخص المترفين بالذكر؛ لأنهم غالباً أول المكذبين للرسل ؛، والمترفون هم المُنعّمون من أهل تلك القرى، الذين يعيشون في رغدٍ من العيش، فيسارعون إلى تكذيب الرسل تكبراً عليهم، دون تأمل وتفكر في الحق الذي جاءوهم به، وفي حديث ابن عباس في حوار أبي سفيان مع هرقل، حين قال له: "**من يتبعه الأغنياء أم الضعفاء؟ قال: الضعفاء، قال هرقل: وكذلك أتباع الرسل**"(1)، فمن يسارع إلى اتّباع الرسل والإيمان بهم غالباً الضعفاء البعيدون عن الترف والكِبر والغطرسة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهذه شبهة باطلة وما زالت مُتوارَثة حتى اليوم، فبعض الناس يظن أن الله إذا أنعم عليه في الدنيا بمال وأولاد ومنصب وجاه أن هذا من إكرام الله له في الدنيا، وما دام أكرمه في الدنيا؛ فإن الله سيُكرمه في الآخرة، وهو قياس باطل؛ لأن منح النعم في الدنيا لا علاقة له بمنح النعم في الآخرة، فالدنيا لها قانون خاص، والآخرة لها قانون خاص، فإن الله يُعطي الدنيا من أحب ومن لا يُحب، للابتلاء، فقد تجد مؤمناً

---

(1) ينظر القصة كاملة في: صحيح البخاري: (4/ 45)، برقم: (2941).

مُنعّماً يشكر الله، كما أنعم على سليمان وداوود وذي القرنين وغيرهم من المؤمنين الصالحين الذين ملكوا الأرض، وقد يمنح الله النعم الكفار، كما حصل لقارون والنمرود وغيرهما، فالنعمة الدنيوية وعدمها لا علاقة لها بأن العبد مُكرم أو مُهان، إنما النعمة الأُخروية وعدمها هي التي لها علاقة بالكرامة والإهانة، فمن أنعم عليه في الجنة فقد أكرمه، ومن ألقاه في النار فقد أهانه!.

فمن جهْل هؤلاء المترفين المكذبين أنهم ظنوا أن إنعام الله عليهم بكثرة المال والولد في الدنيا أنهم لن يعذبوا في الآخرة، **فردّ الله عليهم بقوله:** ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾، **قل لهم يا محمد:** لا تقيسوا موضوع نعم الدنيا على نعم الآخرة، فنعم الدنيا يعطيها الله من أحب ومن لا يحب ابتلاءً واختباراً، فقد يختبر من يشاء من المؤمنين والكافرين بالغنى وبسط الرزق، أو يختبرهم بالفقر والتضييق عليهم في رزقهم؛ لينظر كيف يتعاملون مع هذا الاختبار، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من ذلك، ولو علموا لما قالوا هذا القول الباطل.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وليست أموالكم ولا أولادكم التي وهبكم الله وتفتخرون بها على غيركم هي التي تقربكم من الله وتقودكم إلى رضوانه طالما أنكم كافرون بالله ورسله، وإنما ينتفع بها المؤمن الذي عمل الصالحات، واستخدم المال في طاعة الله وأنفقه في سبيل الله، وربّى أولاده على الإيمان والعمل الصالح؛ فيؤجر على تربيتهم

الصالحة ويستفيد من دعائهم له، والضعف اسم جنس[1]، وهو مضاعفة الأجر حيث يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والباء هنا سببية، أي: بسبب أعمالهم الصالحة قرّبهم الله منه وضاعف أجرهم وثوابهم، ويُنزلهم الله الغُرفات ويُسكنهم فيها، وهي جمع غرفة، والغرفة هي الحُجَر المرتفعة في الجنة التي يستأنس من سكن فيها بالنظر إلى ما حوله من نعيم الجنة، ولذلك تجد الأغنياء والأثرياء في الدنيا يبنون لهم ما يُسمى بـ(الطيرمانات)، وهي الغرف المرتفعة في أعلى بيوتهم، بحثاً عن السعادة والتلذذ بما تحتهم من المناظر، فما بالكم بغرف الجنة التي جاء وصفها في الحديث: **"يتراءون أهل الغرف كما يتراءى أحدكم النجم أو الكوكب الدري الغابر في الأفق"**[2]؟!!، ومنحهم الله في هذه الغرف نعمة الأمن، فجمع لهم بين نعمة الأمن ونعمة التلذذ بالنعم!.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾، وهذه على طريقة القرآن في الوعظ والإرشاد، حيث يذكر حال أهل الجنة ترغيباً فيها، ويذكر حال أهل النار ترهيباً منها، والمقصود بالسعي هنا الجد والاجتهاد في محاربة الحق والدعوة إلى الكفر وإضلال عباد الله، والتكذيب بالحجج والبراهين التي جاءت بها الرسل وإبطالها؛ لكي يمنعوا الناس عن الإيمان بها ويُبعدونهم عنها، ويفعلون ذلك ظناً منهم أنهم مسابقون

---

(1) تفسير ابن عطية: (4/ 422).

(2) صحيح البخاري: (4/ 119)، برقم: (3256).

الله وهاربون من عقوبته[1]، فلن يُفلتوا من عقوبته وعذابه، بل تُحضرهم الملائكة وتلقيهم في جهنم لا يجدون عنها محيصاً.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، صدر الآية سبق تفسيره، **ولكنه زاد لفظ**: (من عباده)، لأن الخطاب فيها للمؤمنين تشريفاً لهم، ثم أخبر عن حال نفقة هؤلاء المؤمنين سواءً كانت كثيرة أم قليلة؛ فإن الله يُعوّض المنفق خيراً مما أنفق، وهذا العوض يشمل زيادة المال وبركته في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة، وذيّل الآية بما يشعر المنفق بالاطمئنان، ويرغبه بالزيادة في النفقة، لأن الذي يخلفه الله عليه أفضل مما أنفقه هو، وخير هنا بمعنى أتم وأكمل رزقاً[2]، لأنه لا رازق على الحقيقة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن المخاصمة بين أهل الباطل يوم القيامة دليل على تورطهم في إضلال بعضهم بعضاً.

2- محاولة تبرؤ المتبوعين من الأتباع في الآخرة، هرباً من حمل أوزارهم.

3- أن الترف سبب من أسباب الكفر؛ لأنه يُولّد الاستكبار، والمُتكبر لا يستمع إلى الحق بل يُعرض عنه غالباً.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 379).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 220).

4- أن المؤمن ينتفع بماله وولده الصالح في الدنيا والآخرة، وأن الكافر والمنافق لا ينتفع بهما في الآخرة.

5- أن الإنفاق في سبيل الله بإخلاص وطيب نفس يُؤدي إلى مضاعفة المال والبركة فيه في الدنيا، ومضاعفة الأجر والثواب في الآخرة.

تفسير المقطع الخامس من سورة سبأ

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ
سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا
يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢
وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا
هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣ وَمَآ
ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم
بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا
نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ
وَمَا يُعِيدُ ٤٩ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ
قَرِيبٞ ٥٠ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ
بَعِيدٖ ٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ
مُّرِيبِۭ ٥٤﴾.

قــول الله تعــالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، ثم بيّن ما يحصل لهؤلاء القوم المكذبين من كفار قريش وغيرهم يوم القيامة بعد أن يحشرهم الله جميعـًا، ثـم يسأل الملائكة، وهو أعلم بهم، فيقول: هل هؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم في الدنيا؟! وإنما خص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين، وهو سؤال استنكاري تقريعي توبيخي للمشركين[1]؛ لأن الملائكة منزهون عما نسب إليهم، فأجابت الملائكة بقولهم: سبحانك! أي: ننزهك ونقدسك عن أن يكون معك إله يعبد، أو أن نرضى أن يعبدنا أحد من الخلق، فأنت ربنا وإلهنا الذي نتولاه ونعبده ولا ناصر لنا من دونك، بل كان أكثر هؤلاء المشركين يعبدون الشياطين حين أطاعوهم في عبادة غير الله، وقد كانت الشياطين تدخل إلى أجواف بعض الأصنام إذا عُبِدَت، فيُعْبَدون بعبادتها[2]، وكان أكثر المشركين مصدقين للشياطين فيما يأمرونهم به.

قال الله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وفي يوم القيامة لا يملك المعبود للعابد نفعـًا كالشفاعة، ولا دفع ضرٍ كالعذاب[3]، ويقول الله للذين وقعوا في الظلم الأكبر وهو

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 380).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1608).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 378).

الشرك: نالوا عذاب النار التي كنتم تكذّبون في الدنيا بها وتجحدون وجودها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾، وحين كان محمد ﷺ يقرأ على المشركين آيات القرآن الكريم الواضحة؛ يقول بعضُهم لبعض: إن محمداً يريد بهذه الدعوة أن يُبعدكم عن آلهة الآباء والأجداد وعن الديانة التي ورثتموها عنهم، واستنهضوا بذكر الآباء حمية الجاهلية في نفوسهم، ولم يذكروا اسم محمد استحقاراً له، ثم تمادوا في طغيانهم ووصفوا ما جاء به من القرآن بأنه كذب افتراه محمد ﷺ على ربه، وكان من عادة الكفار استبعاد نزول الوحي والرسالة على البشر، بل صرحوا بأن كل ما جاء به محمد ﷺ سحر واضح، وهذه الأقوال المتعددة هي مجموع ما قاله المشركون في محمد ورسالته، مما يدل على كثرة اضطرابهم وتناقضهم، **كما قال الله عنهم:** ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[الذاريات:8].

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾، هذا رد على تناقضهم وقولهم الباطل في محمد ﷺ، وفي القرآن الذي جاء به، فمن أين عرفوا أن هذا افتراء على الله، أو أنه سحر مبين؟! رغم أنه لم يبعث الله فيهم رسولاً قبل محمد ﷺ، ولم ينزل عليهم كتباً سماوية يقرؤونها ويفهمون ما فيها ويستدلون بها على قولهم هذا، وهو سؤال تعجبي إنكاري!، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبه يتشبثون بها[1].

---

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 382).

ثـم قـال سـبحانه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾، فـلا تحـزن يـا محمـد لتكـذيب قومـك لـك، فقـد سبقك أقوام كثيرة كذبوا رسلهم، وكـانوا أكثر قـوة وأطـول عمْراً وأكثر نعمـاً منهم، ليس عند هؤلاء من القوة والمكانة والعمر ما يُساوي معشار ما عند الأمم السابقة، **والمِعشار** عشر الشيء[1]، **أي:** إن مـا عنـدهم مـن القـوة يـساوي واحـداً من عـشرة مـن قـوة مـن سـبقهم مـن الكفـار كقـوم نـوح وقـوم هـود وقـوم صـالح وغيـرهم، حيـث كـذبت هـذه الأمـم مع قوتهـا الرسـل الـذين أرسـلهم الله إلـيهم فعـاقبهم وعـذبهم، فكيـف كـان نكيـري على فـسادهم وكفـرهم؟!، وهـو سـؤال تعجبي من قوة العذاب الذي نزل بهم وشدته، ! وفيه تهديد ووعيد لكفار قـريش إن استمروا في كفرهم وتكذيبهم لرسوله.

ثم قـال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾، **ثـم أمـر الله نبيـه محمـداً** ﷺ حين أكثـر المـشركون معـه الجـدال والنقـاش، أن يذكرهم بخصلةٍ واحدة قطعـًا لكثرة الجدال والنقاش معهم، وهـي: أن يخلـصوا نيتهم ويعزموا على التفكر والتأمل كل واحـد مع نفسه أو كـل اثنين مع بعض، وذلك لأن التفكير في جوٍ جماعي لا يُوصل غالبـًا إلى معرفـة الحق بسبب كثـرة اللغط وتعدد الأهواء، فالتأمل وحيداً أو مع شخص واحد متجردين من حظـوظ النفس حول قضية معينة؛ فالغالب التوصل فيها إلى الحق، والقضية التي طلبـوا

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1610).

أن يتفكروا فيها هي حال محمد ﷺ، وما علموا من عقله وصدقه وأمانته من خلال حياته معهم أكثر من أربعين سنة، فهل صفاته وتصرفاته وكلامه وتعامله مع الآخرين يشبه المجنون؟!، فلو سألتم أنفسكم هذه الأسئلة وقارنتموها بحاله ﷺ؛ لوجدتم أنه أعقل العقلاء، وأنه جاءكم بالحق منذراً لكم بالعذاب الشديد إن لم تسارعوا بالتوبة وترك التكذيب به.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾، **قل يا محمد للمكذبين بك:** لم أسألكم على الدعوة إلى التوحيد أجراً، وإن كنت قد طلبت منكم شيئًا فخذوه لكم، وهو جواب مقدر لمن زعم أن محمداً ﷺ جاء بهذه الدعوة يريد نفعًا لنفسه بتحصيل الأجر منهم على التعليم والإرشاد لهم، وهو خبر جرى مجرى التحدي لهم؛ لأنه لو كان لأحدهم علم بأنه طلب أجراً منهم لطالب بعد سماعه هذا برده إليه[1]!، **ثم بيّن** أنه ينتظر أجره من الله وحده، وذيّل ذلك باستشهاد الله تعالى على ظاهره وباطنه وأنه صادق فيما قاله لهم.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾، **قل لهم يا محمد:** إن ما أنتم عليه باطل، والباطل لا يقف أمام الحق إذا قابله، فإن الله يسلط الحق على الباطل فيبطله، فتأثير الحق على الباطل شديد، **كما قال:** ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء:18]، أي يزيله ويذهب بأثره،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 236).

والمقصود بالحق هنا الوحي الذي يلقيه الله إلى أنبيائه ورسله، **وعلّام**: صيغة مبالغة من العلم، والغُيوب جمعُ غيب، فلا تخفى عليه خافية، فإذا علم ما غاب عن الناس من باب أولى أن يعلم ما هو ظاهر ومُشاهَد لهم.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾، قل لهم يا محمد: إذا جاء الحق؛ فإن الباطل يهلك ويموت، لأن الذي لا يتحرك هو الميت، فلا يوجد له حركة ولا أثر فينتهي أمره، ويزهق **كما في قوله**: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[الإسراء:81].

ثم قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾﴾، **قل لهم يا محمد**: إن ضللت عن الحق والهدى، فإن إثم ذلك على نفسي، ولا ينالكم منه شيء، وإن حصلت لي الهداية فبسبب ما يوحيه إليَّ ربي من القرآن والسنة، وفيها إشارة إلى أن من أراد الهداية؛ فعليه باتباع الوحي، والواقع أن محمداً ﷺ لم يكن ضالاً، وأن ما أتى به هو الحق، ولكن هذا يُسمى في علم الجدل والمناظرة بأسلوب التنزل مع الخصم، بحيث يذكر له الواقع على سبيل الاحتمال لغرض الاقناع، فمحمد ﷺ أكثر الناس استقامة وصواباً في أخلاقه وسلوكه، بينما قومه يدفنون البنات أحياء، ويشربون الخمور، ويأكلون الميتة، ويسجدون للأصنام، فهو يُشير إلى ضلالهم بطريق التلميح، وهو وسيلة من وسائل المناظرة الحسنة التي لا تجرح المخاطب، وإنما تنبهه إلى انحرافه بطريقة غير مباشرة، وذيّل ما سبق بأن الله سميعٌ لأقوالنا قريب من أحوالنا، وهو خبر يفيد التهديد والوعيد للمخالف لأمره.

ثم قال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١﴾، ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الكفار حين يبعثون يوم القيامة، ويرون العذاب؛ فيحصل لهم الفزع الشديد من ذلك، ويحاولون الهرب فلا يستطيعون الفرار ولا يجدون ملجأً يلتجئون إليه، وتأخذهم الملائكة من مكان قريب سهل التناول وتلقيهم في جهنم، لرأيت أمراً عجباً.! **وفي هذا دليل** على شدة فزع الكافر وخوفه يوم القيامة، وراحة المؤمنين وأمنهم **كما قال عنهم:** ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النمل:89].

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾، هذا القول من الكفار ليس في الدنيا، ولكنهم لما بُعثوا بين يدي الله ووُقفوا على النار وعلموا مصيرهم؛ آمنوا بالله وبمحمد وبالقرآن وبالبعث وبكل ما كانوا يجحدونه في الدنيا، فلا ينفعهم الإيمان الآن لذهاب وقته، وكيف يحصل منهم ذلك، والتناوش معناه التناول لشيءٍ غير مرغوب فيه من مكان بعيد، ولو كانوا راغبين فيه لاقتربوا منه وأخذوه بحفاوة من مكان قريب، فالحريص على الشيء يقترب منه ويعتني به، وفيه استعارة تمثيلية لحالهم، وأنهم أصلاً ليسوا راغبين في الإيمان حتى في هذه الساعة رغم حاجتهم إليه، وفيه إشارة إلى أن وقت الإيمان والالتزام به يكون في الدنيا، أما يوم القيامة فمكان تناوله بعيد وزمن تحصيله قد انتهى!، ولو كانوا صادقين في إيمانهم لما كفروا به في الدنيا حين طُلب منهم، وقد كانوا قريبين منه، بل إيمانهم اليوم هو نوع من الرمي بالظن من جهةٍ بعيدة، وهذه استعارة تمثيلية فالذي يريد أن يُصيب الهدف عليه أن يقترب منه وأن ينظر إليه حال الرمي إليه،

أما من لا يرى الهدف ورماه بالسهم من مكان بعيد فالغالب أنه لا يُصيبه.![1]
وفيه إشارة إلى ما كانوا عليه في الدنيا من سفاهة في القول، وبطلان ظنونهم في الأمور الغيبية وبُعد أقوالهم عن الحق.

وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾، **هذا بيان** لحال الكفار في الآخرة، فقد مُنعوا من الحصول على ما يُريدونه من العودة إلى الدنيا أو من قبول الإيمان بعد أن انتهى وقته، أو من النجاة من النار بعد أن اقتربوا من الوقوع فيها[2]، فكل ذلك يشتهيه الكافر يوم القيامة، ولن يُمكّن منه ولن يحصل عليه؛ وليس هذا الأمر خاصاً بكفار قريش، بل هو عام يشمل كل الكفار المتفقين معهم في الكفر والشرك، كقوم نوح وقوم لوط وغيرهم، فلن تلبى طلباتهم في الآخرة بسبب شكهم في استحقاق الله للألوهية، وشكهم في إرساله للرسل، وفي البعث والنشور، وسائر الأمور الغيبية التي أخبرهم بها الرسل، وهذا هو الفرق بين المؤمن الذي يؤمن بالغيب وبين الكافر الذي لا يُؤمن إلا بالمحسوسات ويشك فيما لم تره عينُه، فيُحرم الإيمان ويُحرم من النجاة في الآخرة.

---

(1) ينظر: تفسير الألوسي: (11/ 331).
(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 504).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان خطورة التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولغيرهم، فإنه يصرف الإنسان عن معرفة الحق.

2- أن التفكر السليم مع الإخلاص وتجرد النفس من الأهواء يُوصل صاحبه إلى الحق.

3- أن التفكير الجماعي غالبًا يمنع من الوصول إلى الحق، لصعوبة تخلص النفس من الهوى.

4- أن على الداعية إلى الله أن يطلب أجره من الله ولا ينتظر أن يمنحه الناس أجراً ولا ثوابًا.

5- بيان مشهد فزع الكفار يوم القيامة، وأمن المؤمنين.

6- أن وقت الإيمان والتوبة هو الدنيا، فهي دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء.

تفسير سورة فاطر

تفسير المقطع الأول من سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ
فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا
يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ
خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ
سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ
الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)﴾.

شخصية السورة:

سورة فاطر؛ وتُسمى بسورة الملائكة عند بعض المفسرين[1]، سورة مكية[2]، **ومن مقاصد هذه السورة** بيان فقر الخلق المطلق إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبيان غنى الله جَلَّ وَعَلَا عن خلقه.

افتتحت بالحمد والثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقال الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾، **الألف واللام** للاستغراق، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مستحقٌ للحمد المطلق كله؛ لأنه خالق السموات والأرض على غير مثالٍ سابق، وخلق الملائكة للعبادة المطلقة، وجعل من مهام أعمالهم أن يُرسلهم من السماء إلى الأرض في مهمات وأعمال محددة، فمنهم من يحفظ البشر ومنهم من يُسجل عليه الأعمال، ومنهم من ينزل بالوحي، ومنهم من يأتي بالمطر، ومنهم من يأتي بالعذاب، وغير ذلك من الأعمال التي يُكلفون بها من الله ويُرسلون بها إلى الخلق، وجعل الملائكة ذات أجنحة، وهل خلق الله الملَك بجناح أو بأجنحة ويظل على هذا الخلق، أم أنها صفة مُتعلقة بالإرسال فقط؟ قولان للمفسرين[3]، ثم بيّن وصف هذه الأجنحة، فبعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة، وهذا يعني أنه يوجد في كل جهة للملك اثنان أو

---

(1) التفسير البسيط: (18/ 399).

(2) تفسير البغوي: (3/ 687).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 249).

ثلاثة أو أربعة أجنحة، وذكر هذا العدد للتمثيل وليس للحصر، والسياق بعده يدل عليه، فإنه سبحانه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وقد جاء في الحديث: "أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته بين السماء والأرض له ستمائة جناح"[1]، **أي**: في كل جهة ثلاثمائة جناح، ويحتمل أن الزيادة عامة، **أي**: يزيد في خلق الخلق ما يشاء[2] من الجمال والحُسن والصفات وغيرها، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ على كل شيء، ولا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾، **هذا إخبارٌ من الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن مفاتيح الخير بيده، وأن الخلق ليس بيدهم شيء، فالرحمة اسمٌ يعُم كل خيرٍ يعطيه الله للإنسان من رزقٍ وصحةٍ وجاهٍ وغير ذلك، فإذا فتح الله للناس أبواب هذا الخير؛ فلا يقدر على منعه أحدٌ؛ فخزائن الخير بيده سبحانه، وهذه الآية تُعطينا الأمان، وتدعونا إلى كمال التوكل والالتجاء إلى الله بعد أن نأخذ بالأسباب، وعدم التعلق بالمخلوقين في أرزاقنا وأحوالنا وسائر أمورنا، وما يُمسك الله من خيرٍ فلا يرسله أحد غيره سبحانه، فالعطاء والمنع بيد الله، وعبّر بالإمساك ليكون أشمل، فالإمساك: القبض، والإرسال: الإطلاق، فما فتحه الله فلا مُغلِق له، وما منعه فلا مُعطي له، وما أعطاه فلا مانع له، فلا يتصرف في الكون أحد غيره سبحانه، وذيّل

---

(1) صحيح البخاري: (4/ 115)، برقم: (3232).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 388).

الآية باسمين من أسمائه الحسنى، وهما (العزيز الحكيم)، فالمنع والعطاء يحتاجان إلى قوة وحكمة فلا يظهر فيها خلل ولا تقصير.

ثم قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾، **الخطاب عامّ** للناس كلهم، **والمقصود به هنا** قريش[1]؛ لأنهم كانوا هم المخاطبون بالقرآن عند نزوله، فكذبوا بالنبي محمد ﷺ وبما جاء به من الرسالة، فذكّرهم الله بما منحهم من النعم الكثيرة، فقد جعلهم من أهل الحرم وساق لهم الأرزاق، وجعلهم يعيشون فيه آمنين، ونحوها من النعم التي تقتضي منهم أن يشكروا الله عليها فيُؤمنوا به، فلا خالق لهم ولا رازق لهم غيره، والسؤال هنا استنكاري؛ لأن القوم كانوا يُقرّون أنه لا رازق غير الله، وجمع بين فعلين من أفعال الله وهي: الخلق والرزق، فإن من يخلق ولا يرزق لا يُسمى إلهاً؛ لأن فعله ناقص، ومن يرزق ولا يخلق، ففعلُه ناقص، بل لا يستطيع أن يرزق وهو لا يستطيع أن يخلق، وذكر السماء والأرض لأن فيهما مصدر الأرزاق، فالسماء مصدر للمطر، والأرض مصدر النبات والأقوات، ثم ذكر الهدف من هذا الاستدلال، وهو إثبات الألوهية، فالخالق الرازق هو من يستحق أن يكون هو الإله سبحانه، فما الذي صرفكم عن التوحيد والإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له؟! وهو سؤالٌ تعجبي استنكاري، فكيف تُصرفون عن الإيمان بعد وضوح أدلته؟!

---

(1) ينظر: تفسير الثعالبي: (4/ 382).

ثــم قــال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾، التفت بالخطاب إلى رسول الله ﷺ، وهو خطاب تسلية له، فلست أول رسول كُذِّب، فقد أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل، فكذّب بهم أقوامهم، وإلى الله تُرجع أمور الناس كلهم يوم القيامة، المؤمن والكافر؛ فيحكم بينهم جميعًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيجزي المكذّب بتكذيبه، والمؤمن بإيمانه.

وقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾، ثم أخبرهم أن البعث والنشور والجزاء والحساب آتٍ لا محالة؛ لأنهم كانوا يكذبون به، فإذا كان وعده حقًا، فتهيّئوا له بالإيمان والأعمال الصالحة، وحذّرهم من أن تخدعهم الحياة الدنيا وما فيها من الشهوات والملذات عن الاستعداد لذلك اليوم، ولا يخدعهم الشيطان، ووصفه بالغرور؛ لأنه كثيراً ما يغُر أصحابه ويخدعهم بتزيين الباطل لهم، وأكّد لهم أن الشيطان عدو لهم، واللام للاختصاص، وعداوة الشيطان لبني آدم جبلّية لا يرجى زوالها، لذا أمرنا الله باتخاذه عدواً على الدوام، ومن لوازم اتخاذه عدواً العمل بخلاف ما يدعو إليه لتجنّب مكائده وخداعه لنا(1)، وقد بدأت عداوته لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين أبى السجود له، وأقسم بعزة الله أن يُغوي بني آدم أجمعين، فحذرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه وذكّرنا بعداوته؛ لأن مهمته وشغله الشاغل أن يدعو من اتبعه إلى الكفر بالله الذي عاقبته ونهايته دخول جهنم وملازمتها وعدم الخروج من عذابها.

(1) التحرير والتنوير: (22/ 260).

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾، **هذا بيانٌ** لانقسام الناس بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى فريقين: فريقٌ أضلّه الشيطان وسار في طريقه، وهم الذين كفروا بالله ورسله، فلهم عذاب شديد في الآخرة في نار جهنم، وفريق اتخذ الشيطان عدواً واتبع الحق وسار في طريقه، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الجنة على أعمالهم، وهذا من عدل الله سبحانه في الخلق حيث يُجازي الله العبد بعمله.

وقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾، هذا بيانٌ لحال الفريق الأول، وهم أتباع الشيطان، وأنهم وقعوا في الكفر بسبب تزيين الشيطان لهم الباطل القبيح حتى يراه في صورة حسنة، وهو في الواقع قبيحٌ، وإنما زيّنه الشيطان لهم فاستحسنوه ومالوا إليه وفعلوه، **وهو سؤال جوابه محذوف تقديره:** أفمن زُيّن له سوء عمله كمن لم يُزيّن له؟!

ثم بيّن أن الذي زُيّن له سوء عمله هو الذي أضله الله، وأن الذي لم يُزيّن له سوء عمله، هو الذي هداه الله[1]، ثم جاء الخطاب مسلياً للنبي ﷺ بالنهي عن إتعاب نفسه بالحزن والحسرة عليهم بسبب عدم إيمانهم، وذلك لأنه كان حريصاً على هداية قومه، فلما لم يؤمنوا به كان يحزن لذلك، وهذا الحزن كان يُؤثر على نفسيته، وعبر بـ"حسرات" لتكرار التكذيب منهم وتكرار الحسرة منه

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1624).

عليهم، وذيّل الآية بأن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عليم بما يعملونه من الكفر والتكذيب، وهو خبر ولكنه يفيد التهديد والوعيد لهم.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾، **هذا بيانٌ** لبعض نعم الله على خلقه، وهو إرسال الرياح حيث يُحرّكها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بسرعة محددة، فتكون فيها منفعة ورحمة للخلق، فتُحرّك السُّحب المتوزعة في السماء فتجمعها وتسوقها إلى مكان معيّن، وكلما تجمعت السحب وارتفعت كلما تكثّفت وتكّون فيها الماء، فيسوق الله هذا السحاب فوق البلد الذي قد يبست أرضه وماتت من شدة العطش والجدْب، فإذا نزل عليها المطر أحياها الله به، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، فضرب لهم بهذا مثلاً يرونه بأعينهم لتتضح لهم قدرته على البعث والنشور للخلق في الآخرة، فكما أحيا الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، فكذلك سيُحيي الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الأجساد المندثرة في القبور ويبعثهم يوم القيامة ليحكم بينهم بعدله.

ثم قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾، **هذا خطابٌ** فيه تلميح بحال الكفار، وأن الكفار امتنعوا عن الإيمان بالله والتصديق برسالة محمد ﷺ اعتزازاً بما عندهم من الجاه والملك والمال والسلطان، ظنًا منهم أنهم لو آمنوا بالله لسُحبت منهم هذه العزة وهذه المكانة التي كانوا عليها، فبيّن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لهم أن العزة الحقيقية لله، فهو مالكها ومصدرها، ومن

يريدها فليطلبها من مالكها بأسبابها، وهي الإيمان والعمل الصالح، كما قال عمر لما طلبوا منه أن يعتز بشيء دنيوي: "نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمن ابتغى العزة بغير الله أذلّه الله"[1]، فالعزة لله جميعًا يمنحها من يشاء ممن يستحقها، **كما قال:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون:8]، والكلِم الطيب هو كل كلام حسنٍ، وأعظمه قول: لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد، ويدخل فيها ذكر الله المطلق، فهو يصعد إلى الله ويتقبله من صاحبه، لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، بخلاف الكلام الخبيث فيظل ساقطًا منبوذاً في الأرض لا يرفعه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولا يتقبله، فالكلام الطيب هو عمل اللسان، والعمل الصالح هو عمل القلب والجوارح، كالإخلاص والصلاة والصيام والصدقة ونحوها، ويدخل في معنى العمل الصالح كل ما فيه خير للبشرية، فيرفعه الله إليه أيضًا ويتقبله من صاحبه، **وقيل:** إن الضمير في ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾، يعود إلى الكِلم الطيب، **أي:** يرفع العملُ الصالح الكلِمَ الطيب، **والمعنى** أن الإنسان إذا قال كلامًا حسنًا ولم يكن له عمل صالح؛ فلا يرفع، **وقيل:** إن الكلِم الطيب هو كلمة التوحيد، وهو الذي يرفع العملَ الصالح، فلو عمل العبد عملاً صالحًا بدون توحيد فلا يُرفع[2]، والذي يظهر لي أن كل المعاني مرادة ولا تعارض بينها، فالعمل الصالح يرفع صاحبه، والتوحيد مهمٌ لقبول الأعمال الصالحة، والعمل الصالح مهمٌ لمطابقة القول للعمل، ثم بيّن حال الصنف الآخر، وهم أصحاب العمل السيء، والمكر هو العمل الخفي الذي يُقصد به الخداع للآخرين،

(1) ينظر: البداية والنهاية: (7/ 60).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 464).

والسيئات صفة لمحذوف تقديره المكرات السيئات[1]، توعدهم الله بالعذاب الشديد في الآخرة، وفي الدنيا يعود عاقبة مكرهم عليهم، فلا ينجح مكرهم، بل يفسد ويبطل، وهذا الذي نراه في الواقع، بفضل الله، فكم بذل أعداء الإسلام منذ ظُهوره إلى اليوم من جهود كبيرة للقضاء على الإسلام وأهله؟!، فأبطل الله مكرهم وأفشل مخططاتهم، وكانت عاقبة مكرهم عليهم، **كما قال:** ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر:43].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- عِظم خلق الملائكة، وذلك دليلٌ على عِظم قدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

2- التسلية للنبي ﷺ بذكر أخبار الرسل وتكذيب أقوامهم لهم.

3- أن الاغترار بالدنيا سبب من أسباب الانحراف والضلال عن الحق.

4- الأمر باتخاذ الشيطان عدواً أزليًا؛ لأنه يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

5- ثبوت صفة العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

6- أن التوحيد مهمٌ لقبول الأعمال الصالحة، والعمل الصالح مهمٌ لمطابقة القول للعمل.

7- بيان عاقبة المكر السيء وأنه لا ينجح، ووباله يكون على صاحبه.

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 80).

تفسير المقطع الثاني من سورة فاطر

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا
يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا
عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ
تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا
يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ
خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ
وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ
حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ
وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾﴾، في هذه الآيات يُذكّر الله الخلق بكيفية خلقهم، فقد خلق أباهم آدم من تراب، ثم خلق منه زوجَه حواء، ثم صار الخلق يتناسلون من

النطفة عن طريق التزاوج بين الذكر والأنثى[1]، ثم أردفه ببيان سعة علمه وإحاطته بالكائنات الخفية والظاهرة، فهو يعلم ما في الأرحام من الأجنة وموعد وضعها وأعمار الخلق بعد الولادة، وكلمة (أنثى) لفظ عام، ولكن المقصود بها أنثى الإنسان لأن السياق يتحدث عن آدم وذريته، **والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** يعلم من يطول عمره ومن يقصر عمره.

وفي عودة الضمير في عمره قولان[2]: **الأول**: أنه يعود إلى الغير، وهو معروف في لغة العرب، **تقول**: عندي درهم ونصفه، **أي**: ونصف درهم آخر، **والمعنى** ما يُعمّر من أحد وما يُنقص من عمر أحد آخر إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، **والثاني**: أنه يعود على المعمّر نفسه، والمعنى لا يزاد في عمر إنسان ولا ينقص من عمره إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، والراجح الأول، واسم الإشارة يعود على ما سبق ذكره من الخلق والإيجاد والعلم والإحاطة بالخلق كل ذلك يسيرٌ على الله.!

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، **ثم ذكر بعض آياته في خلقه** التي سخّرها للإنسان، ويستدل بها على استحقاقه للألوهية، فذكر عدم استواء مياه البحرين، وهما: الماء العذب الذي يسهل شرابه لشدة عذوبته، وهي مياه الأمطار

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 276).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1627).

والأنهار، والماء المالح الذي لا يمكن شربه لشدة ملوحته، وهي مياه البحار والمحيطات، فإن الاختلاف بين البحرين بالعذوبة والملوحة دليل على دقيق صنع الله سبحانه، **وقال أكثر المفسرين**: إن المراد من الآية ضرب المثل في حق المؤمن والكافر، والكفر والإيمان، فكما لا يستوي البحران كذلك لا يستوي المؤمن والكافر[1]، ثم ذكر لهم بعض النعم المستفادة من مياه الأنهار والبحار، **ومنها**: الحصول منها على لحم السمك الطري الطازج، الذي يتنعمون بأكله، ومنها: استخراج الحِلية التي تُلبس للزينة، وهي اللؤلؤ والمرجان، وتُستخرج من المالح فقط أو من مجموع البحرين[2]، حيث تتكوّن من اختلاط الماء العذب بالماء المالح بسبب الأمطار أو بسبب الأنهار، **ومنها**: نعمة تسيير السفن الكبيرة التي تراها وهي تشقُّ عُباب البحر مُقبلة ومدبرة، طافية على سطحه، من أجل أن تتنقلوا عليها وتنقلوا بها تجاراتكم وأمتعتكم إلى البلدان البعيدة في مدة قليلة، سخّر لكم ذلك لكي تشكروا الله على هذه النعم فتعبدونه سبحانه.

ثم قال سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾، ثم بعض آياته في المجرات الكونية، فذكر إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وهو دخول ساعات الليل في النهار ودخول ساعات النهار في الليل، حيث ينحت أحدهما في الآخر، فأحيانًا

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 393).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1628).

يطول الليل، وأحيانـًا يطول النهار، وأحيانـًا يتساويان، وتبعـًا لذلك يتغير المناخ والحرارة والبرودة ويستفيد من ذلك النباتات وسائر المخلوقات(1)، ويدخل في معنى الإيلاج دخول ظلام الليل بالتدريج وظهور نور النهار بالتدرج، وسخر الشمس والقمر وجعل في جريانهما منافع للخلق في معرفة عدد السنين والحساب، ومدّ الأرض بالحرارة والنور والدفء المعتدل، ولا تزال الشمس والقمر يجريان بانتظام إلى يوم القيامة، وهو الأجل المسمى لهما، واللام للتوقيت فينتهي وقت جريانها عند انتهاء أجل الحياة، والذي سخر هذا كله لكم هو الله الرب المستحق للعبادة، وله الملك المطلق، والذي تدعونه من الأصنام والأوثان والجن وغيرهم هم مخلوقات لله سبحانه، لا تملك في الكون شيئًا صغيراً حقيراً، **والقطمير**: هو القشرة الخفيفة التي تكون على ظهر نواة التمر من داخلها(2)، فكيف جعلتم منهم آلهة يتصرفون في الخلق وهم بهذا الضعف؟!

ثم قال: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾، **ثم بيّن** عجز هذه الآلهة المزعومة فهي جمادات لا تملك لأنفسها ولا لمن يعبدونها نفعـًا ولا ضراً، فلا تسمع دعاءهم لها، ولو افترض أنها سمعت الدعاء فإنها لا تستطيع الاستجابة لهم لعجزها، وحين يبعثهم الله مع آلهتهم يتبرأ المعبودون من شرك العابدين، ويقولون لهم: ما كنتم إيانا تعبدون، وذيّلت الآية بالخطاب لرسول الله ﷺ،

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 540).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (18/ 412).

والمعنى ولا يخبرك عن حقيقة أمر هذه الآلهة وحال من عبدوها يوم القيامة إلا ذو خبرة، وهو الله سبحانه، فلا أحد أخبر منه بخلقه.

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾، الخطاب عام لجميع الناس فيشمل المؤمنين والكفار، فالجميع محتاجون إلى الله في كل شؤونهم، والله غير محتاجٌ إليهم، بل هو الغني الذي لا يحتاج إلى غيره، **كما قال:** ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[الإخلاص:2]، **أي:** الذي تصمد إليه الخلائق وتحتاجُ إليه، وجمع بين اسمي (الغني والحميد)؛ ليدل على جوده وكرمه الذي يوجب أن يحمده عباده، ولأن غناه محمود بكل حال، لا أشر فيه ولا بطر، بخلاف الإنسان الذي يعتريه الطغيان بسبب الغنى، **كما قال:** ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[العلق:6-7].

ثم قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾، **ولو شاء الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهلككم أيها الناس وأتى بخلقٍ غيركم يعبدونه ويُوحدونه، وليس في ذلك مشقة على الله، ولا شيء من ذلك ممتنع عليه، فهو على كل شيء قدير.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، وهذه قاعدة مطلقة لبيان عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي من قواعد الإسلام في أحكام الجنايات في الدنيا، فكل مذنب يُعاقب بذنبه، ولا يعاقب به غيره، بخلاف قواعد وأسلاف القبائل في

الجاهلية التي كانت تعاقب المذنب أو القريب له، وجاء الشرع بإبطالها، فلا تحمل نفس بريئة ذنب أو جرم نفسٍ أخرى، وإنما كل إنسان يتحمل عاقبة جرمه في الدنيا وفي الآخرة، وعبّر بالمؤنث باعتبار أن النفس هي التي كسبت الذنب، وإنْ تطلب نفسٌ مُثقَلةٌ بأوزارها يوم القيامة نفساً أخرى لتحمل عنها أوزارها؛ فإنها لا تجد من يستجيب لطلبها؛ ولو كان المدعو والمستغاث به قريباً له، ويفر كل قريب من قريبه وينشغل بنفسه، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[عبس:34-37]، ولا تعارض بين هذه الآية **وبين قوله:** ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[النحل:25]، فإن من دعا غيره إلى الضلال فإنه يحمل وزره؛ لأنه كان سبباً في فعله، **وفي الحديث:** **"ومن سنّ سنّة سيّئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئًا"**(1)، **ثم تحوّل الخطاب لنبيه محمد** ﷺ، ليسلّي عليه بسبب كفرهم به، وأخبره أنه لن يستفيد من دعوته وإنذاره إلا المؤمن المخلص الخائف من الله في خلوته، العامل بما أمره الله به، ونص على الإيمان بالغيب؛ لأنه من أبرز أعمال القلوب، ونص على الصلاة؛ لأنها من أبرز أعمال الجوارح الظاهرة، ثم ذكر قاعدة أخرى تُقابل القاعدة الأولى المتعلقة بجزاء الجنايات، وهي قاعدة جزاء الحسنات والطاعات، فمن زكّى نفسه وطهّرها بالطاعات؛ **فثمرة ذلك** ونفعه عائدٌ على صاحبها، فإن الله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، **وفي الحديث القدسي:** **"إنما**

---

(1) مسند أحمد: (31/ 541)، برقم: (19206) وإسناده صحيح.

هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه"[1]، ومرجع الخلق جميعاً إلى الله ثم يحاسبهم على أعمالهم، فالصالح يُجازَى بعمله والسيئ يُجازَى بعمله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية التفكّر في نعم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على الخلق ووجوب شكر الله عليها.

2- أن الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية منهج قرآني، فالخالق الموجد هو الذي يستحق العبادة دون سواه.

3- بيان سفَه عقول المشركين الذين عبدوا الأصنام والأوثان، وهي لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً.

4- بيان أن الخلق كلهم مُفتقرون إلى الله، والله غني عنهم.

5- أن صفة الافتقار إلى الله عبادة من أعظم العبادات، بل هي لُب العبودية، فمن خلالها يخضع العبد لله ويتضرع إليه ويتوكل عليه، فلا يزال قريباً من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

6- أن العبد هو من يتحمل عقوبة ذنبه ولا يحمله أحد عنه.

7- أن تزكية النفس بالطاعات تعود منفعتها على صاحبها، وأن إفسادها بالمعاصي يعود ضررها على صاحبها.

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 1994)، برقم: (2577).

تفسير المقطع الثالث من سورة فاطر

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا
الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ
﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ
﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ
مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ
تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾، هذه الآيات تتحدث عن أمثلةٍ ضربها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمؤمن والكافر، فشبّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير، فكما أنه لا يستوي عند الناس قدرات الأعمى

وقدرات البصير في التصرّف ومعرفة الطريق والمشي عليها، فكذلك لا يستوي حال المؤمن وحال الكافر، **ووجه الشبه بين البصير والمؤمن والأعمى والكافر؛** أن الكافر أعمى البصيرة فلا يرى الحق ولا يهتدي إليه، كحال أعمى البصر الذي لا يرى النور ولا يعرف الطريق، أما المؤمن فهو مبصر القلب والبصر، ففتح الله قلبه لنور الإيمان فاهتدى به، كما فتح الله عينه لنور الشمس فأبصر بها ما حوله، فلا يستوي حال هذا مع حال هذا.!

وقوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾، **وهذا مثال ثانٍ،** فالظلمات وصفٌ للكافر، والنور وصفٌ للمؤمن، وجمع الظلمات لتعدد مصادرها، وأفرد النور لأن مصدره واحد، فلا تستوي الظلمات ولا النور، فالنور مثالٌ للمؤمن الذي هداه الله إلى الحق، والظلمات مثالٌ للكافر الذي منعه الله الهداية فعاش في ظلمات، فلا يستوي حال هذا مع حال هذا.!

وقوله: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾، **وهذا مثالٌ ثالث،** ضرب الظل مثلاً لأثر الإيمان، **والحرور:** هو حر الشمس، أو الريح الحارة، مثلاً لأثر الكفر[1]، **وقيل**[2]: مثالٌ لثواب المؤمن وعقاب الكافر، أو وصفٌ للجنة وللنار، وعلى كل المعاني، فلا يستوي هذا مع هذا.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾، **وهذا مثالٌ رابع،** فالأحياء وصف للمؤمنين،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 293).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1633).

والأموات وصف للكافرين، والمقصود هنا بالحياة حياة القلوب والأفئدة، وبالموت موتها، فكما لا يستوي الأحياء مع الأموات، فلا يستوي حال المؤمن مع حال الكافر، ثم بيّن أن الله هو الذي يوصل الهداية إلى قلوب من يختارهم من عباده، وأن محمداً ﷺ لا يملك إيصال الهداية إلى قلوب المشركين الذين شبههم بالموتى في عدم إحساسهم، والمنفي هنا هو سمع العمل، لا سمع الصوت، **والمعنى** أن هداية التوفيق بيد الله يمنحها من يشاء، وليست بيد أحدٍ من الخلق، أما أنت يا محمد وغيرك من الرسل فعملكم الإنذار والنصح والتوجيه والإرشاد للخلق، وسماها هنا نذارة؛ لأن الخطاب موجّه للكفار، ومهمة الرسل مع الكفار هي الإنذار والتخويف بالوعيد.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾، **ثم جاء الخطاب بالمهمة العامة للرسول وهي** التبشير بالخير والوعود الحسنة للمؤمنين، والنذارة للمخالفين، فقد أرسله الله بالحق، وهو الإيمان بالله والشرائع التي افترضها على عباده، والباء هنا للمصاحبة(1)، فهو في كل ما جاء به مصحوباً بالحق لا ينفك عنه، بل جاء لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ولست يا محمد أول رسول، بل قد سبقك عدد كبير من الأنبياء والرسل في الأمم السابقة لك.

وقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾، **وفي هذه الآية تسلية لمحمد ﷺ**، فلست أول من كذّبه قومه، فقد كُذّب قبلك رسل من أقوامهم، وقد جاءوهم بالمعجزات

---

(1) تفسير الزمخشري: (3/ 608).

والمواعظ المكتوبة في الصحف، والكتب السماوية المحتوية على الأحكام الواضحة البينة، كالتوراة والإنجيل(1)، فحصل منهم التكذيب رغم وجود هذه الثلاثة الأنواع من الحجج والبراهين، فلا تستغرب تكذيب قومك لك.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾، **ثم**: حرفُ عطف يفيد التراخي، **والمعنى** إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يأخذهم بعد التكذيب مباشرة، وإنما أعطاهم مهلة، وهذه المهلة هي أجلهم المكتوب لهم في اللوح المحفوظ، ونص على سبب الأخذ وهو الكفر ليشمل السابقين واللاحقين ممن يتصف بهذه الصفة، فكيف كانت عقوبتي لهم ونكيري عليهم(2)؟!، وهو سؤال استنكاري! **ونكير**: صيغة مبالغة من الإنكار وهو تعبيرٌ عن الأخذ الشديد الذي حصل للأمم السابقة المكذبة.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾، الخطاب لكل من يصلح له الخطاب حتى اليوم، والرؤية تصلح أن تكون رؤية بصرية؛ لأن رؤية المطر ممكنة، وتصلح أن تكون قلبية؛ لأن تفاصيل تكوين المطر قبل إنزاله لا تُدركه الأبصار وإنما نعلمه بالتفكر فيه، فهذا الماء هو ماء المطر الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض فتشربه الأرض وتنبُت به الأشجار وتخرج به الثمرات، والتنوين في الثمرات لتعددها وكثرتها، وذكر الاختلاف في اللون

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 85).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (14/ 341).

ليشمل النوع واللون والطعم والرائحة والشكل والحجم ونحوها، ففي ذلك كله آية من آيات الله في هذا الباب، فقدأاخرج من شيءٍ واحد أنواعًا متعددة من الثمار، ثم ذكر النوع الثاني من الاختلاف والتنوع، وهو في الجبال، فالجُدد جمع جُدَّة بضم الجيم وتشديد الدال وهي الخُطة والطرائق التي تكون في الجبل، فهناك قطعة حمراء وقطعة صفراء، ونحوها من الألوان، والغرابيب جمع غِربيب، **أي:** شديد السواد، ومنه سمي الغراب لشدة سواده[1]، وهذا التنوع آية من آيات الله في الجبال.

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، **ثم ذكر النوع الثالث من الاختلاف في البشر والدواب**، وهي كل ما يدب على الأرض من الحيوانات والأنعام، هي **الأربعة الأصناف المعروفة، وهي** الإبل والبقر والغنم والضأن، فالناس والدواب والأنعام فيهم اختلاف وتنوّع في ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم وسائر صفاتهم كاختلاف الثمرات والجبال[2]، وهذا التنوع والاختلاف آية من آيات الله في هذه المخلوقات، ثم ختم الله بوصف حال العلماء الذين فتح الله قلوبهم للتدبر والتفكر في مخلوقات الله، وعظَمة قدرته في الخلق، فيزيدهم ذلك خشيةً لله وتعظيماً له سبحانه، وإذا أُطلق العلم في نصوص الوحي فالمقصود به علم الشريعة، فالعالم هو الذي يعرف الله، فيخافه ويرجوه، **ولا مانع أن يشمل كل**

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 86).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 399).

علم يعرّف بالله مع ضرورة وجود الحد الأدنى من علم الشريعة مع صاحبه، كعلم الأحياء والأجنة، وعلم الجغرافيا والجيولوجيا، وعلم الفلك، وعلم الطب، ونحوها من العلوم التي تدل على قدرة الله وعظمته، وكل من كان بالله أعلم كان أكثر خشية له سبحانه، فالعِبرة في آثار تلك العلوم على صاحبها، والحقيقة أن بعض المتخصصين في العلوم الطبيعية والطبية والجيولوجية وفقهم الله لاستغلال تخصصهم في الدعوة إلى تعظيم الله وغرس حبه في النفوس من خلال ربط مفردات المادة بقدرة الله سبحانه، وقد ذُكرت خشية العلماء لله هنا بعد ذكر مجموعة من علوم الطبيعة، إشارة إلى ضرورة الاستفادة من الآيات الكونية والتفكر فيها، فإنها تدل على الله كما تدل عليه آيات القرآن الكريم، وذيّل الآية بأنه عزيز؛ تعليل لوجوب خشيته سبحانه، وغفور لمن قصّر في ذلك، فلا ييأس من رحمته، وفي الآية دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾، **بعد الحديث عن التفكر والتأمل في الكتاب المفتوح** وهو الكون، انتقل لبيان حال المتدبرين لكتابه المكتوب وهو القرآن الكريم.

والتلاوة لها معنيان[1]: **تلا** بمعنى قرأ، **وتلا** بمعنى اتبع، وكلاهما مطلوب من المسلم مع القرآن الكريم، يقرأه ويتبع أحكامه ويمتثل أوامره، والمقصود

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1638).

بهم المؤمنون به؛ لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به، وهم العلماء الذين يخشون الله، ويتفكرون في الكون، ويتلون القرآن، ويتدبرونه، ويتبعون أحكامه، ويحافظون على إقامة الصلاة، وهي أعظم العبادات البدنية المتكررة في اليوم والليلة، وينفقون مما أعطاهم الله من المال، وهي أعظم العبادات المالية، ويخلصون في نفقاتهم وأعمالهم ولا يريدون بها رياء ولا سمعة، بل يبتغون بها وجه الله، ويداومون عليها في كل الأحوال، ويطمعون أن تكون كل أعمالهم هذه من التجارة الرابحة مع الله، وشبّه الأجر من الله لهذه الأعمال بالتجارة؛ لأن معنى اتجر هو العمل طلباً للأجر، ولولا الربْح وهو ثمرة تعب التاجر ما تاجر[1]، ونفى عنها البوار وهو الفساد والكساد، فهي أجلّ التجارات وأعلاها وأفضلها، فهي سبب لرضى ربهم عنهم وفوزهم بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وقد وعدهم الله سبحانه بتوفية ثواب أعمالهم دون نقصٍ، بل يضاعفها لهم بما لم يخطر لهم على بال، واللام للعاقبة، **أي**: جازاهم وجعل عاقبتهم خيراً، فأخذوا أجورهم كاملة ويزيدهم عليها النظر إلى وجه الكريم في جنات عدن[2]، وذيّل الآية بأنه غفورٌ لمن أذنب وقصّر، وشكورٌ لمن اجتهد في طاعته، ولو كان عمله قليلاً.!

(1) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل: (1/ 199).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1638).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- نفي مشابهة حال أهل الحق وحال أهل الباطل في الدنيا والآخرة!.

2- أن الهداية على نوعين: هداية دلالة وإرشاد وهذه يملكها الرسل والدعاة إلى الله، وهداية التوفيق بيد الله يمنحها من يشاء.

3- سنّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ماضية في إهلاك الكافرين، ونجاة المؤمنين.

4- بيان قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في اختلاف مخلوقاته وتنوّعها.

5- بيان أن ثمرة العلم هو خشية الله.

6- بيان فضل تلاوة القرآن والعمل به وجزاء ذلك عند الله.

تفسير المقطع الرابع من سورة فاطر

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ب پ پ بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ
بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم
مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾
جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾
وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ
ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ
نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ
ٱلَّذِى كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ
فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾﴾، هذه الآية جاءت عاطفةً على ما سبق ذكره في الآية التي قبلها، من أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مدح وأثنى على من يتلو القرآن الكريم، ثم

مدح وأثنى على كتابه وهو القرآن الكريم، الذي أُنزل على محمدٍ ﷺ، فهو حق لا يعتريه الباطل، **كما قال**: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:42]، ويدعو إلى الحق، وجاء ليُقيم الحق، والألف واللام في الحق تُفيد الاستغراق، وقد جاء مُصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور، ونحوها، قبل أن يدخلها تحريف البشر، وهو خاتم الكتب السماوية ومهيمن عليها وناسخ لها، **وذيّل الآية باسمي**: (الخبير البصير)؛ إشارة إلى أن الذي اصطفى الرسل وأنزل الكتب عليهم؛ أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، لأنه عالم بدقائق الأمور وجزئياتها ظاهرها وباطنها على وجه التفصيل، وهو لفظ خبر ولكن يُفهم منه التهديد والوعيد للكافر، والبشارة والترغيب للمؤمن.!

ثم قال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾، **ثم تُفيد العطف المتراخي، أي**: بعد أن أوحى الله إلى محمد ﷺ الكتاب فعلّمه لأمته، وهذا التعليم هو الميراث الذي تركه لهم، وعبّر بالإرث لأن معاني وأحكام الكتب السابقة كلها جُمعت في القرآن الذي علّمه محمد ﷺ لأمته، فكأنهم ورثوا علم الأولين بعد ذهابهم ووفاتهم، والاصطفاء هو الاختيار والانتقاء للأجود والأحسن، وهم من آمن بمحمد ﷺ، وهم خير الأمم وأتمها وأكملها على من سبقها، فأعطاهم القرآن وورثوا العمل به وحفظه والدعوة إليه بعد رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة أصناف، رتّبهم ترتيبًا تصاعديًا بدأ

بالأدنى ثم الأوسط ثم الأعلى، والراجح من أقوال جمهور المفسرين أنهم كلهم من أمة محمد ﷺ، وأنهم ممن يدخلون الجنة، ولكن تتفاوت رتبهم فيها بتفاوت أعمالهم، فبدأ بصنف الظالم لنفسه حتى لا ييأسوا، ولكثرة عددهم، وأخّر السابقين حتى لا يُعجَبون بأنفسهم، ولقلة عددهم، فالظالم لنفسه هو الذي عمل الصغائر، ثم ذكر صنف المقتصدين وهم المتوسط في أمر الدين، الذي لا يميل إلى جانب الإفراط، ولا إلى جانب التفريط ثم ذكر صنف السابقين، وهم الذين سبقوا غيرهم في أمور الدين، وهم خير الثلاثة[1]، وقيّد السابق بالخيرات بإذن الله؛ لأنه يسبق إليها بتوفيق الله له، لا بمحض قوته، فلا يغتر بعمله الصالح، وأضاف السبق إلى الخيرات، لكثرة فعله لها، فالظالم لنفسه قلّ خيره، والمقتصد نقص خيره، والسابق زاد وكثُر خيره، والخير هو كل عملٍ صالح من قول أو اعتقاد أو فعل، ويشمل كل فعل الخير الذي بين العبد وربه وفعل الخير الذي بين العبد والخلق، واسم الإشارة يعود إلى توريث الكتاب والاصطفاء، فهو تفضّل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه الأمة، ووصفه بالكبير، أي: الذي لا يقادر قدره، فكل ما تخيّلت من أوصاف هذا الفضل فهو كبير، لأنه من الكبير سبحانه، ثم بيّن هذا الفضل بأنه دخول جنات عدن التي يقيمون فيها ولا يخرجون منها، وأتى بواو الجماعة؛ ليشمل دخول الثلاثة الأصناف السابقة الجنة جميعًا، وإن اختلفت درجاتهم فيها، ثم وصف حالهم في الجنة بأنهم يلبسون فيها الحُلي، ومنها لبس الأساور، وهي جمع أسورة، وهي التي تُوضع

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 401).

في اليد، وهي من الذهب المُوشَّى باللؤلؤ، الذي يُعطي جمالاً ومنظراً ولونًا ساطعًا للذهب، ويلبسون كذلك في الجنة الحرير، وهو الناعم من الثياب، وقد كان الذهب والحرير مُحرّمًا على الرجال في الدنيا، كما في الحديث أن النبي ﷺ رفع الذهب والحرير وقال: **"هذان مُحرّمان على ذكور أمتي حِلٌّ لإناثهم"**(1)، فأباحه الله لهم في الجنة؛ لأنها دار جزاء ونعيم، وليست دار ابتلاء واختبار.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾، **الواو:** واو الحال، **أي:** قالوا الحمد لله، حال دخولهم الجنة على تحقيق وعده لهم بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وذهاب كل ما كان يُحزِنهم في الدنيا وفي القبر وفي المحشر، وذيّلوا قولهم هذا بذكر اسمين من أسمائه الحسنى وهما الغفور والشكور، فهو غفورٌ لمن قصّر، شكورٌ لمن عمل القليل من الخير، ثم بيّن بعض نعم الله عليهم فقد أنزلهم وأسكنهم بفضله وكرمه الجنة، ووصفها بالدار التي تدوم فيها الإقامة، ويرغب من دخلها بالمقام فيها، لكثرة خيراتها، وأبعد عنهم فيها النصَب واللغب، **والنصَب:** تعبُ الأبدان والأجساد، **واللغب:** تعب النفوس، وهو ثمرة للنَّصَب(2)، فإذا تعب الجسد تألمت النفسُ، والمس الإصابة في ابتداء أمرها(3)، فنفى تعرّضهم لأدنى شيء من ذلك.

---

(1) مسند أحمد: (32/ 276)، برقم: (19515)، وسنن النسائي (8/ 160)، برقم: (5146)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1642).

(3) التحرير والتنوير: (22/ 317).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ ﴾، فلما انتهى من ذكر حال المؤمنين في الجنة، ذكر حال الكافرين في النار، فبيّن أنهم في نار جهنم يعذبون فيها على سبيل الدوام، فلا يصيبهم الموت فيها فينتهي إحساسهم بالعذاب، ولا يخفف عنهم من شدته، بل يظلون في العذاب الشديد الدائم، كما قال: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه:74]، بل تُجدد أجسادهم ليذوقوا العذاب، كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[النساء:56]، وهذه الآية جاءت جواباً على طلب أهل النار، كما في قوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:77]، وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر:49]، فلم يلبي طلبهم، بل نفى عنهم ما أرادوا!، ومثل هذا الجزاء الذي نزل بهؤلاء الكفار سينزل بكل كافر مشرك شديد الكفر، وفي هذا تهديد لأهل مكة الذين كانوا يكفرون بمحمد ﷺ.

ثم قال في وصف حالهم وهم في النار: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ ﴾، الواو عاطفة على ما سبق، ويصطرخون صيغة مبالغة من الصراخ، وهو النداء بصوت مرتفع، أي: يُنادون بأعلى أصواتهم ويستغيثون ربهم أن يخرجهم من النار، وأن يرجعهم إلى الدنيا لكي يعملوا عملاً صالحاً، وهو التوحيد والإيمان غير الذي كانوا يعملونه من قبل وهو الشرك والكفر بالله، فرد الله عليهم: ألم تكونوا تعيشون في الدنيا قد أُعطيتم عمراً كافياً للإيمان والعمل الصالح؟! وهو استفهام تقريع وتوبيخ

لهم!، فقد أعطاكم الله عمراً كافياً للاتعاظ والعبرة، فلم تحصل منكم، **وفي الحديث**: **"أعذر الله إلى امرئٍ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة"**[1]، وهذا في الغالب هو عمر الشخص في أمة محمد ﷺ، **كما في الحديث**: **"أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك"**[2]، **والنذير هم** الأنبياء والرسل في قول جمهور المفسرين[3]، **وأعظم نذيرٍ لهذه الأمة هو** محمد ﷺ، فلم تُؤمنوا بهم، فلا حجة لكم عند الله، فذوقوا عذاب النار جزاء كفركم به، وعبّر بالوصف وهو الظلم بدلاً عن الضمير، ليشمل الحكم كل من اتصف به، فكل ظالم كافر فلن ينجو ولن يخفف عنه من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾، بعد أن ذكر الله جزاء المؤمنين والكافرين ختم بهذا الآية التي تدل على سعة علمه وإحاطته بالخلق، فهو عالم غيب السموات والأرض، فإذا كان يعلم ما غاب؛ فمن باب أولى أن يعلم ما ظهر وشُوهد، وذوات الصدور هي الوساوس والخواطر الموجودة داخل النفس الإنسانية التي يُفكّر بها الإنسان وتخطر على باله ولم يتكلم بها، ولا يعلم بها أحدٌ إلا الشخص، وفيها إشارة إلى أن الله يجازي كل إنسان على نيّته، وفي هذا تهديد ووعيد على من يُسرّ شراً، وترغيبُ ومدحٌ لمن يُسرّ خيراً.

(1) صحيح البخاري: (8/ 89)، برقم: (6419).

(2) سنن الترمذي: (5/ 445)، برقم (3550)، وسنن ابن ماجه: (2/ 1415)، برقم: (4236)، وإسناده حسن.

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 441).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان فضل رسول الله ﷺ على سائر الرسل، وفضل القرآن الكريم على سائر الكتب، وفضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم.

2- بيان أن المؤمنين تتفاوت أعمالُهم الصالحة، ولذلك تتفاوت درجاتُهم في الجنة.

3- بيان أن عمرك أمانة عندك، فاستغلّه في طاعة الله حتى لا تتمنى العودة إلى الدنيا مرة أخرى.

4- بيان إحاطة علم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بكل شيء.

تفسير المقطع الخامس من سورة فاطر

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ
مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾
وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ
ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾، **هذا امتنانٌ**

من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده، حيث جعلهم يخلُف بعضُهم بعضاً في الحياة على هذه الأرض، فالأبناء يخلُفون الآباء، والصغار يخلفون الكبار، والأحياء يخلفون الأموات، وأرسل فيهم الرسل يدعونهم إلى الإيمان بالله، من كفر فعقوبة ذلك الكفر وإثمه على نفسه، ولا يُعاقَب إنسان بذنب غيره، ولا يزيد الكافر استمراره في الكفر إلا بُغضاً عند الله، والمقت أشد البغض[1]، ولا يزيدهم كفرهم بالله إلا خسارة لهم، فجمع لهم عقوبتين بسبب استمرارهم على الكفر: شدة بغض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم، وخسارة أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾، **قل يا محمد للمشركين:** أخبروني عن حال أصنامكم الذين جعلتموهم شركاء لله في الألوهية، وتعبدونهم من دون الله، هل خلقوا شيئاً من الأرض، ولو جزءاً يسيراً منها؟، ثم انتقل بالسؤال إلى السماء، وهل لهم نصيب مع الله في السموات البعيدة عنهم؟! **وهو سؤال استنكاري** تقريعي لهم، فإنهم يُقرون أن الأصنام عاجزة عن ذلك كله، ثم سألهم عن دليلهم السمعي، فهل أعطيناكم كتاباً فيه حجة وبرهان تجوّز لكم عبادة غير الله؟! **وهو سؤال استنكاري** تقريعي لهم أيضاً، فتبيّن أنه لا دليل عقلي ولا شرعي لديهم على شركهم بالله، بل شركهم بالله ناتج عن المواعدة الباطلة من الرؤساء والكبراء

(1) تفسير النسفي: (3/ 91).

لمن دونهم، والأماني الكاذبة التي يتوارثها الأبناء عن آبائهم الكفار، **كما قال عنهم**: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:23]، فهذا هو سبب وقوعهم في الشرك وليس معهم دليل عقلي ولا شرعي، بل يخدع المتقدم من بعده فيجعله يسير على طريقته ومذهبه، اتباعًا للحمية الجاهلية، والاعتداد بما كان عليه الآباء والأجداد من عادات باطلة، كما وقع لأبي طالب في آخر حياته، حيث زاره رسول الله ﷺ ليدعوه إلى الإسلام، لعلّه أن يُسلم قبل أن يموت، وكان عنده أبو جهل وعبدالله بن أمية، فقال له رسول الله ﷺ: **"قل: لا إله إلا الله"**، فقالا له: أترغب عن مِلّة عبد المطلب؟!! فقال: هو على ملّة عبد المطلب، ومات عليها[1].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾، **هذا بيانٌ وإثباتٌ** لقدرة الله وعظمته وإبداع الله في خلقِه، بعد أن نفى الشريك له في الخلق أو التصرف في الكائنات التي في السماء والأرض، فقد خلق هذه السموات وركّبها على هذه الأرض كالقبة المُجوّفة بدون أعمدة، وهو الحافظ بقدرته نظام بقائهما، والزوال يطلق على العدم، ويطلق على التحول من مكان إلى مكان[2]، ولو حصل لها نوع من الخلل وخرجت عن وضعها الذي خلقها الله عليه، ما استطاع أحد من الخلق أن يحفظها، فهو الحافظ للكون المسيِّر له سبحانه، وذيّل الآية باسمين من أسمائه

(1) ينظر الحديث في صحيح البخاري: (2/ 95)، برقم: (1360).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (22/ 328).

الحسنى؛ فهو حليم بالخلق الذين يُبارزونه بالكفر والمعاصي، فلم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم، وهو غفور لذنوب من تاب ورجع منهم.

ثم قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾، **الضمير يعود على مشركي مكة،** فقد كانوا يقسمون أيمانًا مغلّظة لو بُعث فيهم رسول منهم ليؤمنوا به ويكونوا أحسن حالاً من الأمم المكذبة السابقة برسلها، فلما جاءهم محمد ﷺ لم يُؤمنوا به، بل نفروا عنه وأعرضوا عن الإيمان به، وما زادهم إرسال الرسول منهم إلا شدة ابتعاد عن الإيمان وتكذيبًا بالحق الذي جاء به، فلم يُبروا بأيمانهم التي كانوا يحلفونها قبل بعثة محمد ﷺ، وعلّل امتناعهم عن الإيمان بسبب شدة تكبرهم عن الحق، فالسين والتاء للمبالغة، وبسبب مكرهم السيّئ، **والمكر:** هو الحيلة والخداع والعمل القبيح[1]، **وفي ذلك إشارة إلى** أن قَسَمهم لم يكن لقصد حسن، ولا لطلب للحق، بل كانوا يريدون به المكر والخداع للناس[2]، **ثم بيّن** أن عاقبة المكر السيء تعود على الماكر نفسه بالهلاك، فكل من يمكُر مكراً سيئًا بالآخرين، فعاقبة مكره ترجع عليه، فهل ينتظرون أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم الهلاك الذي نزل بالمكذبين المستكبرين قبلهم؟! **وهو سؤال تعجبي**

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 408).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 691).

للتقريع والتوبيخ لهم لعلهم أن يسارعوا إلى الإيمان قبل نزول الهلاك بهم، وسنن الله هي عاداته المنضبطة التي تسير وفق نظام مُتقَن، فلا يحصل فيها تبديل ولا تحويل، **فالتبديل هو**: التغيير، والتحويل هو: النقل، وكِلا الأمرين غير وارد في سنن الله لأنها منتظمة ومُتقنة، ومن سماتها الثبات والاستمرار وعدم التخلف، **والمقصود بها هنا** أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، حلّت به نقمة الله، وسُلبت عنه نعمته، وقد حاق بهم مكرُهم السيئ في الدنيا بالقتل والأسر، ونحوها من المصائب التي نزلت بهم، وانتصر الإسلام وفشلت جهودهم الماكرة في محاربته.!

ثم قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾، أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا، النظر هنا يُقصد به نوعي النظر: النظر البصري، والنظر القلبي، وهو التأمل والتفكر فيما يرى ببصره من آثار العقوبات التي نزلت بالمكذبين من الأمم السابقة فيأخذوا منها العِبر والعِظات، وقد كانوا أشد قوة من قريش، فما أغنت عنهم قوتهم شيئًا، ولا دفعت عنهم عذاب الله الذي نزل بهم، بل نفذت فيهم قدرة الله ومشيئته، فإنه لا يقف أمامها شيء في الأرض ولا في السماء، وذيّل الآية باسمين من أسمائه الحسنى، وهما العليم القدير، فالعجز يأتي من الجهل أو من الضعف، فنفى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن نفسه ذلك وأثبت لها كمال العلم وكمال القدرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا

مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾، **في هذه الآية بيانٌ** لحلم الله على المكذبين والمجرمين من الخلق، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم لعلهم يتوبون، فلو يعجل الله للناس العقوبة بسبب ما كسبوا من الذنوب ما ترك على ظهر الأرض من دابة!، وهذا يعني أن المعاصي والمنكرات سببٌ لهلاك أهل الأرض من الناس والدواب، **وقد يقول قائل**: ما علاقة هلاك الدواب وهي غير مكلّفة؟! **الجواب**: لأن الله خلق الدواب وأنعم بها وسخرها للبشر، فهلاكها عقوبة لهم بذهاب هذه النعم عنهم، أو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فيهلك بسببه كل شيء[1]، **ولكن اقتضت حكمة الله** سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ألا يُعجل العقوبة للكفار، وإنما يؤخرها إلى أجلٍ مكتوب عنده، وهو يوم القيامة، وسيجازيهم بما عملوا من خير أو شر، وهذا الإمهال للمكذبين والمجرمين لحكمة يعلمها الله البصير بأحوال عباده، ولا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمورهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الكفر بالله والتكذيب لرسله سببٌ من أسباب غضب الله ومقته على الخلق.

2- بُطلان عقيدة المشركين في أصنامهم وشُركائهم، فلا دليل عقلي ولا نقلي يجيز لهم ذلك، وإنما وقعوا فيها بسبب خِداع بعضهم لبعض

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 249).

واتباعهم لعادات الآباء والأجداد جهلاً وحمية.

3- بيان العاقبة السيئة للمكر والماكرين.

4- بيان الحكمة من إمهال الكفار وتأخير العقوبة عنهم لعلهم أن يؤمنوا ويتوبوا من إجرامهم.

فهرس المحتويات


لطائف البيان
في تفسير القرآن
تأليف